نال هذا الكتاب جائزة مجمع اللغة العربية للبحوث الأدبية عن سنة ١٩٥٥

دراسات في تاريخ الجبرتي

مصر في القرن الثامن عشر

الجزء الثاني

١ — الأزهر والعلماء

٢ — أيام المماليك

تأليف

محمود الشرقاوي

١٩٥٦

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

مطبعة الرسالة

شارع حمودة المقاول ٣ عابدين



مقدمة

عند ما كنت أكتب فصول هذا الكتاب ، فى أواخر سنة ١٩٥٤ ، أعلن مجمع اللغة العربية عن مسابقاته وجوائزه للسنة التالية . وكانت منها جائزة لأفضل ما يكتب عن الجبرتى ومؤلفاته . فلم أر بأساً من التقدم بهذه الدراسات التى كنت أوشكت على إتمامها .

وفى الساعة التاسعة من مساء الأربعاء ١٨ مايو سنة ١٩٥٥ [٢٥ رمضان ١٣٧٤] أقيمت فى دار المجمع جلسة علنية لإذاعة نتيجة المسابقات وتقديم الكتب المجازة . وألقى الأستاذ إبراهيم مصطفى عضو المجمع كلمة التعريف بهذه الدراسات فذكر المدارس التاريخية فى مصر منذ القرن الثامن ، ثم تحدث عن الجبرتى ، فكان مما قاله فيه : إنه « دون تاريخه فى أمانة وصدق وإنصاف . وصار فيما بعد حجة المؤرخين ومستقر ثقتهم » وإن تاريخه هذا « قدره الباحثون ، وعدوه أوثق مرجع تاريخى وأوفاه فى تاريخ مصر ، فى الحقبة التى كتب عنها . وترجم إلى اللغات الأوربية . وعد من المراجع الهامة . وإن سر خلود كتابه أنه تحرى الحق، وآثر الصدق » ولخص الأستاذ الخصومة العنيفة التى كانت واقعة بين الجبرتى ، ومحمد على . ثم قال : — « وها نحن أولاء نرى مثلا ناطقاً بقوة الحق وسلطان الصدق . فمحمد على ، الذى أزال دولة المماليك ، وزحزح ملك آل عثمان فى مصر ، وهدده خارجها . وأسس ملكا دام مائة وخمسين سنة ، واصطنع ما اصطنع من حيلة وكيد . لم يستطع أن يسكت صرير القلم ، ولا أن يطمس نور الحق . وصدقت كلمة الله : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . كذلك يضرب الله الأمثال » .

ثم انتقل بالحديث إلى « دراسات فى تاريخ الجبرتى » فقال : « أما المجمع فقد سنّ لنفسه سنة منذ سنوات . أن يوجه شباب الباحثين إلى درس تاريخنا

القريب والعصر المتصل بعصرنا . وفيه أصول نهضتنا ومنبت تكويننا . وقد أهمل ، بل جحدت آثاره ورجاله . ونسيت أعمالهم .

أعلن ، فى سنين متتابعة ، عن مسابقات فى تراجم الطهطاوى ، والمرصفى ، والنديم ، والمرتضى ، وقاسم أمين ، والشدياق . وهذه السنة كانت المسابقة فى ترجمة الجبرتى . وقد ظفرنا بترجمة له وبحث فى تاريخه قدمه الأستاذ محمود الشرقاوى واستحق التقدير والمكافأة . والأستاذ الشرقاوى كان قد صحب الجبرتى أربع سنين ، يدرس كتابه ، ويستشف منه أحوال مصر وحياتها فى عصره . ولخص ما كتب الجبرتى تلخيصاً نراه أميناً ، شاملا ، دقيقاً » . ثم شرح الأستاذ منهج الكتاب فى البحث ، ومسلكه فى الترتيب ثم قال : — « إن هذا جهد كبير ، وعمل واسع ، استحق تقدير المجمع . وزاد فى اغتباطنا به أنا أعلنا فى السنة السابقة عن مسابقة فى ترجمة السيد المرتضى الزبيدى ، أستاذ الجبرتى ومعاصره ، فلم يتقدم إلينا أحد ببحث .

وإذا كان الأستاذ الشرقاوى قد صاحب الجبرتى سنين ، وأحبه ، ورضى عمله . فإنا نرجو أن يكون من الشرقاوى المؤرخ المحقق المنصف ، كما كان السيد الجبرتى . ونبادر فنبشره أنه لن يجد إلا عكس ما لقى الجبرتى . فإنا — والحمد لله — فى طليعة عهد نرجو فيه إنصاف العاملين وحسن جزائهم » .

ثم وقف متحدث باسم المجمع فأعلن قراره وهو : « فاز الأستاذ محمود الشرقاوى بجائزة البحث الأدبى عن بحثه « دراسات فى تاريخ الجبرتى » .

* * *

ويجد القارىء فى الجزء الأول من هذا الكتاب بحثا وافياً عن المخطوطات المعروفة لكتابى الجبرتى « عجائب الآثار » « ومظهر التقديس » .

والذى جدّ بعد طبع هذا الجزء ، أن كُشف عن نسخة من عجائب الآثار مكتوبة بخط الجبرتى ، وجدت فى مكتبة المتحف العراقى ببغداد . ومخطوطة أخرى

منه ، عليها تعليقات بخط الجبرتى · موجودة فى مكتبة جامعة كمبردج .

وفى كتاب « نور الأبصار فى مناقب آل النبى المختار » للشيخ الشبلنجى ، — فى ترجمته للسيد مؤمن بن حسن بن مؤمن الشبلنجى ، المولود بعد سنة ١٢٥٠ — فى هذه الترجمة أن السيد مؤمن هـذا « اختصر تاريخ الجبرتى فى جزئين صغيرين · أخذ منهما اللب وترك القشر » .

وأرجو ، عند إصدار الطبعة الثانية من هذا الـكتاب ، إن شاء الله ، أن أوفق لتصوير مخطوطى بغداد وكمبردج ، ودراستهما دراسة وافية ·

جمادى الثانية ١٣٧٥
يناير ١٩٥٦

محمود الشرقاوى





بسم الله الرحمن الرحيم



الفصل الأول

أيام المماليك



أيام المماليك

إذا ذكر المماليك تبادرت إلى أذهان الناس صفات القسوة ، والغدر والجبروت والجهل . وإذا ذكرت أيامهم ، وحكمهم ، اقترن بها ذكر الظلم ، والاستبداد ، والفوضى ، والشرّ ، وسنرى فى هذا الفصل ، هل كان المماليك ، من النـاحية التاريخية الصرفة ، كلهم قساة غادرين ، جهلة ؟ وهل كانت عهودهم كلها ، وأيامهم عهود ظلم ، واستبداد ، وفوضى ؟

(لا نجد ، أو لا نكاد نجد ، أحداً من الناس ، ولا من المؤرخين ، يذكر المماليك بشىء من جميل الصفات ، ولا يذكر أيامهم بشىء من الخير . ولـكنا سنجد ، بعد الانتهاء من هذا الفصل ، أن هذا الذى يذكره الناس والمؤرخون ليس حقـا كله . وسنجد من المماليك من لم يكن قاسياً ، ولا غادراً ، ولا جاهلا . كما نجد من عهودهم وأيامهم ، عهودا كانت بعيدة ، إلى مدى غير قليل ، من أوصاف الظلم والاستبداد ، والفوضى).

ويجب أن ندرك أن هـــذه الصفات فى الأفراد والعهود ، أمر نسبى . فليس من العدل ، ولا من الصدق التاريخى أن ننظر إلى أفراد المماليك وأيامهم نظرة مطلقة مجردة . أو أن نخضعهم لآراء ومقاييس لم تـكن معتبرة ولا قائمة فى زمنهم. ولم تـكن مقررة مألوفة عندمن يحيط بهم من الناس والبلاد والحـكام. بل الحق والصـــدق أن ننظر إليهم مقترنين بغيرهم من الناس والحـكام فى عصرهم ، أو فى العهود القريبة منه . وأن نوازن بين حكمهم وأيامهم ، وحكم غيرهم من هؤلاء المعاصرين أو المقاربين . وأن نخضع الرأى فيهم لـما كان معتبرا قائما من المقاييس عند الناس فى زمنهم . وإلى الروح التى كانت تسود ، إذ ذاك ، فى الحـكم والسلوك

إذا نظرنا هذه النظرة المنصفة الصادقة ، ووضعنا صفات المماليك ، وسمات حكمهم إلى جنب الصفات والسمات ، التى نجدها عند غيرهم من معاصريهم . إذا فعلنا ذلك . هل نظل نعتقد أنهم كانوا مثلا للقسوة والغدر والجهل . . . ؟ وأن

حكمهم كان عنوانا على الظلم ، والاستبداد ، والفوضى ، والشر ؟

هل كان الحاكمون من الأتراك ، أوغيرهم ، أقل قسوة وغدرا وجهلا من المماليك ... ؟ هل كانت عهودهم أخف ظلماً وشراً من عهود هؤلاء ؟

لا أريد أن أسترسل ، أو أفصل فى ذكر المقارنات بين الأسماء والعهود ، فذلك يخرجنا عن حدود ما نكتب . ولكنا ، عند التأمل والتجرد من أثر ما قرأنا وسمعنا ، نجد أن المماليك لم يكونوا أكثر قسوة ولا غدرا ، ولا كانوا أمعن فى الجهل والجبروت من غيرهم . ولم تكن عهودهم وأيامهم ، أشد ظلما أو استبداداً . وما كان شرها ، ولا فوضاها ، أعم وأشمل فى عهدهم ، منها فى عهود غيرهم . بل قد نجد عند الأتراك ، وغيرهم من الحكام ، من هو أكثر جهلا ، وأشد غدراً وقسوة وجبروتا . ونجد من العهود ما هو أفحش ظلما وأعظم شرا . وأعم فوضى . ووقائع التاريخ وأحداثه ، تمدنا بأدلة كثيرة جدا على صدق ما نقول . على أننا سنجد ، فيما نكتب من هذا الفصل ، أدلة كافية أيضاً .

أمور كثيرة هى التى وضمت المماليك فى هذا الوضع . وأظهرت أشخاصهم وأيامهم كأنها ، كما قلنا ، مثل مضروب للظلم والجهل والقسوة والشر . منها أنهم تعرضوا لحملات طويلة قوية من الأتراك ، والفرنسيين . كانت قائمة على وصفهم ووصف أيامهم بهذه الصفات ، والمغالاة فيها ، والإلحاح بها . فلصق بهم ذلك من طول ما ذكروا به . ومنها أنهم كانوا على شىء غير قليل من البساطة الفكرية . أوالسذاجة العقلية أو شىء من ذلك ندركه من سيرتهم وتصرفاتهم ، ولا أستطيع أن أحدده . وكان عندهم أيضاً ، قدر كبير من الاعتداد بالنفس . هذه السذاجة العقلية ، وهذا الاعتداد ، لم يدركوا معها خطر هذه الحملات القوية التى ثار الأتراك ، والفرنسيون من بعدهم ، على توجيهها إليهم . وإلصاق هذه الصفات بهم وبحكمهم . فلم يحاول المماليك ، أقل محاولة ، لمقاومة هذه الحملات ، أو إضعاف أثرهـا . بل نجد فيهم من يقول ، إذا وصف بالظلم : — لسنا أكثر ظلماً من غيرنا . . . أو : إننا نريد أن نعيش ، نحن وأتباعنا . ونجد فيهم من يقول إذا ذكر له أنك تأخذ بلاد الناس غصبا : البلاد بلاد الله ، ونحن خلق الله . نأخذ

من رزقه ما يكفينـا . . . ! إلى مثل ذلك من القول الذى يدل على السذاجة ، بل البلاهة ، ويدل على هذا الاعتداد الذى يقرب من الغرور ·

ومن هذه الأسباب التى ألصقت بالماليك هـذه الأوصاف الظالمة ، الهزائم التى حلت بهم أمام الأتراك ، وأمام الفرنسيين ، فقد هزموا أمام السلطان سليم ، ثم لقوا على يديه من الظلم والغدر والقسوة ما نذكر طرفا منه بعد قليل . وما سجل التاريخ منه شـيئاً كثيرا · وهزموا أمام نابليون ، ثم لقوا على يديه مثل ما لقى المصريون من الظلم والقسوة · وكانت حربهم له فاشلة مخزية أساءت إلى مكانتهم وسمعتهم أعظم إساءة . ثم جاء محمد على فصنع معهم وبهم ما صنع ، حتى قضى على من بقى منهم ، بالموت ، أو بالهجرة ·

وصدق الشاعر :

والنـــاس ، من يلق خيرا قائلون له   ما يشتهى ، ولأم المخطىء الهبـــل

وقد هزم الماليك مرة بعد مرة · وتعرضوا لحملات قوية متلاحقة ، كما ذكرنا. ثم جاء محمد على فأفناهم وقضى على نفوذهم . ولاحقهم أيضاً بتهمة الظلم والقسوة . ثم استقر الحكم فى مصر له ولأسرته ، دهراً طويلا . قرّ فيه فى أذهان الناس هذا الوصف للماليك . وشاء كثير من المؤرخين ، مسايرة لأسرة محمد على وترضـيا لها ، أن يجعلوا ذلك حقيقة لا تجادل . وكانت صفاتهم التى أشرنا إليها داعية لذمهم أيضاً · ولصوق هذه الصفات بهم كأنها حقائق لاتقبل الشك · وقديما قيل : —

ومن دعا الناس إلى ذمه   ذموه ، بالحق وبالباطل

ولا أجدنى ، بعد هذا الذى ذكرت ، فى حاجة إلى القول بأنى أتحدث عن الطبقة الأخيرة من الماليك ، وهم الذين تناول الجبرتى حكمهم وأيامهم وسير كثير منهم فى « العجـائب والآثار » . أما دول الماليك الذين حكموا مصر قبل الفتح العثمانى ، والذين اصطلح المؤرخون على تسميتهم بالبحرية والبرجية · فليسوا من موضوع حديثنـا فى هذا الـكتاب . ولو أن ما قدمته فى هذه الصفحات السابقة يصدق عليهم أيضاً ، فى جملته . بل هو فيهم أكثر صدقاً .

وما أريد أن أبرىء أشخاص المماليك من صفات القسوة والغدر والجبروت والجهل جميعا، ولا أن أبرىء عهودهم من سمات الظلم والاستبداد والشر والفوضى . بل الذى أريده والذى يؤيده الجبرتى فيما فصل من سيرهم وتاريخ حكمهم ، أنه كان فيهم ، كغيرهم من الناس والحكام ، البر والفاجر . وكان فى أيامهم ، كأيام غيرهم من الناس والحكام أيضاً ، الشر والخير . وأن اختصاصهم بهذه الأوصاف والسمات . فيه ظلم كبير ، وفيه بعد عن حقائق التاريخ .

وأعتقد أن الفترة التى حكم فيها مراد وابراهيم ، مصر . وما اتسمت به من الفوضى والشذوذ . وما كان يتصف به مراد خاصة من الجهل ، والقسوة ، وقصر النظر والظلم ، أعتقد أن هذا وذاك ، كان من أهم الأسباب فى لصوق هذه الأوصاف بالمماليك وعهود حكمهم عامة .

وسنبدأ حديثنا عن « أيام المماليك » بذكر موجز عن هزيمتهم أمام الأتراك ، ومصرع سلطانهم الشهيد طومان باى ، فذلك أمر له شأن فى الحديث عنهم . وإن كان الجبرتى أوجزه غاية الإيجاز .

سليم وطومان باى

لم تفقد مصر استقلالها ، وعظمتها ، أمام الغزاة الأتراك ، إلا بعد أن رويت سهول الشام وأرض مصر من دم أعدائها وأبنائها على السواء . فى خمس من المعارك الكبرى الدامية ، وبعد أن استشهد سلطانها الطيب ، الغورى ، فى موقعة « مرج دابق[1] » بجوار حلب ، وبعد أن أثخنت جيوشها فى حرب الغزاة ، وكادت أن تقهرهم ، حتى هم السلطان سليم نفسه أن ينكب على وجهه فراراً من سيوفهم ومدافعهم ، ونجاة بحياته ، وقد قتل فى معركة واحدة من هذه المعارك الخمس ، عشرة آلاف محارب .

لم تفقد مصر استقلالها ، وعظمتها ، ومكانتها الممتازة بين دول العالم ،

---

(١) يوم الأحد ٢٥ من رجب سنة ٩٢٢ (أغسطس ١٥١٦) م

إلا بالخيانة . ولم ينهزم سلطانها الشجاع ، طومان باى ، إلا بالغدر ، والخديعة ، والتواطؤ بين بعض قواده الخونة ، وبين الغزاة الأتراك [1] .

وعرف طوماى باى ، آخر الأمر ، أنه لا أمل فى النصر . فترك معسكره بالقرب من وردان فى الجيزة وقصد اقليم البحيرة . وكان فى ذلك الإقليم شيخ من شيوخ العرب ، اسمه حسن مرعى ، كان للسلطان عليه فضل كبير . حيث أخرجه من سجن سلفه الغورى ، وأنعم عليه ، وأكرمه . فلما انتهى السلطان إلى منازل هذا الشيخ العربى ، فى بلدة « البوطة » القريبة من حوش عيسى . أراد أن يختفى عنده ، حتى يجد له حيلة ، أو يدبر أمرا . واستحلف الشيخ ، على كتاب الله ، ألا يخونه ، ولا يكشف سره . ولكن الشيخ العربى أرسل إلى السلطان سليم من يخبره خبر طوماى باى ، ونزوله عنده . فأرسل إليه سليم الشرطة حتى جاءوا به إليه [2] .

وقد سجل المؤرخون كيف لقى طومان باى السلطان سليما ، وكيف كان شجاع القلب فى محنته ، كما كان شجاع النفس فى حربه . وكيف رد عليه قوله حتى أفحمه ، ونال من نفسه منالا كبيرا ، ومنزلة جعلت السلطان الظافر يعجب به ، ويكبره ، ويبقى على حياته .

---

(١) نجد فيما رواه ابن إياس عن هذه الأحداث أن المصريين لم يتوانوا عن بذل أرواحهم فى الدفاع عن استقلال بلادهم ، حتى بعد أن ظهرت على جيوشهم جيوش السلطان سليم ولم يبق أمل فى النصر . فهو يقول إن حرب اليأس هذه دامت بين الفريقين أربعة أيام ، أولها الثامن من المحرم سنة ٩٢٣ [فبراير ١٥١٧] ويقدر قتلى هذه الأيام من المصريين بأكثر من عشرة آلاف ، منهم ثمانمائة من المماليك ، أو ممن بقى من المماليك . ثم يقول : — « إن الجثث كانت مرمية فى الطرقات من باب زويلة إلى الرميلة « الرفاعى » ومن الرميلة إلى الصليبة إلى قناطر السباع ، إلى الناصرية ، إلى مصر العتيقة » ومعنى هذا أن الحرب كانت دائرة مستمرة فى شوارع القاهرة نفسها وميادينها وأزقتها .

(٢) يقول ابن إياس — وهو فى ذلك حجة معاصر — إن حسن مرعى وأخاه شكر هما اللذان دعيا طومان باى إلى ضيافتهما فى ضيعة لهما تسمى « البوطة » فقبل . ثم جاء بمصحف أقسم عليه الأخوان ، ألا يخوناه أو يشيا به ، فحلفا على المصحف سبع مرات . فلما استقر السلطان عند مرعى جعل رجاله من الأعراب حرسا عليه لا ليحفظوه بل ليحتجزوه . ثم بادر فأبلغ أمره إلى سليم .

قالوا إنه عندما دخل طومان باى على سليم ، استقبله واقفاً ، ثم سأله : « لماذا لم تعترف بسلطتى ، وتدخل فى طاعتى ، عندما دعوتك إلى ذلك . . ؟ فقال له : إنى ملزم بالدفاع عن بلدى الذى أحكمه . ويجب على أن أصونه وأحميه . كما يجب على أن أحمى المدينتين المكرمتين ، مكة والمدينة . أما أنت فما أدرى كيف تبرىء نفسك ، أمام الله ، من عدوانك الظالم على بلادنا .

وأخذت الدهشة السلطان سليما . ولكن طومان باى تابع حديثه يقول : إنك ، يا سلطان الروم ، غير ملوم على سقوط مملكتنا . بل الذنب كله على الخونة، وأشار إلى خير بك وجان بردى الغزالى ، الخائنين ، اللذين كانا ، بتواطئهما مع سليم ، سببا فى هزيمة جيش مصر .

عند ذلك قال السلطان سليم ، ليس من العدل أن نقتل رجلا شهما ، صادق العزيمة ، كهذا الرجل . وانتهى مجلس السلطان .

ولكن الخائنين لم يجدا أمنا على حياتهما إلا بقتل طومان باى ، فاحتالا لذلك . إذ حرضا بعض أتباعهما ليقف فى طريق ركب السلطان سليم . حتى إذا مر دعوا لطومان باى . ومر السلطان سليم فى ركبه ، فسمع ناسا يدعون: « الله ينصر السلطان طومان باى ». فثارت فى نفسه الهواجس والوساوس ، وأكمل الخائنان تدبيرهما ، فحرضا سليما على قتله . لأن الناس يحبونه . وقد يحدث فى مصر حدث إذا تركها السلطان إلى بلاده . وكانت نفس السلطان ، بعدما سمع من النداء والدعاء ، مهيأة لذلك . فأرسل رسله فجاءوا بطومان باى وهو فى زى الاعراب ، كيلا يعرفه الناس . حتى دخلوا به القاهرة . وعندما وصل إلى باب زويلة ، باب الخلق ، وهو لا يدرى ماهم فاعلون به . نظر إلى حلقة الباب ، فرأى الحبال مدلاة منها . فأدرك مصيره . وعندما أنزلوه عن فرسه تشهد ، وسأل من حوله من الناس أن يقرءوا له الفاتحة . ثم شنق[1] والناس لها ، بالبكاء ، ضجيج . وبقى مصلوبا ثلاثة

---

(١) يقول ابن إياس إنه بعد ماقرأ مع الناس الفاتحة ، أمر المكلف بشنقه أن يتقدم ليضع رأسه فى الحبل (فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف) .

أيام . ثم أنزل فدفن فى مسجد الغورى . ولم يشنق من ملوك مصر وسلاطينها ، أحد سواه ، فى تاريخها كله . وكان له من العمر حين شنق ، فى يوم الاثنين ٢١ من ربيع الأول سنة ٩٢٣ — ١٥ من أبريل ١٥١٧ — أربعون سنة . وبكاه الناس بكاء مرا . وشمل الحزن عليه مصر كلها . ونجد فى حديث ابن اياس عن هذا السلطان وقتله ، كثيرا من المرارة والحزن الصادق والمحبـــة . وقد ترك قتل طومان باى ، على هذه الصورة ، أثرا عميقا من الحزن فى قلوب المصريين[1] وشعورا عميقا أيضا بالكراهية والحقد فى نفوس المماليك . حتى أن كبيرا منهم دبر مع أتباعه مؤامرة لذبح السلطان سليم ليلا ، وهو نائم . وأوشك أن يتم له ذلك لولا أن المؤامرة كشف سرها قبل تنفيذها بقليل .

أما العربى الخائن حسن مرعى ، فقد أنعم عليه السلطان سليم ، وكافأه . ولكن المماليك الجراكسة ذبحوه ، وشربوا من دمه . وقتلوا أخاه أيضا . وأقاموا فى القاهرة معالم الزينة ، بعد قتله .

وأقام السلطان سليم فى مصر ثمانية أشهر . أتم فيها تنظيم شئونها على الوضع الذى ارتضاه . مما كان له أثر كبير فى نواحى حياتها كلها بعد ذلك ، وفى الأحداث التى يتناولها هذا الفصل من كتابنا .

وعندما رحل سليم عن مصر ، نقل إلى القسطنطينية ، أكثر ما فى القلعة وما فى

(١) يصف ابن إياس — وهو كما نعرف المؤرخ الذى عاصر هذه الفترة وشهد أحداثها — أثر إعدام طومان باى فى نفوس المصريين ويصف شجاعته ، بقوله « صرخت الناس عليه صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف ، وكان شجاعا بطلا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب بنفسه . وفتك فى عسكر ابن عثمان وقتل منهم مالا يحصى . ووقع منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العناترة وقاسى شدائد ومحنا وحروبا وشرورا ومحاجا . ولم يسمع بمثل هذه الوقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط . ولم يعهد مثل هذا . ثم روى ابن إياس لنفسه هذا الشعر :

لهفى على سلطان مصر كيف قد ولى وزال ، كأنه لن يذكرا
شنقوه ، ظلما ، فوق باب زويلة ولقد أذاقوه العـذاب الأكبرا

ومانقلناه أو اقتبسناه من ابن إياس يوجد فى الصفحات ١٧٢ — ١٧٤ — الجزء الخامس من تاريخه . طبع جمعية المستشرقين الألمانية فى استانبول سنة ١٩٣٢ بإشراف كاله ومحمد مصطفى وموريس سوبرنهايم »

منازل السلاطين والأمراء ، من الذخائر والنفائس والكتب . كما أخذ ما كان من ذلك في المساجد والأربطة والزوايا ، حتى أعمدة الرخام . واستصحب معه الخليفة العباسي ، الذى كان يقيم في مصر . ويضفى عليهـا ، في ذلك الوقت ، ظلا من الكرامة بين الأمم الإسلامية . وسجن سليم هذا الخليفة ثم أرغمه سليمان بعد ذلك على أن يتنازل له عن الخلافة . كما نفى سليم من مصر جميع أبناء السلاطين والأمراء . وأكثر العلماء ، والقضاة . وكل من له نفوذ وكلمة مسموعة فيها . وبلغ ما أخذه من النفائس ، حمولة ألف بعير . غير ما سلبه رجاله وجنوده . ثم أمر بجمع رؤساء الصناعات التى اشتهرت بها مصر . والمبرزين فيها ، من كل طائفة . فكانوا نحو ألف صانع ورئيس . نقلهم إلى الأستانة ليعلموا صانعيها ما يتقنون . وكان لذلك أثر كبير في حياة مصر الاجتماعية والأدبية والعلمية . كما كان له أسوأ الأثر على صناعة مصر وفنونها . يقول الجبرتى إنه « فقد من مصر ، نيف وخمسون صنعة » .

وكافأ الخائنين ، خير بك والغزالى ، بأن جعل أولهما واليا على مصر ، وسماه « ملك الأمراء » وجعل الثانى واليا على الشام .

أما النظام الذى ارتضاه السلطان سليم لحكم مصر . فكان من أكبر الأسباب فيما انتهى إليه حالها من الضعف ، والفقر ، والتنازع ، واختلال الأمن . فرض خراجا ، يرسل في كل سنة من مال مصر إلى الأستانة . وقسم السلطة فيها بين ثلاث جهات . الوالى الذى يرسله السلطان . وأهم أعماله إبلاغ الأوامر التى ترد من السلطان إلى الحكومة ، ومراقبة تنفيذها . والسلطة الثانية ، الجيش . وكان مؤلفا من ست « وجاقات » أى فرق . لكل فرقة ستة من الضباط . ولهم جميعا قائد يقيم في القلعة . وشكل من ضباط هذه الفرق ديوانا يعين الوالى في إدارة شئون البلاد . وجعل لهذا الديوان حق رفض المشروعات التى يضعها الوالى .

والسلطة الثالثة المماليك . جعل كل واحد منهم حاكما « سنجق » على مديرية من مديريات البلاد ، وكانت مقسمة إلى أربع وعشرين مديرية . وكانوا يسمون « بالبكوات » وجعل مدة الولاية للولاة الذين ترسلهم الدولة لحكم مصر ، سنة واحدة . يستبدل بعدها الوالى ، أو يجدد له فرمان بإبقائه .

فكان هذا النظام سبباً لما نرى بعد ذلك من التنازع والخصومة بين أصحاب هذه السلطات . وكان توقيت الولاية ، وسوء اختيار الولاة أيضا ، سببا فى انصرافهم إلى جمع المال والثروة من كل طريق . وكان لهذا كله ، أثره الواضح فى أحوال مصر ومكانتها وحياة أهلها . ولعل هذا نفسه كان مقصودا للسلطان سليم . لتبقى مصر حيث أرادها من الضعف والفقر والتمزق واختلال الحال .

ويقص علينا الجبرتى فى ذلك قصة طريفة ، يعلل بها تنازع المماليك وتفرقهم وانقسامهم إلى قاسمية وفقارية . كأن السلطان خشى من تجدد قوتهم بعد خروجه ، فأراد أن يبذر بينهم بذور الشقاق والفتنة . وكأنه لم يكفه أن جعل فى مصر ثلاثا من القوى يصارع بعضها بعضا ، فأراد أن يفتن طائفة منها بعضها ببعض . والجبرتى يسوق قصته هذه مساق من يعتقد أنها كانت سببا فى ظهور « سنة جاهلية ، وبدعة شيطانية . زرعت فيهم — أى المماليك — النفاق ، وأسست فيما بينهم الشقاق » .

وهذه هى القصة :

قاسم وذو الفقار [(١)]

يقول الجبرتى ، إن السلطان ، عندما فتح مصر واستقر له الأمر فيهـا بعد قتله طومان باى وبعد أن نفى إلى القسطنطينية من نفى من الأمراء المصريين والقواد ، جلس يوما إلى خاصته فقال لهم : ألم يبق أحد من الجراكسة فى مصر لنراه ونتحدث إليه . . . ؟ فقال له « خير بك » نعم ، يوجد منهم رجل اسمه سودون الأمير [(٢)] ، وقد كبرت سنه ، وله ولدان من أشجع الفرسان ، ولكنه يخشى عليهما التلف ، ويباعد بينهما وبين الفتنة منذ رأى فساد الأمر فى مصر وتنازع الأمراء وكيد بعضهم لبعض . فهو وولداه لا يبرحون بيتهم ، وقد سد الطريق إليه بالحجارة .

---

(١) يقول الأستاذ أحمد حافظ عوض فى كتابه « فتح مصر الحديث » إن هذه القصة خرافة من الجبرتى . ولكن المرحوم أمين باشا سامى ، ذكرها فى « تقويم النيل » وقال إنها « مما اتفق فيه الجبرتى ، وجودت ؛ المؤرخ التركى الكبير .

(٢) فى أقدم مخطوطات العجائب التى راجعتها يوصف « بالأسير » وقد كان أسير بيته هو وولداه .

فقال السلطان : « هذا والله رجل عاقل خبير كامل ينبغى لنا أن نذهب لزيارته ، ونقتبس من بركته وإشارته ، قوموا بنا جملة نذهب إليه على غفلة لكى نحقق المقال، وأشاهده على أى حالة من الأحوال » .

ثم قصد السلطان سليم من فوره لزيارة سودون الأمير ومعه خاصته ، فوجده جالسا يقرأ القرآن . وبين يديه خدم وأتباع كثيرون . فلما علم سودون الأمير بقدم السلطان أسرع إليه ، فأمره السلطان بالجلوس ، ثم آنسه وتلاطف به ، وتحدث إليه فى سبب عزلته واحتجازه أولاده عن الناس . ثم طلب السلطان أن يرى ولديه ، فلما رآهما أعجب بمنظرهما وسمتهما وسر من حديثهما سروراً كثيراً . وزاد السلطان فى إكرام سودون الأمير فقبل أن يتغدى على مائدته ، وتقبل ما قدمه إليه من الهدايا ، ثم أنعم عليه بالعطايا السلطانية ، وأمر بأن ترفع درجته ودرجة ولديه . قاسم وذى الفقار وتزاد رواتبهم . وخرج السلطان سليم فى اليـوم الثانى لهذه الزيارة إلى الصحراء ، وأمر بأن يخرج إليها الجنـــد بجميع أنواعهم ، ثم طلب أن يخرج إليه الأمير سودون وولداه . فلما قدموا عليه قال لهم : — أتدرون لماذا طلبتكم ... ؟ قالوا لا يعلم الغيب إلا الله . فقال : أريد أن يركب قاسم وأخوه ذو الفقار . ويترامحا ويتسابقا بالخيل . فنزل الفارسان وركبا ورمحا ولعبا وأظهرا من أنواع الفروسية ما أعجب السلطان . فلما انتهيا أمر السلطان بمثولهما بين يديه وخلع عليهما الخلع . وأطنب فى مدحهما وأمر بأن يكونا من فرسان حرسه الخاص .

ثم خرج السلطان سليم فى اليوم التالى مرة أخرى وحضر الأمراء والجند فأمرهم بأن ينقسموا إلى قسمين ، قسم جعل على رأسه ذا الفقار ، والثانى على رأسه قاسما أخاه . وأضاف إلى ذى الفقار أكثر فرسان العثمانيين ، وإلى قاسم أكثر فرسان المصريين ، وميز الفقارية بلبس الثياب البيض . والقاسمية بلبس الثياب الحمر « وأمرهم بأن يركبوا فى الميدان على هيئة المتحاربين وصورة المتنابذين المتخاصمين ، فأذعنوا بالإنقياد ، وعلوا على ظهور الجياد ، وساروا بالخيل ، وانحدروا كالسيل ، وانعطفوا متسابقين ، ورمحوا متلاحقين ، وتناوبوا فى النزال ، واندفعوا كالجبال .

وساقوا فى الفجاج وأثاروا العجاج ، ولعبوا بالرماح وتقابلوا بالصفاح ، وارتفعت الأصوات وكثرت الصيحات ، وزادت الهيازع وكثرت الزعازع ، وكاد الخرق يتسع على الراقع، وقرب أن يقع القتل والقتال ، فنودى فيهم عند ذلك بالانفصال . فمن ذلك اليوم افترق أمراء مصر وعسا كرها فرقتين ، وانقسموا بهذه اللعبة حزبين . واستمر كل منهم على محبة اللون الذى ظهر فيه ، وكره اللون الآخر فى كل ما يتقلبون فيه ، حتى أوانى المتناولات والمأكولات والمشروبات .

وصار فيهم قاعدة لا يتطرقها اختلال ، ولا يمكن الانحراف عنها بحال من الأحوال ، ولم يزل الأمر يفشو ويزيد ، ويتوارثه السادة والعبيد ، حتى تجسم ونما وأهريقت فيه الدما ، فكم خربت بلاد وقتلت أمجاد ، وهدمت دور ، وأحرقت قصور ، وسبيت أحرار ، وقهرت أخيار» .

ثم يقول الجبرتى بعد سرد هذه القصة الشيقة : إن الفقارية موصوفة بالكثرة والكرم ، والقاسمية موصوفة بكثرة المال والبخل . وكان الذى يتميز به كل فريق من الآخر إذا ركبوا فى المواكب ، أن يكون بيرق الفقارى أبيض ومزاريقه[1] رمانة ، وبيرق القاسمى أحمر ومزاريقه بجلبة . أما الثياب فكانت ، كما أشار إليه الجبرتى ، من اللون الأبيض للفقارية والأحمر للقاسمية .

وظل الحال على ذلك حتى استهل القرن الثانى عشر ، وأمراء مصر من الفقارية هم : ذو الفقار بك ، وابراهيم بك ، ودرويش بك ، واسماعيل بك ، ومصطفى قزلار ، وأحمد بك قزلار[2] ، ويوسف بك القرد ، وسليمان بك بارم ذيله ، ومرجان جوزبك ، وكان أصله قهوجيا للسلطان محمد . والأمراء من القاسمية لهذا العهد هم : مراد بك الدفتردار ، ومملوكه أبو ظبيك ، وابراهيم بك أبو شنب ، وقانصوه بك ، وأحمد بك منوفية ، وعبد الله بك .

---

(١) المزاريق الرماح .

(٢) طائفة القزلار هى الخصيان السود التى كانت تتولى رعاية الجوارى فى قصور السلطان

ومن هذه الفترة — مستهل القرن الثانى عشر الهجرى — وبسير هؤلاء المماليك يبدأ الجبرتى تاريخه .

وهكذا كانت هذه الملهاة التى سرّى بها السلطان سليم عن نفسه ، يوماً أو بعض يوم ، بتسابق الشقيقين ، قاسم وذى الفقار ، سبباً فى نزاع طويل عميق الأثر فى حياة مصر وتاريخها فترة طويلة من الزمن .

وفى ضوء هذه الخصومة الفجة العميقة القوية أيضاً ، التى جاءت وليدة اللهو والعبث ومحض الصدفة ، نستطيع أن نفسر كثيراً من الأحداث الجسام ، التى كونت تاريخ مصر فى هذه الفترة الطويلة من الزمن . من الفتح العثمانى إلى أن انتهى النزاع بين الطائفتين بتغلب الفقــارية ، وانقراض خصومهم فى سنة ١١٤٢ .

وصدق الجبرتى حين استشهد ، بعد ذكره قصة قاسم وذى الفقار وأبيهما سودون الأمير ، بهذا البيت :

ولرب لذة ســـاعة قد أورثت حزناً طويلا

المماليك

هذه الخلاصة عن هزيمة مصر أمام العثمانيين ، وما ذكرناه عن سليم وما وضعه من النظم لحكم مصر فى ظل هذه السيادة الجديدة . لم يذكر عنها الجبرتى شيئاً . بل ذكر دخول مصر فى نطاق السيادة العثمانية فى تسعة سطور . ولكن الخلاصة التى أوردناها لا بد من معرفتها لفهم هذا الذى سنكتبه عن أيام المماليك .

لا نستطيع ، على وجه الدقة ، أن نعرف كم كان يبلغ عدد المماليك فى هذه الفترة من الزمن ، ومن العسير الشاق أن نعرف ذلك على وجه التقريب . لأن عددهم كان يزيد وينقص متأثراً بعوامل كثيرة مختلفة . وكانت سياسة الدولة العثمانيه نحوهم متباينة متناقضة . فهى تارة تخاصمهم ، وتكيد لهم ، وتعمل على

إفنائهم ومحوهم . وترسل الحملات العسكرية لهذا الغرض . أو تعمل ، عن طريق ولاتها ، على إيقاع الفتنة والحرب بين بعضهم وبعض ، كما صنع الوالى حسين باشا كتخدا فى الوقيعة بين القاسمية والفقارية حتى استمرت بينهما الحرب ثمانين يوماً وتارة كانت الدولة توالیهم وتصالحهم ، وتُقطعهم ، أو تقطع بعضهم ، ما يشاءون من البلاد . وكان لهذا وذاك أثره فى نقص عددهم وكثرته .

وكانت الدولة فى بعض الأوقات ، تتدخل تدخلا مباشرا لإنقاص عددهم بمنع جلبهم إلى مصر صغارا . فقد حدث فى أول عهد محمد على ، أن أمرت الدولة بمنع جلبهم وبيعهم فى مصر ، ثم أذنت له فى أن يجلب ما لا يزيد عن عشرين منهم . ثم عادت بعد ثلاث سنوات فأطلقت بيعهم ، ليكونوا أندادا لخصومة محمد على .

وعند ما كان يحكم مصر واحد من كبار المماليك ، كعلى الكبير ، أو مراد بك وشريكه ابراهيم ، كان يكثر من جلبهم والتمكين لنفسه عن هذا الطريق . وسنرى عند الحديث عن مراد وإبراهيم أن مماليك أولهما وحده كانوا أربعمائة . ومماليك ثانيهما ستمائة . وقد أكثر على بك من شرائهم حتى بلغ عددهم عنده ستة آلاف .

وهناك إحصاء لعددهم فى فترة من الفترات ، جاء على لسان مراد بك عندما كان يفاوض مندوبى محمد على للصلح . فقدذكر أن عددهم كان قبل قدوم الحملة الفرنسية ، نحو عشرة آلاف ، بين قواد ، وكشاف ، وأكابر وجاقات ، ومماليك . كما ذكر أن جنس المماليك ، من الرجال والنســـاء والعتقاء والأرقاء والأطفال كان نحو خمسين ألفاً .

على أننا ننظر لهذا الإحصاء بعين الشك . لأن مراداً ذكره فى معرض

المساومة والتفاخر وإظهار المجد القديم . وذكر يعقوب أرتين باشا أن عددهم في أول عهد محمد على[1] كان عشرين الفاً

وكانت مصر تتلقى أجناسا كثيرة مختلفة من هؤلاء المماليك . منهم اليوناني والجركسي والتركي والأرنؤودي . ومن أديان مختلفة أيضا . فمنهم المسيحي ، واليهودي ، كان منهم الأمير يوسف بك المسلماني . أصله يهودي ثم أسلم وارتفع شأنه حتى تقلد الصنجقية اثنتي عشرة سنة ، ثم عين كاشفا على مديرية المنوفية، ثم أميراً على جدة وشيخا للحرمين الشريفين . وجاور بالديار المقدسة عامين . ورحل إلى الآستانة بفريق من الجيش ثم عاد فعين مديرا لجمرك دمياط . وماتفيها . وكان من الأمراء من ليس من الجنس الأبيض إطلاقا كإبراهيم كتخدا السناري ، أصله من برابرة دنقله . وكان بوابا في مدينة المنصورة ثم تعرف إلى من فيها من المماليك وتقرب إليهم بكتابة الأحجبة والرُّقى وضرب الرمل ، حتى عظم أمره ، وتعلم اللغة التركية . ثم اتصل بمراد بك فصار من كبار خاصته واشترى المماليك الحسان ، والسراري البيض . وبنى العمائر وملك الأراضي الواسعة . وعظم شأنه حتى صار صاحب الحظوة والمنزلة الأولى عند مراد . لا يدخل عليه في مرضه سواه . ويقول الجبرتي عن إبراهيم السناري هذا إنه كان من أعظم الأعيان بمصر : وكان يباشر بنفسه الأمور ، من غير مشورة الأمراء . بل كان يحل مايعقده كبارهم . له أتباع وخدم يقضون القضايا ، ويسعون في المهمات . ويصانعهم الناس ، حتى الأكابر ، ويسعون إلى دورهم ، وصار من أرباب الوجاهات والثروات .

استيلاد المماليك :

ومن أساتذة الأمراء — أي رؤسائهم — رجل كان اسمه الحاج صالح الفلاح وله قصة طريفه عجيبة إذ كان « يستولد » المماليك كما يستولد الناس الخيول والفحول والفراريج ... !

كان هذا الرجل فلاحا من قرية الراهب ، في المنوفية ، مات أبوه وهو طفل

(١) ذكر الأستاذ أنور زقلمة أن عددهم في أول عهد محمد على كان اثنى عشر ألفا

وكان هذا الأب خادما عند أولاد شيخ البلد . فتأخر على هذا الشيخ شيء من الضرائب فبعث بولده رهينة إلى الملتزم ، ومعه هذا الفلاح الصغير ، صالح ، وبقى الصغيران — ابن شيخ البلد ، وصالح الفلاح في بيت الملتزم على كتخدا الجلفي حتى استطاع الشيخ أن يدفع ما كان باقيا عليه من الضرائب . وفك ابنه من رهنه . ولكن رفيقه صالحا ، رفض أن يعود إلى قريته ، أو أن يخرج من بيت على كتخدا . فبقى مع خدمه ، وكان ذكيا خفيف الروح والحركة . فلم يزل يتقدم ، ويصل ، حتى صار من أرباب الأموال . واشترى المماليك والعبيد والجوارى . وأخذ يزوج بعضهم لبعض ويستولدهم . وابتاع لهم الدور الواسعة . والإقطاعات . وزاد عددهم حتى صاروا ، هم وأولادهم ، يتولون عددا من الوجاقات ، والاختيارية ، والكتخدائية والجاويشية ، والطبلخانات . وغير ذلك من مناصب الدولة الكبيرة . وصارت لهم بيوت ، وأتباع ، ومماليك وشهرة عظيمة ، وكلمة نافذة . وجمع صالح الفلاح هذا ثروة عظيمة ، حتى أنه كان يقرض أمراء المماليك الأموال الكثيرة بالربا الفاحش . وكان ، على ثروته ، شحيحا . ومات في سن السبعين حوالى سنة ١١٧٠ (١٧٥٦ — ١٧٥٧)

ونجد فى هذه الفترة اسم طائفة من المماليك ، هم « جماعة الفلاح » . فهؤلاء هم الذين اشتراهم ، وزوجهم ، واستولدهم صالح هذا . ويقول الجبرتى ، أنهم على كثرتهم وكثرة أموالهم ، لم يبارك الله فى شيء لهم ، ولا لصاحبهم صالح ، وقال إن ذلك سببه الأموال التى كان يخرجها بالربا الفاحش .

الفروسية والشجاعة

وكان من أبرز صفات المماليك الشجاعة ، والفروسية خاصة . كانت لهم فى ركوب الخيل والحرب عليها . براعة فائقة ومقدرة لا يدانيهم فيها أحد .

نجد فى ترجمة الأمير عثمان ذو الفقار ، أنه عمّر حتى ضعف جسمه ، فكان لا يقدر على الوقوف ، ومع ذلك لا يترك ركوب الخيل . يأمر خدمه فيحملوه حتى يضعوه على ظهر فرسه . فإذا استوى راكبا صار أقوى من الشباب ورمح بفرسه ، وسابق غيره عليها .

ويقول فى ترجمة الأمير حسين بك كشكش . إنه خرج أميرا للحج سنة ١١٧٤ فلما كان فى الطريق إلى مصر خـــرج عليه الاعراب ، ووقفوا له فى مضيق . يطلبون عوائدهم . فأمر كتّابه وصيارفه أن يعطوهم . ثم جاء وقت الرحيل، فأمر بتأخير ذلك إلى المنزل الآخر الذى ينزل فيه ركبه . ولم يرض الأعراب ذلك ، وتحايل كشكش بك حتى خرج من هذا المكان الضيق ، ثم رتب جنوده وكانوا ثلاثمائة فقط من المماليك ، والباقون من المغاربة ، وطوائف الجنـــد الأخرى . وحارب بجنوده القليلين هؤلاء العرب فقتلهم جميعاً ، وكان فيهم أكثر من عشرين من كبارهم . ثم سار فى طريقه . وتنادى جميع العرب بما كان من قتل رؤوسهم ، وخرجت نساؤهم تصرخ وتحرض بطلب الثأر . واجتمعت جموع كثيرة من العرب لحربه . وأحاطوا به من أمام ومن خلف فحاربهم . وكان يتنقل من خلف جنوده إلى أمامهم وإلى جناحيهم ، حتى عاد بالمحمل وجنوده إلى القاهرة . ولما عرف على بك الكبير مافعله خشى الانتقام . فقال لكشكش بك ، من ذا يستطيع أن يخرج بالمحمل فى السنة القادمة ، بعد هذا الذى فعلته بالعرب . ؟ فقال : أنا الذى أخرج . والعرب أنا كفيل بهم . وخرج كشكش أميراً للحج فى السنة التالية ، فوقف له العرب فى كل سبيل وعلى رؤوس الجبال ، وفى كل مضيق . وكانت جيوشهم وافرة ، وحقدهم عليه عظيما . فحاربهم — وجنوده لا يزيدون عما كانوا فى السنة السابقة — وكان يخرج لحربهم حاسر الرأس ، رافعا سيفه أمام جنـده وظل يحاربهم حتى شتت شملهم ، وحمل رءوس القتلى من كبارهم على الجمـال إلى القاهرة . وخرج بعد ذلك سنتين أخريين أميراً للحج . وفى كل سنة يتربص به العرب ويحاربونه . فينتصر عليهم ، حتى كسر شوكتهم ، وأخافهم ، فتركوا التعرض للحجاج وأمن طريقهم إلى الحجاز .

ونجد فى سيرة مملوك أسمه أحمد بك ، قصة من قصص الشجاعة هذه . وفيها أيضا من سعة الحيلة شىء كثير . وقد كاد هذا المملوك أن يفتك بمحمد على بهذه الحيلة وهذه الشجاعة .

كان أحمد بك هذا حاكما على دمياط . واشترك مع طائفة كبيرة من المماليك

فى فتنة قاموا بها ضد محمد على . وأوشكوا فيها على النجاح . حتى ظن محمد على أنها نهاية أمره . فأعد عدته للفرار ، ونزل يريد الهرب من القلعة . ولكنه رأى جنوده يدخلون ومعهم الأسرى ، ورءوس القتلى ، فعلم إنهم غلبوا . فعاد بملأ الفرح قلبه . فلما جاء أمامه أحمد بك أمير دمياط قال له : وقعت فى الشرك ياأحمد بك .. ؟ فلم يجب ، ثم طلب أن يشرب . ففكوا وثاقه ليشرب . ولكنه نظر لمن حوله نظرة سريعة وبادر نخطف « يقطانا[1] » من أحدهم . وفى لحظة قصيرة، قتل من رجال محمد على عددا ، وكاد أن يقتله . لولا أنه أسرع بالخروج من المكان واختفى . وظل أحمد بك يقتل فيمن حوله حتى تكاثروا عليه وقتلوه . وأمر محمد على بأن يقتل الباقون وهم مكبلون من أيديهم وأرجلهم .

هذه أمثلة قليلة ، فى شجاعتهم الفردية ، تغنى عن كثير . فشهرتهم بالشجاعة والفروسية لا تحتاج إلى كثير من الأمثلة والشواهد . وقد بلغت شهرتهم فى ذلك حدا بعيدا . فنحن نجد أن سلوكهم فى مصر ، وكثرة خروجهم على الدولة وحربهم لولاتها ، كان سبباً لسخط السلاطين عليهم . ونجد فيما ذكره الجبرتى من حوادث شهر المحرم سنة ١٢٠٤ ان مرسوما ورد من السلطان سليم بن مصطفى يأمر فيه بحرب المماليك ، وكانوا فى ذلك الوقت يستولون على الوجه القبلى . ولم يستطع الوالى فى القاهرة أن يخضعهم . وفى هــذا المرسوم ما يدل على سخط السلطان وضيقه بهؤلاء المماليك . ولكنه فى حوادث رجب من السنة نفسها ، يقول إن السلطان أحضر بعض المبعدين من المماليك ، فأكرمهم ، وخصص لهم رواتب . وكان ينزل إليهم فيشاهد ركوبهم على الخيل ، ويعجبه ذلك وينعم عليهم

وكان بعض المماليك ، يجمع إلى الفروسية والشجاعة ، قوة جسدية فائقة يطير بها ذكره فى الآفاق . فقد كانت لهم بتثقيف أجسامهم ورياضتها وقوتها ، عناية شديدة .

كان عند ابراهيم بك الدفتردار خازن اسمه خليل ، اشتهر بالقوة الجسدية

(١) أعتقد انها « يتاغان » أو « يتغان » وهى بالتركية السكين الطويلة أو الكبيرة .

الفائقة ، جاءه دلال يوما بقوس . فصار يشدها ، ويجذبها ، وهى طيّعة بين يديه. وكان إلى جانبه رجل من العثمانيين ، فأخذ القوس من يده وأراد جذبها فلم يستطع . فتعجب من قوته . وأخذ القوس فسافر بها إلى تركيا . وعرضها على جميع من عرف فيها بالقوة والشدة ، فلم يستطع أحد منهم أن يجذبها . وأبلغ السلطان خبر هذه القوس فطلبها لجذبها فلم يستطع . فقيل له إن فى مصر مملوكا أوترها وصار يجذبها حتى تجتمع طرفاها ، وإن هذا المملوك أيضا عنده مكحلة وزنها ثلاثون درهما ، يصيب بها الهدف وهو رامح على ظهر فرسه . فأمر السلطان بإحضار هذا المملوك . وكتب إلى سيده إبراهيم بك فبعث به إلى السلطان ، فى شهر ذى الحجة سنة ١١١٨ .

وهذه الشجاعة نفسها ، كانت سببا فيما نجده من قصر أعمار المماليك ، بدرجة ملحوظة . فمن القليل النادر أن نجد منهم من عاش إلى سن الأربعين . ومن القليل النادر أن نجد منهم من لم يمت محاربا أو مقتولا . ومن نجا منهم من القتل عاش عمرا طويلا . وليس غريبا أن نجد فيهم مثل الأمير اسماعيل بن إيواظ - ذلك الذى تولى الصنجقية فى سن السادسة عشرة ، ومات ، مقتولا ، فى الثامنة والعشرين . بعد حياة مليئة بالأحداث الجسام .

وكانت هذه الشجاعة أيضا ، وما يتبعها ، أو يلازمها ، من الاعتداد والثقة بالنفس ، سببا فى هذه الخصومات العنيفة الكثيرة المتلاحقة ، التى كانت من أبرز سمات هذا العصر . والتى شقى بها المماليك وشقى بها شعب مصر شقوة كبيرة . وقد استطاعت الدولة ، تركيا ، أن تزيد من هذه الخصومات وتؤجج من نارها ، بإثارة طوائفهم بعضهم على بعض . وبسبب حبهم للمغامرة ، ومبادرتهم لأول داع من دواعى الخصومة والحرب . حتى كأن هذه الحرب حرفة يحترفونها أو تسلية لتزجية الفراغ والخروج من السآمة . ومن غريب أمرهم فى ذلك .أن طوائف منهم كانت تبرز للحرب فى خارج القاهرة ، كل نهار ، فإذا جاء الليل عادت كل طائفة إلى بيوتها ، وأولادها ، ويتزاور الفريقان المتحاربان ليلا ، ثم يصبحان إلى حرب

بعضهما . حتى إذا جن الليل عادا ، وسكنا ، وتزاورا • كأن لم يكن بينهما حرب ، ولا قتال ، ولم يجر بينهما دم • وقد ظل هذا الحال بينهم زمنا طويلا •

مماليك أخيار

ونجد فى فصول أخرى من هذا الكتاب ، وفيما كتبناه عن الحياة الاجتماعية خاصة[1] مظاهر كثيرة لما كان فى صفات المماليك ، وأخلاقهم من القسوة ، والغلظة والميل إلى البطش والظلم . ولكنا نجد كذلك عند كثير منهم مظاهر أخرى ، غير قليلة ، من الرأفة ، والبر ، والرعاية ، والرفق بالفقراء . والأمانة ، وحب العلم والاشتغال به .

كان الأمير الكبير ابراهيم بك أبو شنب محبا للفقراء ، بارا بهم ، عطوفا على كل محتاج • وكان يعرف الشحاذين واحدا واحدا . فاذا لقى بعضهم فى طريق أعطاه . ويتفق أن يلقاه مرة أخرى فى نفس اليوم ، فيقول له أخذت نصيبك فى مكان كذا • وكان فقراء القاهرة يحبون ابراهيم بك هذا حبا شديدا . يقول الجبرتى إنه خرج مرة إلى بعض أسفاره وحروبه فى جزيرة كريت — حيث ندبته الدولة لذلك — فلما تحرك موكبه ، خرج أمامه شيخ الشحاذين ، وجملة من طوائفهم . ولما عاد من حربه منصورا ، جمع الشحاذون من بعضهم مالا فاشتروا به فرساً أصيلا ، وعملوا له سرجا غالياً ، وركابا مطليا ورشمة ، وكلفهم ذلك اثنين وعشرين ألف فضة • ثم قدموا إليه الفرس فقبله منهم وركبه إلى داره . ثم ذهب الشحاذون كما ذهب الأمراء والسادة ، لتهنئته • فخلع على شيخ الشحاذين ، ونقيبهم ، لكل واحد منهم جوخة ، وأعطى لكل فقير جبة ، وطاقية ، وشملة ، ولكل امرأة فقيرة قميصا وملاية • وأغدق عليهم إغداقا كبيرا . ومد لهم سماطا فأكلوا . ومات هذا الأمير سنة ١١٣٠ بعد أن عاش اثنين وتسعين سنة •

وكذلك يقول عن الأمير حسن كتخدا عزبان الجلفى — نسبة إلى سنجلف من قرى المنوفية — إنه كان إنسانا خيرا ، له بر ومعروف ، وصدقات ، وإحسان للفقراء . وإنه وسع مسجد المشهد الحسينى ، واشترى عدة أماكن من

(١) فى الجزء الأول من الكتاب .

ماله وأضافها إليه ، وصنع له تابوتا من الأبنوس المطعم بالصدف والفضة ، وسترا من الحرير المزركش ، وعلى جوانبه أربعة عساكر من الفضة المطلية بالذهب . ولما مات ، فى شوال سنة ١١٢٤ — سار فى جنازته أكثر من عشرة آلاف شخص .

وكان الأمير الكبير صالح بك القاسمى لين العريكة ، يميل بطبعه إلى الخير ويكره الظلم . سليم الصدر ، ليس فيه حقد ، ولا يتطلع إلى ما فى أيدى الناس والفلاحين . محتشما كثير الحياء .

كما نجد أوصافا كهذه فى تراجم كثير من المماليك وفى شعر الشعراء الذين تحدثوا عنهم . وخاصة شعر الشيخ حسن البدرى الحجازى[1] .

وكان الأمير عثمان بك ذو الفقار ، رجلا عادلا كريما ، طاهر اليد . أنشأ فى بيته دواوين لإقامة العدل بين الناس ، وإنصاف المظلوم . وجعل للنساء وخصوماتهم ديوانا خاصا . وكان لا يقبل الرشوة ، ولا يغفر لمن يقبلها . بل كان يعاقب عليها أشد عقاب — وكان أمرها فى كثير من الأوقات قد فشا إلى درجة كبيرة جداً — وبلغ من حرصه على راحة الفقراء إلى حد أنه تولى الحسبة بنفسه . فكان يزن الرغيف وغيره مما يشتريه الناس حتى يطمئن إلى إنهم لا يبخسون فى شرائه . فلم يستطع القائمون على الحسبة أن يرتشوا . ولم يفعل هذا الأمير ما كان يفعله غيره من الاستيلاء على التركات ، أو أخذ الرشوة الكبيرة قبل تمكين الوارثين منها . وستجد فى ترجمة محمد بك الألفى أنه كان يحب الفلاحين ويعطف عليهم .

ويروى الجبرتى ، فى حوادث سنة ١١٤٠ أنه ورد مرسوم من السلطان بإبطال مرتبات كانت تنفق فى بعض أوجه الخير . فلما قرأ الوالى بكير باشا هذه المراسيم اعترض عليها العلماء والأمراء . أما الأولون ، فلأن بعضها كان ينفق على المساجد والأسبلة . وأما الآخرون فلأن كثيرين منهم كانوا متصرفين فى بعض هذه الأوقاف والمرتبات ، أو ينتظرون عليها .

(١) تجد ترجمته فى الجزء الأول من الكتاب .

ثم انتهى الأمر على أن يصالح الأمراء والناس على هذه المراسيم . أى يدفعوا للوالى قدراً من المال ، حتى يعطل تنفيذها ، ويراجع فيها السلطان . واتفق الأمراء على أن يقدموا للأميرين عثمان بك ورضوان بك — وكانا شريكين فى حكم مصر — ألف جنزرلى[1]. حتى يقرا ما اتفق عليه . ولكن هذين الأميرين أبيا أن يأخذا هذا المال . وقالا « إنه من دموع الفقراء والمساكين » .

وفى العشرة الثانية من القرن الثانى عشر تولى أمر الحسبة فى مصر مملوك صارم اسمه على أغا . وكان قد فشا بين التجار والباعة فى القاهرة الغش ، والتطفيف فى الكيل ، فلم يجد على أغا وسيلة للقضاء على ذلك ، إلا فى أن يزيد من شدته وصرامته على الغشاشين والمطففين . وأراد هؤلاء أن يخفف عنهم بعض هذه القسوة على أن يرشوه بمال كثير ، فأبى . وكان يخرج بموكبه ومعه نائب القاضى وفى مقدمة الموكب رجل يحمل كيساً مملوءا « بالعكاكيز » . ثم يقف على رأس كل شارع وحارة والمنادى ينادى بما يأمر . ومن لم يأتمر ضربه رجال الأغا بالعكاكيز ، حتى مات بعضهم من الضرب ، وصار للأغا مهابة عظيمة . إذا مرَّ موكبه لم يستطع أحد أن يقف أو يتلفت . حتى النساء فى البيوت ، لا يستطعن أن ينظرن من نافذة .

وكان موكبه يسير على هذه الصورة يوما ، فلقيه أمير كبير ، هو اسماعيل بك الدفتردار . فلما قارب الأمير أن يلتقى بموكب الأغا ، انحاز إلى عطفة ضيقة ليفسح له الطريق . وتحدث تابع من أتباع الأمير فقال له : كيف تترك طريقك للأغا وأنت صنجق . ودفتردار ؟ فقال : له فعلنا ذلك لنكون قدوة لغيرنا من الناس .

ويترجم الجبرتى لعلى أغا المعمار ، وكان نائبا لمحمد بك أبو الذهب . فيذكر من صفاته أنه كان ، مع شجاعته الفائقة ، يسير فى الناس سيرة حسنة ، ويقضى حوائجهم من غير أن يتطلع إلى شيء ، ويقول الحق ، ولو على سيده ، وكان سيده محمد بك ، لا يكره منه ذلك . بل يحبه ، ويستشيره ويعمل على رأيه . لما يعرفه

(١) البندقى الجنزرلى كانت قيمته أكثر قليلا من مائة بارة . والبارة ثلاثة مليمات

عنده من البعد عن الهوى . والزهد فى عرض الدنيا . وكان على أغا أيضاً يحب العلماء وأهل القرآن . متواضعا لين الجانب . يحضر مع الجبرتى وغيره دروس الحديث فى المسجد الذى أنشأه سيده أمام الأزهر . ويواظب على الاستماع لتفسير صحيح البخارى الذى كان يلقيه العالم الورع الشيخ على العدوى . وكان له فى هذا المسجد خلوة يستريح فيها ويستقبل أصحاب الحاجات من الناس . فيقضى حوائجهم . وسنجد فى ترجمة عبد الرحمن كتخدا أنه كان يكسو الفقراء العميان والمؤذنين كسوة من الصوف فى كل شتاء .

وكان من المماليك من يقتنى نفائس الكتب . نجد فى حديثه عن على بك الكبير أنه غضب على مملوك اسمه عثمان أغا ، فأخرجه من مصر . وباع ممتلكاته ، فكان منها جواهر ، وتحف ، وأسلحة ، وكتب ، وأشياء نفيسة . فهو يذكر الكتب فى ضمن ماصودر من الأشياء القيمة . وهذا يشعر بقيمتها وكثرتها .

وكان أحمد جاويش ، كبير وجاق الارنؤود ، « من أهل الخير والدين والصلاح مندفعا فى نصرة الحق ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر . مبجلا عند أعاظم الدولة يسمعون لقوله . وينصتون لكلامه . ويتقونه ويحترمونه ، لجلالته ونزاهته عن الأعراض . وكان يحب أهل الفضائل ويحضر دروس العلماء . واقتنى كتبا نفيسة ووقفها جميعها ، فى حال حياته . ووضعها فى خزانة الكتب بجامع شيخون » . وكان يستمع إلى تفسير السيد مرتضى الزبيدى لصحيح البخارى . ونجد فى ترجمة بشير أغا دار السعادة ، أنه اقتنى كتبا نفيسة ، وكان سمحا فى إعارتها . وكان منها البرهان القاطع للتبريزى ، وهو قاموس فارسى .

ويذكر ترجمة قصيرة لرجل اسمه أحمد أفندى فيقول : إنه « الواعظ الشريف . كان من أكابر العلماء ، أمارا بالمعروف ، ولا يخاف فى الله لومة لائم . يقرأ الكتب الكبار ، ويباحث العلماء ، ويعظ العامة بجامع المردانى . فكانت الناس تزدحم عليه ، لعذوبة لفظه ، وحسن بيانه . وربما حضره بعض الأعيان من أمراء مصر فيسبهم جهراً . ويشير إلى مثالبهم » .

ومن هذه الترجمة القصيرة ، نعرف أن الأعيـــان من أمراء المماليك ، كان بعضهم يستمع إلى الوعظ فى المساجد . وكان يتقبل النقد ولو وصل صاحبه إلى السباب وذكر المثالب .

ومما رواه الجبرتى عن على بك الـكبير إنه كان مرة يصلى الجمعة بجامع الداودية . وخطب إمام المسجد فدعى للسلطان ، ثم لعلى بك . فلما انقضت الصلاة أحضر على بك الإمام وكان رجلا « من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح » كما يقول الجبرتى فى تعبيره الطريف اللبق . وتحدث على بك إلى الشيخ فقال له : « من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر .. ؟ أقيل لك إنى سلطان ؟ . فقال نعم ، أنت سلطان ، وأنا أدعو لك . فاغتاظ على بك وأمر أن يضرب الشيخ . فبطح وضرب بالعصى . ثم قام متوجعا من الضرب . فركب حماره وعاد إلى بيته وهو يقول : « بدأ الأسلام غريباً وسيعود كما بدأ » .

ولـكن على بك أرسل ، فى اليوم التالى ، إلى هذا الشيخ قدراً من الدراهم ، وكسوة وطلب إليه أن يسامحه .

ومن هذه القصة نعرف طرفا من أخلاق على بك . فهو حذر ، لا يريد أن يعرف سره فى الخروج على الدولة قبل أوانه . وهو شجاع ، يدرك خطأه فى أن أمر بضرب هذا الشيخ الصالح الساذج ، وهو عطوف على أهل العلم والصلاح يستسمحهم فيما أخطأ ويترضاهم بالعطاء والبذل. وكان الأمير أيوب بك الدفتردار ، وقد استشهد فى حرب الفرنسيين ، يحب العلماء ويكثر من شراء المصاحف والـكتب ويحب القراءة والمناقشة فيها . ويواظب على صلاة الجماعة . ويقضى حوائج السائلين والقاصدين . وكان اسماعيل أفندى — وهو أمير كبير — فيه قناعة ورضى ، يرغب عن السلطان والإمارة . ويحب معاشرة العلماء والصالحين . ويتباعد عن بقية المماليك . ويحضر إلى الأزهر لسماع دروس العلم . وكان زميله فى الدرس الشيخ عبد الرحمن العريشى . فأفاض عليه من بره ، وزوّجه من ماله . ولازمه حتى مات .

فى مجالس العلم والأدب

وكان على بك الدفتردار يجمع فى بيته العلماء للمناظرة فى العلم . وحدث يوما أن جادل الشيخ الحسن بن على البدرى الشيخ أحمد الخليفى فى تفسير آية من القرآن الكريم . وكان ذلك فى مجلس من هذه المجالس فى بيت على بك . وظهر الشيخ البدرى على مجادله فى تفسير الآية . فأجازه على بك ، ورتب له قدراً من المال يتقاضاه فى كل شهر . وبقى الشيخ ينال هذا المال حتى مات . وألف رسالة فى تفسير هذه الآية . وهى قوله تعالى : « أستكبرت أم كنت من العالين » .

ومن المماليك من كان يعرف علوم اللغة العربية . ويدرس الكتب العسيرة الشاقة فيها . ويشتغل بالأدب الخالص منها . مع اشتغاله بالفقه . فقد ذكر الجبرتى فى ترجمته لعثمان بك ذو الفقار أنه كان يقرأ على والده مقامات الحريرى . وأنه كتبها لهذا الأمير بخطه الجميل ، فى خمسين جزءا ، كل جزء على حدة . كما كان يقرأ عليه أيضاً كتبا فى فقه أبى حنيفة . وأن الشيخ الجبرتى ، الوالد ، ألف له كتابا فى مناسك الحج . واستصحبه ثلاث مرات إلى الحج . وكان عثمان بك لا يجالس إلا أرباب الفضائل من أمثال الشيخ ، والشيخ الادكاوى ، والنخال ، والدلجى ، وغيرهم .

وكان منهم الأمناء الذين يتقون الله فيما وكل إليهم . أرسل الأمير لاجين بك مملوكه خليل أغا لجباية الخراج . وكانت له منه متأخرات كثيرة . فذهب إلى الريف ، وأخذ من الفلاحين مال سيده ، ولم يظلمهم . وباع ما أخذه بمال عظيم ، ورجع إلى لاجين بك ومعه صناديق المال . فدهش هذا من أمانته فقال له خليل ، هذا مالك الذى أرسلتنى لأحضره . فقال له سيده أنا لا آخذ إلا القدر الذى أعتقد أنه حق . أما ما ربحته فى البيع فهو لك . وأخذ قدر خراجه ، وأعطاه ما بقى . واشترى خليل أغا جارية أهداها لسيده جزاء بره به . فلم يقبلها لاجين بك ، وردها إليه . وأهداه بيتا ونزل له عن بعض إقطاعياته جزاء هذه الأمانة .

مروءة ابن إيواظ

ومن مظاهر المروءة النادرة ما رواه عن الأمير إسماعيل بك بن إيواظ . فقد كان الأمير محمد بك جركس يحارب إسماعيل بك . وهزم جركس ثم فر إلى الصحراء . وكان الناس يحبون إسماعيل بك حباً كثيرا ، فلما علم العرب أن جركس بك هارب من بطش خصمه ، أسروه . وأعادوه فى أسوإ حال من الجوع ، والعرى إلى إسماعيل بك . فتلقاه هذا بالإكرام والصفح . وألبسه خلعة ثمينة . ونصحه خلصاؤه بأن يقتله فأبى . وقال إنه دخل بيتى وحل فى ذمامى ، فلا يصح أن أقتله . ورأى إسماعيل بك أن خصمه جريح ، فجاء له بطبيب يداوى جراحه . ولما شفى أعطاه ألف دينار ، وأخرجه إلى قبرص حسما للفتنة والشر . وقد جنت مروءة إسماعيل بك عليه شر جناية . كما نرى فى سيرته بعد قليل .

وكانت لهم فى معاملة بعضهم لبعض ، آداب وتقاليد . إذا أنستهم أياها الحرب والمنازعات . وجملتهم يخرجون عليها . فإنهم سرعان ما يعـــودون إلى رعايتها والتزامها ، إذا انتهت حروبهم ومنازعاتهم ، ولقى بعضهم بعضا .

حدثت بين على بك الـكبير ومملوكه محمد بك أبو الذهب حروب دامية ، نراها فى مكانها من هذا الفصل ، وهزم على بك أمام مملوكه . وكانت آخر وقائع هذه الحرب فى الصالحية . فلما التقيا ، وتحاربا ، كانت الهزيمة على على بك ، وسقط من فوق جواده ، وجرح وجهه . فأحاط به جنود محمد أبو الذهب وحملوه إلى خيمة سيدهم . فلما عرف محمد بك ذلك خرج من خيمته يستقبل عدوه وسيده . ثم أقبل عليه فقبل يده . وساعده على السير . وحمله من تحت إبطه ، حتى أجلسه فى مكانه من خيمته . ثم حمله على تخت وعاد به إلى القاهرة فأنزله فى بيته — بيت على بك — بدرب عبد الحق على بركة الأزبكية . وجاء له بالأطباء فعالجوا جراحه . ولـكنه مات بعد سبعة أيام متأثراً بهذه الجراح .

ذكاء وحيل

أما الذكاء وسعة الحيلة ، فمنه ما فعله الأمير إسماعيل بك إيواظ أيضاً . فقد سرقت بقرة من امرأة فى الشرقية · فقالت لا بد من الشكوى لابن إيواظ . فكيف تسرق بقرتى فى أيامه . فلما حضرت إليه — وكان لا يحجب أحداً — قصت عليه خبرها . فأمر بأن يرسل كتاب إلى نائبه فى الشرقية . وأعطاه إلى رسول . ثم قال له : اذهب بكتابى إلى الحاكم . فإذا وصلت إلى قرية هذه المرأة ولقيك أحد من رجالها فسأل عن شأنك فاقبض عليـــه ، فإنه هو السارق · وسافر الرسول ، ومعه المرأة . فلما وصلا إلى القرية لقيهما رجل يهبط من فوق تل . فسأل المرأة : ماذا فعل معك ابن إيواظ ؟ فقبض عليه الرسول ، وأخذه إلى الحاكم . وظهر أن البقرة عنده . فسلمت لصاحبتها .

ومن حيلته أنه أحضر إليه جماعة متهمون . ولمـــا سألهم أنـكروا · فأمر بإخراجهم . ثم أحضرهم مرة أخرى وسألهم · فأنـكروا . فعـــل بهم ذلك مرة بعد مرة . ثم احتجز منهم واحدا وسأله على انفراد ، فأقر لأول وهلة · فلما تعجب القوم من ذلك وأرادوا أن يعرفوا سره . قال لهم إنى راقبتهم جميعاً حين يدخلون علىّ وحين يخرجون ، فرأيت هذا الرجل هو آخرهم فى الدخول، وأولهم فى الخروج · فعرفت أنه هو المذنب .

وكان من أصحاب الذكاء والحيلة البارعة ، كجك محمد · وكجك معناها باللغة التركية ، الصغير ، وفى هـذه اللغة يقدم الوصف على الموصوف ، فـكجك محمد ، معناها محمدالصغير . وسأقص حيلة كجك محمد هذا بشىء من التفصيل · لأن فيها دلائل على روح هذا العصر وسماته . وهى ، مع ذلك ، قصة طريفة .

حيلة كجك محمد

هي قصة طريفة لها دلالة ·

نرى فيها رجلا يؤتمن فيخون ، يأتمنه صديقه على ماله ، وما جمعه في حياته كلها من ذهب وفضة وجوهر ، ثم يذهب إلى الحج ، فإذا عاد أنكره صديقه ، واستحل لنفسه ماله ، ونرى فيها هذا الغر الساذج ، الذى يترك صندوقاً من الذهب واللؤلؤ عند « صديق » ثم لا يأخذ على هذا الصديق وثيقة بما أودع ، ولا يستشهد عليه شهوداً ، ونرى هذا الحاكم « كجك محمد » يستخلص حق هذا الغر الساذج من صديقه الخائن بحيلة بارعة ، ويرده إليه ، لا يطلب في ذلك أتاوة ولا يسعى إلى منفعة . وذلك أمر غريب لايكاد يستقيم مع روح ذلك العصر ، ولكنه أحد الأدلة على ما نقصد إليه من أن هذه الفترة من تاريخ مصر ، لم تخل من الفضائل ، ولم يتجرد كل رجالها من كريم الخصال · وتدل ترجمة الجبرتي لكجك محمد هذا على أنه كان رجلا كريم الخصال حقاً ·

أما القصة ، فخلاصتها أن صائغاً من تجار الجوهر بالصاغة أراد أن يؤدي فريضة الحج ، فجمع ما عنده من الذهب والفضة واللؤلؤ والجوهر ، ومصاغ حريمه ، ووضع ذلك كله في صندوق ، ثم تركه وديعة عند صاحب له بسوق مرجوش ، يسمى الخواجا علي الفيومي . وكتب صاحب الصندوق ، لنفسه ، قائمة بمحتوياته وأخذ مفتاح الصندوق ثم سافر إلى الحجاز فبقي هناك سنة · وعاد إلى بيته ، فحضر إليه أصحابه وأصدقاؤه وأحبابه للسلام والتبريك ، ولكن الخواجا علي الفيومي لم يحضر ، ومضى وقت من الزمن لم يحضر فيه الخواجا حتى ظن صاحب الصندوق أن قد أصابه سوء . فلما سأل عنه عرف أنه طيب بخير لم يصبه سوء ، فأخذ شيئاً من التمر واللبان والليف وقصد زيارته ، فلما استقبل الخواجا على زائره ووضع الضيف منديله بين يديه ، قال له : من أنت ، فإني لا أعرفك قبل اليوم حتى أقبل منك هدية · فقال له : أنا فلان صاحب الصندوق ، فأنكر الرجل

بمعرفته ، وأنكر أن لأحد صندوقاً عنده ، ولم يعترف له بشيء . وخرج الرجل متعجباً حائراً يكاد يطير عقله من الغيظ ، ولـكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، فلمـا أخبر بعض خاصته بالأمر . قال له اذهب إلى كجك محمد .

وذهب صاحب الصندوق إلى كجك محمد وقص عليه أمره ، فقال له : ادخل داخل البيت ولا تظهر لى حتى أطلبك ، ثم أرسل يستدعى الخواجا على الفيومى ، فلما حضر جعل يتودد إليه ويلاطفه ويؤنسه ، وكانت فى يد الفيومى مسبحة من من المرجان ، فأخذها كجك من يده يقلبها ويلعب بها ، ثم قام وفى يده المسبحة فدخل بيته كأنه يريد أمراً ، وفى داخل البيت نادى خادمه وقال له : اخرج من هذا الباب ، وخذ خادم الخواجا على معك ، واترك دابته هنا ، ثم اذهب إلى بيت الفيومى ، مع خادمه ، وقف عند باب الحريم وأعطهم المسبحة أمارة ، وقل لهم : إنه يريد أن يرسل له الصندوق الذى يحفظه أمانة . فلما رأى حريم الفيومى المسبحة والخادم ، لم يشكوا فى أن هذه إرادة رب البيت وأخرجن لهما الصندوق ، فذهبا به إلى كجك محمد . وعاد هـــذا إلى ضيفه فقال له : بلغنى أن رجلا جوهرياً أودع عندك صندوقاً أمانة ، ثم طلبه فأنـكرته ، فقال : لا وحياة رأسك . . . ! ليس له أصل ، وكأنى اشتبهت عليه ، أوأنه مريض معتوه . ولا أعرفه قبل ذلك ولا يعرفنى ، ثم سكتوا ، وبعد لحظة دخل الخادمان يحملان الصندوق ، على حمـار ، فوضعوه بين أيديهما ، فامتقع وجه الخواجا وألجم لسانه ، فنـادى كجك محمد صاحب الصندوق من داخل البيت فحضر ، فقال له : هذا صندوقك .؟ قال : نعم ، فطلب إليه أن يخرج القائمة التى كتب فيهـا محتويات الصندوق ، وفتح الصندوق وتلا ما فى القائمة من الجوهر والذهب وغيره فوجده مطابقاً لما فيه . فقال له : خـــذ متاعك واذهب . « فأخذه وذهب إلى داره وهو يدعو له ، ثم التفت إلى الخوجا على الفيومى وهو « ميت فى جلده » ينتظر ما يفعل به ، فقال له : صاحب الأمانة أخذها ، وإيش جلوسك . . . ؟ فقام وهو ينفض غبار الموت . . وذهب » .

ويظهر من ترجمة الجبرتى لـكجك محمد هذا ، إنه كان رجلا واسع الحيلة ، مرهوباً . فقد جاء النيل فى سنة ١١٠٦ قليل الماء ، وشرقت البلاد . فنزل كجك

كجك محمد إلى بولاق حيث تباع الغلال لسكان القاهرة ، وأحضر الأمناء ومنعهم من زيادة سعر القمح ، وخوّفهم وحذّرهم ؛ وأجلس اثنين من رجاله لمراقبتهم. وكان يرسل فى كل يوم أو يومين حماره مع حمّاره يمشى به جهة الساحل ويرجع ، فيظن الناس أن كجك محمد ببولاق يراقب البيع فلا يستطيعون أن يزيدوا فى ثمن القمح. فلما قتل بيع بمائة نصف ، ولم يزل يزيد حتى بلغ ستمائة نصف فضّة . وكان أمرَ ألا يزيد عن الستين . ولم يزد .

وكان كجك محمد هذا رجلا صاحب خلق ، فوق دهائه ، فقد روى الجبرتى أن رجلا من خصومه ظل يتربص به ويترصده ليقتله ، حتى مر يوما وخصمه مختف وراء جدار ، فضربه رصاصة أخطأته فأخبره بعض الناس بمن فعل ذلك ، فلم يغضب ولم يجنح إلى الانتقام ، وهو عليه قادر، بل قال : « الحى ماله قاتل » .

ولكن كجك محمد لم تنفعه سماحة نفسه ، ولا حلمه ، وعفوه . فقد قتل غيلة ، فى سابع المحرم من سنة ١١٠٦

عثمان بك

وكان الأمير الكبير عثمان بك ذو الفقار من أصحاب الحيلة والذكاء . حضر إليه رجل يخبره بأن زوجه خرجت منذ أيام إلى الحمام ، ولم تعد . وفتش عنها فى كل مكان فلم يجد لها أثرا . فقال له الأمير ، بعد تفكير : اذهب إلى منزلك ، وتفقد ثياب زوجك . فإن وجدت فيها شيئا لم تحضره لها ، اخبرنى . وعاد الرجل مرة أخرى ومعه «بَلَك »[1] فقال لعثمان بك هذا لا أعرفه ولم أحضره لها ، فأمر بإحضار شيخ الخياطين وأراه له . وأمره بأن يعرف من خاطه منهم ، ويأتيه به . وأحضر شيخ الخياطين حائكا تعرف على هذا « البلك » وقال أنه خاطه لفلان . وكان فلان هذا من أتباع عثمان بك . فأحضره وسأله عن المرأة فجحد أنه يعرفها .

(١) صديرية .

وأمر عثمان بك بتفتيش بيته ، فوجـــدت المرأة مقتولة ومدفونة فى مكان منه . فأخرجوها ودفنوها · وقطع رأس تابعه .

وقد بنى كثير من المماليك وأتباعهم وأصلحوا كثيرا من المساجد ، والزوايا والسبل والمستشفيات والحمامات ، ومساقى الدواب ، والـكتاتيب التى يحفظ فيها الصبية القرآن · ووقفوا عليها كثيراً من الأموال والحبوس ·

ولـكنى أذكر ذلك للأمانة التاريخية فقط . ولا أريد أن اتخذه دليـلا على حب الخير أو تمـكن العقيدة . أو العمل على طاعة الله . فإن الـكثرة الغالبة من هؤلاء الذين أقاموا هذه المستشفيات . لم تـكن هذه الدوافع الخيّرة هى التى حملتهم على إقامتها بل كانت دوافع الأنانية ، والمباهاة . والتـكفير عما أجرموا من شرور وآثام ، هى التى دفعتهم إلى ذلك ، لعل الله يغفر لهم بعض ما صنعوا .

هذه صفحات قليلة تخيرتها لإبراز السمات التى كان يشترك فيها عدد غير قليل من المماليك . أعتقد أن كثيرين من الناس سيعجبون لها . لأنهم ، كما قلت ، لا يعتقدون أن أحدا من المماليك كانت فى نفسه صفة من صفات الخير . أو فى قلبه أثارة من كريم العواطف . أو فى عقله شيء من الدراية أو المعرفة أو رغبة فى شيء منها .

أما أثر هذه الصفات والسمات فى نوع الحـكم الذى كانوا يسيطرون به على مصر فنجده فى حديثنا عن الحياة الفكرية والاجتماعية [1] · على أننا نستطيع هنا أن نقول إن شجاعة المماليك ، وتملقهم بالحرب والفروسية ، واعتدادهم بأنفسهم وأجناسهم وماضيهم ، وإختلاف طوائفهم ، والأوضاع السياسيه والاجتماعية التى كانت سائدة إذ ذاك ، وما تركه العثمانيون عند فتحهم مصر ، وما مكنوا له من الفرقة والتنازع فيها — كما أشرنا من قبل — ذلك كله كان ذا أثر كبير فى هذا اللون من الحـكم الذى حكمت به مصر فى ظل هذه الطبقة من المماليك .

أمن ورخاء وسلام

أما إذا ترك المماليك حربهم وهدأت بينهم الخصومات والمنازعات . فإنا نجد فى مصر أمنا وسلاما ورخاء قل أن نجد له مثيلا فى عهد آخر . اذا انفرد أمير من

(١) فى الجزء الأول من الـكتاب

المماليك بالحكم ، بالغلبة والتسلط وقهر منافسيه، وجدنا هذا الأمن والرخاء والسلام تبسط ألويتها على الناس فى مصر ، كما كان الحال فى عهد على بك الكبير ومحمد أبو الذهب . ووجدناهم يعمرون البلاد ويشتغلون بمصالح الرعية ويحرصون على خيرها . وإذا اشترك أميران منهم فى الحكم ، وأسكتا من عداهما بالمال أو بالقهر أو بالرضى . وجدنا أيضا هذا الأمن والرخاء والسلام ووجدنا منهم كذلك هذه الرعاية لمصالح الناس . كما كان الحال فى عهد رضوان بك وشريكه عثمان بك ذى الفقار . ولم يشذ عن قاعدة الشريكين هذه سوى مراد وإبراهيم . لما كان عند أولهما من القسوة والشر . وعند ثانيهما من اللين والمسالمة ، كما نجد عند الحديث عنهما . لذلك نجد الجبرتى يصف عهد على بك بأنه كان عهد أمن وقرار . وأن السبل كانت خالية من الأشقياء . ويقول : إن الأسعار فى عهد محمد أبى الذهب كانت رخيصة والمكاسب كثيرة. والحياة هنية رخية . وكان النصف فضة — وهو العملة الصغيرة — يصرف بعشرة جدد ، أو اثنى عشر جديدا . وكان الجديد الواحد يكفى الفقير نفقات يومه ويشترى به أوساط الناس ما يكفيهم طعام يومهم . ويقول عن إسماعيل بن إيواظ إن أيامه كانت سعيدة ، وأفعاله حميدة ، والأقاليم فى أمن وأمان .

ويقول عن عهد عثمان ذى الفقار ، وشريكه رضوان كتخدا الجلفى : إن المحتسب منع من أخذ الرشوة . وجرت الأحكام على مقتضى الشريعة . وسهل على الفقراء أمر معاشهم وحياتهم ، ومنعت الشهود المأجورون من أداء الشهادة ، وأنصف المظلوم من الظالم ، وأقيم العدل فى الرعية .

بل نجد شيئا من ذلك فى أسوإ عهود المماليك ، وأشدها قسوة ، وأكثرها ظلما وجورا . عهد مراد وإبراهيم . فقد اختصم كلاهما صاحبه . وترك إبراهيم القاهرة إلى الصعيد ، مغاضبا ، ثم تصافيا وعاد هذا إلى القاهرة . وطلب كبير من أنصاره المقربين إليه ، هو عثمان بك الشرقاوى ولاية جرجا . لقاء إخلاصه له . ولكن إبراهيم رفض ذلك . وقال له : « نحن نعطيك كذا من المال ، واترك ذلك . فإن البلاد خربت ، ومات أهلها من الجوع » .

المماليك مصريون

هؤلاء المماليك ، بما فيهم من فضائل ورذائل ، وما كان عليه حكمهم من جور وعدل ، كان المصريون يرونهم مصريين مثلهم • يعطفون عليهم ، ويحسون بشعورهم وعواطفهم • يحبون المحسن منهم حباجما ، ويبتئسون إلى أبعد غاية إذا أصابه شر أو مكروه . ويسخطون أعظم السخط على المسيء منهم ، ولكنهم مع ذلك يرجون لو أنه يفيء إلى العدل، والإحسان ، والسداد . فهو سخط تدفعهم إليه المحبة والإشفاق . كما يسخط الوالد على ولد له مسيء . ولكنه لاينسى ما بينه وبينه من وشائج الدم والمحبة والشفقة .

وكان المماليك أيضا يرون أنفسهم من أبناء مصر . وأن هذا البلد هو وطنهم ، مهما باعدت بينه وبينهم الأوطان وباعدت بين بعضهم وبعض أيضا . وكان كثير منهم يعلن سخطه وأسفه وألم نفسه ، على ما تضطرهم إليه المنازعات والأوضاع والضرورات من ظلم الرعية والقسوة عليها . ويود فى صميم نفسه لو تزول هذه المنازعات والأوضاع والضرورات حتى يحكم بما يشاء ، أو يستطيع ، من الرفق والعدل .

لا شك فى أن الجبرتى ظاهر العطف والمحبة للمماليك . وأنه كان صديقا لكبارهم ورؤسائهم . كما كان أبوه صديقا حميما لأمرائهم وعظمائهم • ولكن ذلك لا ينقص شيئا من اعتقادنا بهذا الذى ذكرنا من شعور المصريين نحو المماليك . بل إن محبة الجبرتى للمماليك وعطفه عليهم هما دليل على صحة هذا الاعتقاد وصدقه . لأن الجبرتى كان مصريا من أصدق المصريين عاطفة وولاء ولصوقا بأهل مصر ، ومن أدقهم إحاطة وإدراكا لإحساسهم ومشاعرهم •

كان المصريون يرون المماليك مصريين لا وطن لهم سوى مصر . من ذلك أن السلطان عندما أرسل حملة لحرب مراد وإبراهيم • اختار حسن باشا قبطان ، قائد هذه الحملة ، الأمير اسماعيل بك شيخا للبلد . وأراد هذا أن يستعين بالعلماء .

فطلب — بعد سفر حسن باشا قبطان — أن يكتب كبار الشيوخ إلى السلطان كتابا يرجون فيه أن ترسل تركيا جنودا لتأييده ومعاونته فى حرب مراد وإبراهيم . فأبى الشيوخ أن يكتبوا . وكان المتحدث عنهم هو الشيخ العروسى . وكان رده على إسماعيل بك : إن جند الأتراك ليس كفؤا لحرب المماليك وإن الاستعانة بالدولة ليس من الحكمة . وما تنفقه على الجنود التى تطلبها من السلطان ، أولى أن تترضى به الغاضبين من « أهل البلد » لأنهم أحق به . « وأهل البلد » هؤلاء هم المماليك .

ولا ننسى مرة أخرى ، أن مرادا وإبراهيم ، كانا أفحش المماليك ظلما على أهل مصر . ومع ذلك لا يرضى أهلها أن يحاربهم العثمانيون . لأنهم « أهل البلد » .

وكان المصريون يحبون المماليك أيضا . وخاصة من سار فيهم بالعدل والرفق . نجد ذلك واضحا قويا فى حديث الجبرتى عن قصة الخلاف الذى وقع بين إيواظ بك وجماعته . والذى انتهى بقتله . فقد روى ذلك بكثير من العطف والمحبة والرثاء . وروى كثيرا من شعر الشعراء الذين مدحوه ، وحزنوا لقتله حزنا ظاهرا . ولم يذكر شعر الشعراء وحدهم . بل ذكر أن الناس حزنوا عليه أيضا أشد الحزن .

ولما خرج من مصر الأمير عثمان بك ذوالفقار . وكان المصريون يحبونه حبا كثيرا ، أرّخوا بسنة خروجه . وجعلوها ميقاتا لأخبارهم ووقائعهم وموالدهم . فيقولون جرى كذا سنة خروج عثمان بك . وفلان ولد بعد خروجه بكذا من السنين والشهور والأيام .

وكان المماليك يحسون هذا الاحساس نفسه نحو مصر . كانوا يرون أنهم مصريون . وأن مصر هى وطنهم وبلادهم وأرضهم . نجد هذا الإحساس واضحا فيما يحدث به الجبرتى عنهم . فى صفحات كثيرة من تاريخه . ونجده فى أنه يسميهم « الأمراء المصرية » وكانوا هم يسمون أنفسهم هذه التسمية أيضا . فهو يذكر الأمراء المصرية ، أو المصريين ، ويريد بهم المماليك . ويذكر وصفهم هذا فى مقابلة « العسكر العثمانى » أى جنود الدولة العثمانية . وفى مقابلة « عسكر الفرنساوية »

أى الجنـد الفرنسى . ونجد هذا الإحساس قويا ، مؤثراً فى هذه المناجاة التى ذكرها الجبرتى على لسان محمد بك الألفى . عند ما مر خارج القاهرة وهولا يستطيع دخولها ، لوقوعها تحت حكم محمد على خصمه الألد .

فقد روى الجبرتى أن الألفى وقف عنـد ذاك على أكمة وأخـد فى مناجاتها بدعاء قوى مؤثر فيه حنين صادق ولهفة ومحبة ... أن تنظر إلى « أولادها » كيف صار أمرهم إلى الشتات والخذلان . وكيف استولى « أجلاف الأتراك » وأراذل الأرنؤود ، على بلاد مصر . يحاربون « أولادها » ، ويقاتلون « أبطالها » ، ويقاومون « فرسانها » . وأنه أصيب بعد هذه المناجاة بمرض قضى عليه .

وسواء أكان الألفى نطق بهذه المناجاة فعلا ، أم وضعها الجبرتى على لسانه . فهى تدلنا على ذلك الإحساس الذى كان يحسه المماليك نحو نسبتهم إلى مصر . وصلتهم بها ، واندماجهم فيها . وقد كان الجبرتى من أخلص أصدقاء الألفى ومحبيه ، والمدركين لطوية نفسة ودواخل إحساسه .

وكان بعض كبار المماليـك يخضع لهذه العاطفة . عاطفة أنه مصرى . فى تصرفاته وفى تفـكيره . ومواجهته للأحداث العامة . نجد منهم من لم يفـكر فى نفسه وأهله وماله وهو يحارب جيش نابليون ، كما فـكر مرادوإبراهيم، فسجلا بذلك على نفسيهما خزيا وعاراً وإثما كبيراً . ومن هؤلاء الذين صمدوا فى حرب نابليون حتى الموت ، أيوب بك الدفتردار[1] . وكان مدير الشئون الماليـــة ، وعبد الله كاشف الجرف — وكان من كبار المماليك — وإبراهيم بك الصغير ، صهر إبراهيم بك الـكبير ، وقد مات غرقا .

ونجد كذلك من كبار المماليك الذين خضعوا ، مختارين ، لعاطفتهم المصرية ، عثمان بك حسن . فقد سعى إليه الإنجليز ليعينهم على بسط سلطانهم على مصر ،

(١) عندما وصل الفرنسيون إمبابة ، خرج أيوب بك ، قبل الموقعة بيومين ، وصار يقول : « أنا بعت نفسى فى سبيل الله ، وقبل الموقعة توضأ وصلى ركعتين . ثم ركب فى مماليكه وحارب حتى قتل .

حتى يمكنوا له — فى زعمهم — ولإخوته الماليك ، من حكمها . ولتكون لهم الغلبة على محمدعلى . ولكن عثمان بك أجاب الإنجليز بأنه هاجر ، وجاهد الفرنسيين وأنه لا يقبل أن يختم حياته بمساعدة الإفرنج على إخوانه المسلمين .

وكانت العاطفة الدينية والوطنية إذ ذاك ، متشابكتين . حتى لايكاد الناس أن يدركوا بينهما تمايزا أو اختلافا .

وذكر الجبرتى أسماء محمد بك الألفى ، وحسن بك الجداوى ، وإسماعيل كاشف — الذى كان يعرف بأبى قطية — فيمن أعان المصريين فى حروبهم للفرنسيين ، أو فى دفع بلاء الفرنسيين عنهم ، وقد أبلى أولهم فى ذلك أشد بلاء .

المماليك أصحاب النفوذ والسلطة

ويرى القارىء أننا نسوق الحوادث والآراء فى هذا الفصل مساقا يشعر بأن حكم مصر فى هذه الفترة كان للماليك . وأننا جعلنا عنوانه « أيام الماليك » مع أن مصر إذ ذاك كانت ولاية عثمانية .

والحق أن مصر كانت فى ذلك العهد ولاية عثمانية ، بعد انتصار سليم الأول على طومان باى . ولكن ذلك كان قائماً من الناحية النظرية فقط . فقد كانت السلطة الفعلية فى يد الماليك . ولم يكن ذلك الوالى أو الباشا ، الذى ترسله الدولة فى اسطنبول إلى القاهرة . إلا مظهراً لسطانها الرمزى فقط على مصر . وقليلا ما نجد من هؤلاء الولاة من عمل عملاً ما ، سوى أن يجمع المال لنفسه من كل سبيل . وأن يرسل « الخزنة » أى المال الذى فرضته الدولة على مصر فى كل عام . وكثيراً ما نجد هذا الوالى سجيناً فى القلعة ، حيث كان مقره ، لايبرحه إلا بإذن من الماليك . وكثيراً ما نجد الماليك يخرجون الباشا من مقر حكمه ، فينفونه من مصر . ونجد أنهم كثيراً ما كانوا يطلبون والياً بذاته ليبقى ، فتبقيه لهم الدولة . ويطلبون إخراج آخر فتخرجه . ونجد كذلك أنهم كانوا يقفون تنفيذ المراسيم التى ترد من السلطان نفسه .

فقد حدث أن قصد السيد عبد الفتاح الحسينى الحموى — وكان من الأشراف فى مصر — إلى اسطنبول وقابله السلطان . ثم أصدر مرسوماً بتعيينه نقيباً للأشراف . وعاد إلى مصر ، وتلى مرسوم السلطان . ولكن المماليك عارضوا فى ذلك لأنه سافر إلى الدولة من غير إذنهم ، ولم يستأذن كذلك فى ترشيحه لنقابة الأشراف . ولم ينفذ مرسوم السلطان لأن المماليك لم يرتضوه .

وتقديراً منهم لمكانة السيد عبد الفتاح وفضائله ، أذنوا له بمرتب خاص من النقابة .

وحدث فى سنة ١١٩٨ أن أرسل السلطان أمراً بتقرير المال الذى يسلم إلى الباشا . فطلب هذا من الأمراء المماليك أن يصعدوا إلى القلعة ليتلى عليهم أمر السلطان . ولكن الأمراء لم يصعدوا وأهملت دعوة الباشا ، كما أهمل أمر السلطان ، « ولم يلتفت إليه » على حد تعبير الجبرتى .

ونجد من مثل ذلك شيئاً كثيراً . واضح الدلالة على تحدى سلطة الوالى ، وسلطة السلطان نفسه . وعلى أن السلطة الواقعية لم تكن للدولة أو ممثلها فى مصر . بل كانت للمماليك .

وقد روى الجبرتى كثيراً من الحالات التى جرد فيها المماليك ، الوالى التركى من سلطته . وأنزلوه من مقره فى القلعة إلى حيث يسجن ويحاسب على ما جمع من مال . وينفى من البلاد . وفى السطور التى سجل بها عزل الوالى محمد باشا عزت ، ما يشعرنا بالمدى الذى كان لسلطان المماليك على هؤلاء الولاة .

كان محمد عزت باشا والياً على مصر فى سنة ١١٩٢ ولم يرض المماليك عن ولايته . فأرسلوا إليه بعض رجالهم « يأمرونه بالنزول » إلى بيت واحد منهم هو حسن بك الجداوى ، فلما سمع منهم الوالى ذلك قال لهم : « وما ذنبى الذى أعزل به ... ؟ » فعاد القوم إلى إخوانهم وأبلغوهم جوابه . فأمر المماليك جنودهم بالصعود إلى مقر عزت باشا فى القلعة . فلما رآهم فى فنائها وشهد كثرتهم

«ارتمب ، فركب من ساعته ونزل من القلعة» إلى حيث أمره المماليك . ثم أحضر هؤلاء الجمال فحملت متاعه من القلعة .

وروى عن طريقة عزل الوالى رجب باشا ، قصة تثير كثيراً من التأمل والابتسام معاً . فقد تقلد هذا الوالى منصب الولاية ، فى سنة ١١٣١ وكان سابقه — مسلم على باشا — صديقاً للماليك . وخاصة لزعيمهم فى ذلك الوقت إسماعيل بك بن إيواظ . فلما ذهب الأمير محمد بك ابن إبراهيم بك أبو شنب يحمل الخزنة إلى اسطنبول ، اتفق معه رجال الدولة على الغدر بإسماعيل بك خشية أن يستقل بأمر مصر . واتفق الجميع على تولية رجب باشا ، على أن يقتل الوالى المعزول مسلم على باشا . ثم يدبر الأمر لقتل إسماعيل بك بعد الفراغ من صديقه على باشا .

وجاء رجب باشا إلى مصر فقتل مسلم على باشا ، وسلخ رأسه وأرسلها إلى الباب العالى فى اسطنبول . ولكنه لم يستطع أن يتم بقية المؤامرة . ولم يستطع قتل إسماعيل بك لحذره وحيطته . بل اتفق هذا مع بقية الأمراء على نزوله وعزله ثم ذهبوا إليه — فى آخر سنة ١١٣٢ — وأنزلوه من القلعة إلى بيت واحد منهم. فلما استقر فى هذا البيت . اجتمع حوله صبية القاهرة وهم ينشدون : —

باشا يا باشا ، يا عين القملة

مين قال لك تعمل دى العملة

باشا يا باشا ، يا عين الصيرة

مين قال لك دبّر تدبيرة . !

وضاق رجب باشا بنشيد الصبية هذا ضيقاً شديدا . ورجا من الأمراء أن ينقل إلى مكان آخر ، فنقل . وأرغم بعد ذلك على أن يدفع قدراً عظيما من المال . كان أنفقه فى إيقاع الفتنة بين المماليك . ثم رحل إلى الآستانة .

ومن هذه القصة ندرك شعور المصريين نحو المماليك ، ونحو العثمانيين .

على أن الدولة نفسها كانت تعترف بسلطان المماليك المطلق على مصر · وتبنى بعض تصرفاتها على هذا الأساس ·

فقد كان كبير المماليك فى سنة ١١٨٣ هو على بك الذى استقل بعد ذلك بحكم مصر، ووقعت بين الشريف عبد الله ، شريف مكة ، وبين ابن عمه الشريف أحمد منازعة على الإمارة ، فلجأ أولهما إلى السلطان يطلب عونه على ابن عمه . فكتب السلطان إلى على بك يوصيه به ، وأن يعينه على نوال حقه .

كتب السلطان بذلك إلى على بك ، ولم يكتب إلى نائبه فى مصر · لأنه يعرف من منهما الذى يستطيع بسلطانه وسلطته ، أن ينفذ ما يريد .

وقد أفاد على بك من هذه الفرصة . واتخذ أمر السلطان هذا ذريعة لفتح الحجاز · وبسط سلطانه عليه ، وضمه لمصر ·

وكثيراً ما كان المماليك ينقصون مقدار « الخزنة » التى تفرضها الدولة على مصر . أو يمنعون إرسالها إطلاقا . ولا تستطيع الدولة معهم شيئاً .

عزل الوالى

وكان للمماليك تقاليد فى عزل الولاة الأتراك ، وإنزالهم من القلعة · فإذا اتفق رأيهم على عزل واحد منهم ، أصدروا قراراً بذلك حمله إليه رسول اسمه « أوده باشى » يلبس عباءة سوداء ، ويضع على رأسه قبعة سوداء أيضا لها حافة تشبه الطبق · وكانت العامة — لهذا السبب — تسميه « أبو طبق » ويركب هذا الرسول حماراً إلى القلعة فى موكب من الشاهدين والمتفرجين وخلفه طائفة من الجند · ثم يدخل على مجلس الوالى فيقدم له التحية ، باحترام كبير ، ثم يطوى طرف السجادة التى يجلس عليها . ويعلنه بقرار العزل ويقول له « انزل يا باشا » فيمتثل الوالى ويطيع · وينزل من القلعة مجرداً من كل سلطان . وقد عزل إسماعيل باشا التونسى فى سنة ١٢٠٥ وحوسب على ما جمع من مال ، وأذن له بالرحيل . ثم أمر به مرة أخرى فسجن · وأنزلت حوائجه ففتحت وفتشت · وبقى فى الحجز حتى دفع مالا آخر .

الولاة الأتراك

ولم يكن الولاة العثمانيون كلهم مثل ذلك الوالى رجب باشا الذى قتل سلفه وسلخ رأسه ، كما ذكرنا منذ قليل، بل كان بعضهم فيه شيء من خصال البر ، ومن الفضائل ، والمعرفة ، وحب العلم .

إسماعيل باشا البار بالفقراء

كان الوالى إسماعيل باشا — الذى تولى فى المحرم سنة ١١٠٧ وعزل فى ربيع الأول ١١٠٩ — رجلا بارا بالناس عطوفا على الفقراء . وعندما صعد إلى القلعة واليا عرف أن الناس فى كرب شديد . بسبب المجـاعة والغلاء ، فأمر بجمع الشحاذين والفقراء وأن يوزعوا على الأمراء والأعيان والقادرين . وأخذ لنفسه ولـكبار رجاله جانبا منهم[١] وعين لهؤلاء الفقراء مايكفيهم من الطعام فى الصباح والمساء . وبقى على هذا الحال حتى انقضت المجاعة والغلاء .

وأراد وهو فى الولاية أن يختـتن أولاده فجمع معهم مائتين[٢] من أولاد الفقراء وختنهم مع أولاده وأعطى كل غلام منهم كسوة ودراهم ، وأقام لهذا الختان مهرجانا استمر عدة أيام ، ورفعت له الزينات فى أحياء القاهرة كلها وأضيئت القناديل ليالى عديدة ، ونصبت الخيام فى قبة الغورى وقايتباى وفرشت بالفرش الفاخر والطنافس ، والوسائد الحريرية ، وسارت فرق الملاعب والمهرجين ، وشمل الناس كلهم فرح عظيم وبهجة . وأقيمت المآدب ثلاثة أيام يختلف إليها العلماء والأمراء وكبار الناس، ثم يختلف إليها الفقراء وأرباب الحرف والصناعات والعميان،وطلبة الأزهر ، وفى ختام هـذه المهرجانات ، خلع على الأمراء الخلع الفاخرة وأنعم بكساوى وأموال على أرباب الملاهى ، والبهلوانيين والطباخين والحلاقين ، وغيرهم من الفقراء والمحتاجين .

(١) محمد على مبارك ما اختص به نفسه بألف فقير يوميا . نقله عن تحفة الناظرين .
(٢) ذكر على باشا مبارك ، أنهم كانوا ٢٣٣٦ غلاما وأنه أمر فنودى على كل من كان عنده ولد ، ان يأتى به ليختن فـكان هذا العدد . وأنه كسا كلا منهم كسوة كاملة . وأقسم ألايقبل فى هذه المناسبة هدية من أحد .

وقد أنشأ هذا الوالى مدرسة ، ورتب لها من يدرسون الفقه ، على المذاهب الأربعة وآخرين يقرؤون صحيح البخارى شهور رجب إلى نهاية رمضان ، وخصص لهم رواتب ، كما خصص رواتب لآخرين يقرؤون القرآن صبيحة كل يوم • ووقف على مدرسته هذه وطلبتها وقفا كبيرا ، وكان يرسل خمسين بعيرا إلى الحجاز تحمل الماء لتسقى الفقراء من الحجاج . وحدث وباء أيام ولايته مات فيه كثير من الناس ، فأمر أمين بيت المال بأن ينفق على دفن كل فقير وغريب .

وكان يجلس يوما فى قصره بقره ميدان ، فمرت به عروس فقيرة . فى طريقها إلى الحمام • فتأثر من مظاهر فقرها وأرسل لها عشرة دنانير من الذهب . وصارت عنده عادة أن يرسل إلى كل عروس تمر به قدرا من الدنانير الذهب[1] .

الفقر ليس عيبا

وعندما جاء الوالى محمد خسرو باشا [2] بعد خروج الفرنسيين من مصر . عزل الشيخ خليلا البكرى من مشيخة البكرية ، كما عُزل من قبل من نقابة الأشراف ، لأمور شائنة نسبت إليه وإلى بنته أيام الفرنسيين[3] فلما أراد خسرو باشا أن يختار خلفا له فى المشيخة ، قيل له : إن هناك رجلا من سلالة البكرية يصلح لها ، لسنه ، واستقامته ، وفضائله . ولكنه فقير . فقال خسرو باشا : « الفقر ليس عيباً ، وأنا أواسيه وأعطيه » ثم جاء به فألبسه الخلعة ، وأهداه فرسا مطهماً بكسوته الكاملة . وخصص له راتبا كفاه ، وأغناه ، حتى صار بعد ذلك من الأثرياء . وكان هذا الشيخ من أتباع خليل البكرى ، واسمه السيد محمد سعد وكان ، قبل أن يوليه عزت باشا ، لا يملك شيئا ، ولا دابة يركبها .

حكيم أوغلى

وكان على باشا حكيم أوغلى ، ويسمى على باشا زاده ، واليا عادلا ، بارا ، تولى

(١) عن الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك .
(٢) تولى من ١٣ من جمادى الأولى سنة ١٢١٦ إلى ١٤ من المحرم سنة ١٢١٨
(٣) تجد تفصيل ذلك فى الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٨١ — ١٨٢

حكم مصر مرتين . أولاهما سنة ١١٥٣ . فلما جمع الديوان ، وقرىء فيه مرسوم تعيينه ، تحدث إلى أعضائه فقال : « إنى لم أجىء مصر لإثارة الفتن بين الأمراء . وإغراء الناس ببعضهم . بل جئت لأعطى كل ذى حق حقه » ثم سلم على الشيخ البكرى وقال : إنه سيزوره بعد غد · وأرسل إليه قبل زيارته هدايا كثيرة كبيرة القيمة · وبقى على وده وتقديره له حتى خرج من الولاية . وقد سار فى حكمه على ذلك الدستور من العــدل ، الذى تحدث به إلى أعضاء الديوان فى اليوم الأول من ولايته .

وعاد على باشا للولاية مرة أخرى ، فى سنة ١١٦٧ فــكان فيها أيضا على دستوره ذاك « سار فى مصر سيرته المعهودة ، وسلك طريقته المشــكورة المحمودة فأحيا مكارم الأخلاق وأدرَّ على رعيته الأرزاق بحلمٍ وبِشر ربّى عليهما ، فــكانا له طبعا، وصدر رحب لا يضيق بنازلة ذرعا» هكذا يصفه الجبرتى ويصف ولايته .

سفينة الراغب :

وكان من الولاة محمد باشا راغب · يصفه الجبرتى بأنه كان إنسانا عظيما عالما محققا ، معدودا من أفاضل العلماء ، وأكابر الحــكماء ، جامعاً للرياستين ، أى الصدارة العظمى ، وولاية مصر ، حاوياً للفضيلتين · له تآليف وأبحاث فى علوم كثيرة ، وكان له خاتم نقش عليه هذا البيت :

بحمد رجو الأمان محمـــــد   ممـا يخـاف . وفى نوالك راغب

وله ثلاثة دواوين من الشعر ، أحدها فارسى ، والآخر تركى . والثالث عربى. وكان له فى العلم فهم رجيح ، وفى الأدب ذوق صحيح . يباحث العلماء ، ويكرمهم . وله أبيات فى بعض عادات أهل مصر — وكانوا يسمونها « مواجب » — هى :

مواجبٌ زلت، من بعد تطويل،   كضرطة ربطت فى طرف منديل

أو صوت ضفدعة ، فى ركة الفيل

ومن شعره فى مملوك كان لأحد الأمراء ، وقد استجاده الجبرتى :

حكى ذا الرشا المملوك ، فى الحسن ، يوسفا

وفيما ادعيـه يشهد العين والقلب

خلا أن ذاك اغتاله الذئب ، فرية ،

وهذا ، حقيقا ، قد تملـكه كلب

وقد ألف راغب باشا كتابا سماه « سفينة الراغب » جمع فيه مباحث فى اللغة والمنطق والتوحيد وغير ذلك من العلوم والمعارف التى كان يشتغل بها علمـاء ذلك العصر .

وتولى راغب باشا حكم مصر سنة ١١٥٩ وبقى فى ولايتها سنتين ونصف

وال صالح

ومن خير هؤلاء الولاة عبد الله باشا الـكبورلى ، أو كبورلى زادة . تولى سنة ١١٤٣ وبقى فى الولاية أكثر من أربع سنين . وكان من أرباب الفضائل له ديوان يصفه الجبرتى بأنه جيد . وكان أهل مصر يحبونه حتى أرخوا له بهذا البيت :

ولما جـاء مصرا أرخوه : لقد سعدت ، بعبد الله ، مصر

وكان عبد الله الـكبورلى باشا من أهل الاستقامة والصلاح . أبطل فى عهده المنـكرات والخمامير ، وبيوت البغاء ، التى كان يعرفها أهل مصر إذ ذاك باسم « مواقف الخواطى » كما أبطل شرب البوظة التى كانت منتشرة فى بولاق وباب اللوق ، وطولون ومصر القديمة . وجعل لمن كانوا يتـكسبون من ذلك كله مرتبات شهرية يأخذونها من أموال كبار الدولة . وكتب بإبطال هذه المنـكرات حجة أمن فيها من يكون سببا فى رجوع شئ منها .

وكان إلى عدله واستقامته وصلاحه من أهل الأدب والعلم ، له معرفة بالفنون والقراءات . تلا القرآن على الشهاب الإسقاطى ، ونال منه إجازة ، وكذلك على شيخ القرا بدار السلطنة الشيخ محمد بن يوسف . وله ديوان شعر ، وتحقيقات ، ودرس

كتب الحديث وعلومه على الشيخ أحمد العماوى — وكان عالما كبيرا — وكتب له إجازة أكثر فيها من الثناء عليه . وقد وضع الشيخ عبد الله الشبراوى — شيخ الأزهر — قصائد كثيرة طويلة فى مدحه . وروى له الجبرتى قليلا من الشعر نذكر منه :

أرى أيدياً نالت غنى ، بعد فترة ... لألأم قوم ، فى أخس زمان
فضنت بما نالته ، شل بنانها ، ... وأن رمت جدواها ، فشل بنانى
وقوله : دموعك أخجلت نوء الثريا ... فحى ، بوبلها ، ربعا وحيا
يشوقك أن يهب نسيم نجـــد ... فيروى عن أهيل الحى ريا
ومنها : ولى رشـــأ أريت الناس رشدا ... ، على كلفى به ، والرشد غيا
إذا نشرت محاسنه لعينى ... طويت ، على هواه ، القلب طيا
فقـل لمنى ، جهرا ، عليه : ... لقد أسمعت لو ناديت حيا .

سيدى يامحمد باشا

وكان محمد باشا خسرو، وقد تحدثنا عنه منذ قليل ، واليا صارماشديد القسوة. ولـكن صرامته وقسوته كانت حربا على أرباب المهن والمتاجر الذين أسرفوا فى زيادة الأسعار ، وأفحشوا فى نهب الناس والاستبداد بهم فى البيع والشراء . فقتل منهم راغب باشا عددا غير قليل . وقطع رأس كبيرين من المتصرفين فى أمور البيع والشراء والرقابة عليهما . وثقب آذان بعض الجـزارين وعلق فيها اللحم . وكانت الجند فى عهده توقع الأذى بالضعفاء من الناس . وتعترض النسوة فى سيرهن . فأخذهم على ذلك بالشدة البالغة . وأطلق عليهم الرقباء والجواسيس يتعرفون سيرهم وعدوانهم . وقتل بعض المعتدين منهم . وكذلك من اللصوص . فأمن الناس وسارت النسوة فى الطرقات لايخشين شيئا . وعاد الفلاحون والتجار للبيع والتجارة فى القاهرة . وظهر ماكان مختفيا من اللحم والخبز والبضائع والأطعمة . ووجد الناس من ذلك أمنا ورخاء وصاروا يترنمون بذكر الوالى فى القاهرة والريف .

ووضعوا فى ذلك أنشودة يغنونها فى الأسواق ويرددها صبيانهم وهى .

سيـــدى ، ياحمد باشـــا ، ياصاحب الدهب الأصـــفر

وقد تحدثت عن الولاة الأتراك فى هذا الفصل ، وعنوانه «أيام المماليك» . لأنى أكتب عن عهود لا عن طوائف . وكان هذا العهد كله فعلا من عهود المماليك وأيامهم . ولأن الحديث عن هؤلاء الولاة لايستحق أن يفرد له فصل مستقل .

مثل من حياة المماليك

وقبل أن أنتقل من هذا الحديث إلى تراجم المماليك ، أجد من الخير أن أذكر بداية ملخصة لحياة واحد منهم ، هو يوسف باشا ، حاكم الشام . وهو وإن لم يحكم مصر . فقد كان مملوكا ، تصور نشأته ، وبصور صباه ، حياة أشباهه من هؤلاء المماليك .

هرب يوسف هذا من أهله — ولا يعرف له أهل ولا وطن — وهو فى سن الخامسة عشرة . فلما وصـل مدينة حماة اشتغل ببيع السرجين وروث البهائم ، والحشيش . ثم التحق بخدمة رجل اسمه ملاّ حسين . فأعجب به وقدمه ، وألبسه قلبقا[1] ، وانتقل بعد ذلك لخدمة آخر ، تعلم عنده الفروسية وفنون الحرب والرماحة . وكان يلعب القمار يوما فخسر ، ورأى من الخير له أن يهرب ، فسار إلى غزة على جواد أصيل . ورأى حاكم غزة هذا الجواد فطلبه من يوسف ، فقال له إن قلدتنى وظيفة كبيرة أعطيته لك . فعزل حاكم غزة بعض عماله ، وجعل يوسف مكانه ، ونال فرسه الأصيل .

وبدأ يوسف بعد ذلك يتدرج فى المناصب الـكبيرة ، ويتصل مرة بأحمد باشا الجزار — الذى رد نابليون عن أسوار عكا — ويتصل أخرى باعدائه . ثم يعود فيخدمه ثانية . وهو فى كل حروبه ووقائعه يظهر من الفروسية والشجاعة مايحيِّر ويعجب . حتى بلغ خبره السلطان فأعطاه ولاية الشام . ثم غضب عليه لانحيازه لـكبير الوهابية فى الحجاز . فأمر بعزله وقتله ، وحزّ رأسه وإرساله اليه فى اسطنبول . ولـكن يوسف باشا استطاع أن يفر إلى مصر ليحتمى بمحمد على ، فأكرمه هذا وأنزله فى بيت فسيح . وخصص له طعاما وافرا ومالا وخدما . وشفع له عند

(١) غطاء للرأس كان يلبسه أهل القوقاز

السلطان حتى عفا عنه . وبقى فى مصر ست سنوات أصيب فيها بالرئة . ثم مات فى ذى الحجة من سنة ١٢٣١ . وعندما كان هذا المملوك حاكما على الشام ، أراد أن يقوم بكثير من الإصلاحات ، ولكنه لم يستطع .

يقول الجبرتى إنه ، بعدأن استتب له الأمر ، سلك طريق العدل فى الأحكام، وأقام الشريعة والسنة ، وأبطل البدع والمنكرات واستتاب «الخواطى » — أى بنات الهوى المحترفات — وزوجهن . وطفق يغدق الصدقات على الفقراء وأهل العلم ، والغرباء وابن السبيل . وأمر بترك الإسراف فى المآكل ، والمشارب ، والملابس . وشاع خبرعدله فى النواحى . ثم يقول إن هذه الإصلاحات التى قام بها يوسف باشا لم تفلح ، ولم يرض عنها الناس ، لأنهم لم يستطيعوا ترك مألوفهم .

أرض الأحلام

ومن الخير أيضا أن أذكر قصة لم يذكرها الجبرتى . بل رويت قبله بسنين طويلة . ولكنها تدل على ما كان عند هؤلاء الصبية من المماليك ، من الطموح . وما كان يراودهم من الأحلام والأمانى عندما يولون وجوههم شطر مصر من بلادهم المختلفة المتباينة . تلك القصة التى رواها المؤرخون عن الأشرف قايتباى ، وخلاصتها أنه كان له رفيق عندما قدم به تاجر الرقيق إلى مصر . وفى ليلة ما — وهما يركبان بعيرا يسير بهما إلى أرض الأحلام ، وكان القمر فى هذه الليلة بدرا ، والليل ساكن ساحر ، قال أحدهما لصاحبه : ليدع كل منا دعاء ، لعل الله أن يقبله فى هذه الليلة الصافية . فقال أولهما : أنا أطلب من الله أن أكون أميرا كبيرا . وقال ثانيهما — وكان هو قايتباى — أنا أطلب من الله سلطنة مصر . وقد حقق الله لكليهما ما تمناه .

وسواء أكانت هذه القصة صحيحة أم مختلقة ، فهى تصور ما كان لهؤلاء المماليك من صفات الإقدام والجرأة والطموح . التى حققوا بها ، وبشجاعتهم بعد ذلك ، كثيرا من مطامعهم وأحلامهم .

محاولات للقضاء على المماليك

ومع أن محمدا عليا هو الذى قضى على المماليك ودبر لهم مذبحة القلعة . لأنه وجد أن تمكنه من حكم مصر لن يكون مادام هؤلاء فيها ، فإنه كان يرى أنه فى حاجة اليهم . فقد صدر فرمان من السلطان فى سنة ١٢٢٤ يأمر محمدا عليا بمنع بيع المماليك ، منعا باتا ، وعقاب من يفعل ذلك بأشد عقوبة . ولكن محمدا عليا التمس أن يسمح له بشراء بعضهم . فأذن له السلطان فى شراء عشرين منهم فقط ، مرة واحدة[1] . وقدم كثير من السلاطين، فى اسطنبول، بالقضاء على المماليك . وجردوا عليهم الجيوش، ولكنها لم تستطع ذلك، حتى إذا هزمتهم ، لأنهم كانوا يفرون إلى الشام أو إلى الصحراء ، أو الصعيد . ثم يعودون مرة أخرى إلى القاهرة وتعود لهم السيادة والسلطة . وأراد السلاطين أكثر من مرة القضاء عليهم بالغدر والمخادعة ، فلم يمكنوهم .

أراد حسن باشا القبطان، بعد خروج الفرنسيين من مصر ، ورجوعها إلى حكم الدولة ، أن يغدر بالمماليك . فدعا أمراءهم إلى سفينته . فلما سارت بهم — وكان أحضر جندا لقتلهم — أمر المماليك بنزع سلاحهم، فأبوا ، ورفعوها فى وجوه القوم. وجرت معركة قتل فيها سبعة منهم ، وأسر عدد آخر . واستغاث المماليك بالإنجليز فأغاثوهم . وأوشكت الحرب أن تقع بينهم وبين العثمانيين ، بسبب هذا الغدر للمماليك ، وكانوا إذ ذاك أصدقاء الانجليز وحلفاءهم ، واستطاع الإنجليز أن يطلقوا سراح الاسرى من المماليك وأن يأخذوا جثث قتلاهم حيث دفنوها فى مراسم عسكرية فخمة .

وفى الوقت الذى كان حسن باشا القبطان يحاول فيه الفتك بهم فى الاسكندرية كانت تدبر لهم المكايد فى القاهرة ، ولكنها لم تفلح وأعانهم الإنجليز أيضا على الخلاص منها .

---

(١) ص ٢١٦ ج ٢ من كتاب تقويم النيل لأمين باشا سامى .

وقد كانت بين المماليك والإنجليز صلات ومعاهدات ، في هذه الفترة ، للتغلب على محمد علي . وسنجد ذلك في ترجمة محمد بك الألفي . لأنه كان موجه هذه السياسة ، وصاحبها .

حياة المماليك

ومن الظواهر الاجتماعية العجيبة في حياة المماليك ، عدم ولائهم للأسرة . أو شعورهم بالعاطفة الطبيعية نحو الآباء . فلم يكن ولاء الابن منهم موجها نحو أبيه . بل ولاؤه لسيده ، فهو يخلفه من بعده . فيصبح ولي أسرته القائم على رعاية شئونها . وكثيرا ما يستولي على ثروته ، ويضم زوجات سيده إلى حريمه . وإذا قتل مملوك أومات . تؤول بيوته ، وأمواله ، وأمتعته ، وجواريه ، ومماليكه وأطفالهم ، وأطفاله أيضا ، وكل ما يملك ، إلى سيده . أو إلى من قتله ، إذا كان قويا قادرا ، أو إلى الحكومة ، عند ما توجد حكومة ذات سلطة ، تضم ذلك كله إلى «بيت المال» . وكانوا كذلك لا يرغبون في الزواج ، وتكوين أسرة . وهذا طبيعي في مثل الظروف والأحوال التي أجملنا ذكرها من قبل . فإذا تزوجوا فمن أبناء جنسهم ، لا من المصريين ، ومن شذ عن هذه القاعدة — وهو نادر الوجود — وتزوج مصرية ، فإن أبناءه منها أصبحوا — في عرفهم — لا يليقون لحياة الجندية ، ولا للإدارة ، وكان عبد الرحمن الكخيا ، من مماليك علي بك الكبير ، من هؤلاء المولدين .

وكانت حياة المماليك هذه ، وفرص الثراء والسيادة والسطوة التي تتاح لهم ، مغرية لكثير من المغامرين على أن ينتسبوا اليهم ، ادعاء ،

ففي ترجمة الأمير عبد الرحمن أغا — مات في سنة ١١٩٢ — أن الخدم الأتراك الذين كانوا يعرفون «بالسراجين» شكوا من قسوته عليهم . لحدته في ذلك أمير كبير . فقال له عبدالرحمن : إن السراجين أقبح خلق الله ، وأشدهم إضرارا بالناس ، وأكثرهم نصارى يدعون الإسلام ، ويدخلون في خدمة المماليك ليتوصلوا بذلك إلى إيذاء المسلمين . وإن شككت فيما أقول ، أعطني إذنا بالكشف عليهم

لأ ميز المختتن منهم من غيره ، فأذن له · فلما عرفوا ذلك ، لم يبق منهم ، في اليوم التالي ، سوى عدد قليل ، وهرب أكثرهم قبل افتضاح أمره ·

وقد ذكر الجبرتي عن عبد الرحمن أغا هذا قصة طريفة . خلاصتها : أنه كان يناصر «محمد بك أبو الذهب» · وكان يناصره أيضا أيوب بك. فتعاهدا على الإخلاص وأقسما على القرآن والسيف . ولكن أيوب بك خان عهده · فأمر أبو الذهب بأن تقطع يد أيوب بك ولسانه ، جزاء خيانته وغدره · واختار صديقه عبد الرحمن لتنفيذ أمره هذا. فلما جيء له بأيوب بك ومعه الجلاد ، أدى له تحية «التمني» المعروفة في الآداب التركية ، وهي تشبه الركوع ، ثم قال له ، بكل تعظيم وتفخيم : ياسلطانم أخوك أمر فيك بقطع اليد ، واللسان · فلا تؤاخذني فإني عبدكم ومأموركم. ولما أخذ الجلاد في قطع لسانه ويده ، كان عبد الرحمن أغا يقول له ، أرفق بسيدي ولا تؤلمه ..!

آخر أيام المماليك

هؤلاء المماليك ، أصحاب الشجاعة والفروسية ، والإقدام والبطش ، وأصحاب الحيلة ، والذكاء ، والطموح ، والجرأة ، وما ذكرنا من صفات وخصائص . استطاع محمد علي أن يخدعهم ، ويوقع بكثير منهم في مذبحة القلعة [1] . وأن يطارد من نجا منهم إلى الصعيد ، أو السودان. وقد طال عليهم الأمد في الغربة والحرمان · حتى نجد في حوادث شهر ربيع الثاني من سنة ١٢٣١ حديثا يذكر فيه الجبرتي نهاية أيامهم ، وتوسلهم إلى غريمهم ، محمد علي ، وإباءهم ما عرضه عليهم ليعودوا إلى مصر . فيقول ما خلاصته : —

وفي أواخر هذا الشهر حضر مملوك يسمى سليم كاشف ، قادما من عند بقايا الأمراء وأتباعهم ، الذين رماهم الزمان ، وأقصاهم وأبعدهم عن أوطانهم . فأقاموا في دنقلة بالسودان يأكلون مايزرعونه بأيديهم من الدُّخن [2] والذرة . وبينهم وبين الصعيد نحو أربعين يوما · وقد مات أكثرهم ومعظم رؤسائهم ، وانقطعت أخبارهم

(١) فصلنا ذلك في الجزء الثالث من الكتاب .

(٢) في دائرة المعارف للبستاني أنه نبات يصنع من حبوبه خبز يؤكل كالأرز .

حتى عن أهل منازلهم . فلما طالت عليهم الغربة أرسلوا هذا الرسول بكتاب إلى الباشا ، محمد على ، يستعطفونه ، ويسألون فضله ، ويرجون مرحمته ، بأن ينعم عليهم بالأمان على نفوسهم . ويأذن لهم بالحضور من دنقلة إلى مصر ، يقيمون بهـــا ويتعيشون فيها بأقل العيش ، تحت أمانه ، ويدفعون مايجب عليهم من الضرائب التي يقررها . ولا يتعدون مراسمه وأوامره . فلما حضر سليم كاشف قابل الباشا فسأله عن حالهم وشأنهم ، ومن مات منهم ومن لم يمت . وأقام الرسول بعد ذلك أياما ، ثم سلم إليه محمد على جواب الرسالة التي قدم بها من الأمراء . وكان جوابه عليهم أنه يقبل حضورهم على شروط . منها أن يرسلوا أمامهم طليعة تخبره بحركاتهم وانتقالاتهم قبل أن يتحركوا ، حتى يبعث اليهم من يتلقاهم ويرافقهم . وأنهم إذا دخلوا أرض مصر ، لايأخذون من أحد شيئا ، حتى «ولا دجاجة أو رغيفا» بل الذى يرسله محمد على لمرافقتهم ، هو الذى يتولى إطعامهم ، ومصروفهم ، وعليق دوابهم . وألا يقطعهم أرضا ، وألا يقيموا فى أى مكان خارج القاهرة . بل يقيمون عنده ، وينزلون على حكمه . ولكل واحد منهم مايليق به من المسكن ، والمأكل ، والتعيين ، والمصروف . ومن كان ذا قوة قلده منصبا ، أو خدمة ، أو ضمه إلى بعض خاصته . ومن كان ضعيفا أو هرما أجرى عليه نفقة لنفسه وأهله . وعاد الرسول بهذا الجواب ثم لم يرجع ، ولم يعد أحد من الأمراء على هـــذه الشروط التى شرطها محمد على ، ولم يرضوها .

ويقول الجبرتى بعد ذكره لهذه الرسالة وجوابها : إن من العبر أن الأمراء عند ماعادت لهم السيادة والحكم ، بعد خروج الفرنسيين ، وقتل طاهر باشا «كانت عساكر الأرناك فى خدمتهم ، ومن أرذل طوائفهم . وكانت علائفهم تصرف عليهم من أيدى كتابهم وأتباعهم ، وإبراهيم بك هو الأمير الكبير ، وراتب محمد على هذا ، من الخبز واللحم والأرز والسمن ، الذى عينه له إبراهيم بك ، يصرف من مطابخه» .

ونرى فى ترجمة إبراهيم بك أنه قد طال به العمر واشتدت عليه المحنة فى دنقلة ، حتى كان يزرع الدخن ويقتات به ، ويلبس قمصان الجلابة .

وكان هؤلاء المماليك ضعفاء الإدراك للأمور العامة . لا تتجاوز نظرتهم حدود مصر أو حدود الدولة العثمانية ، على أكثر تقدير . لا يحيطون بسياسة الدول ولا بما جد فى العالم من آراء ومخترعات . لذلك عندما وقف أمامهم نابليون ، هاله مظهرهم ، ومنظر جيشهم وخيلهم ، فلما حاربهم لم يصمدوا أمام مدافعه إلا أقل من ساعة ، فى موقعة إمبابة . ولم يوجد بينهم من كان على إدراك حسن للأمور العامة سوى على بك الكبير ، ومحمد بك الألفى . أما أولهما فقد أفاد من العداوة التقليدية بين روسيا وتركيا ، واستعان بالأولى على استقلال مصر ، والانفراد بحكمها . وأراد الثانى أن يفيد من الصداقة التى كانت قائمة بين انجلترا وتركيا ليصل إلى مثل ذلك أو قريب منه ، وسنجد هذا وذاك فى ترجمتهما . وكان ضعف إدراكهم هذا من أسباب القضاء عليهم .

من أثر القضاء على المماليك

وقبل أن ننتقل من ذكر خصائص المماليك ومميزاتهم ، إلى تراجم عظمائهم . نقف وقفة لابد منها لنتدبر بعض الآثار التى ترتبت على إفناء المماليك وخلو الحياة المصرية العامة من وجودهم ونفوذهم . وقفة نلخص فيها ما نعتقد أنه كان أثراً من آثار مذبحة القلعة ، فى حياة مصر السياسية والقومية .

ولست هنا بسبيل الحديث عن المماليك ، وأثرهم فى حيـاة مصر العامة . ولا بسبيل الحكم على سلوكهم فى حكم البلاد ، وإدراكهم لمسئولية الحكم عندما كانت مصر تحت سلطانهم ، فذلك كله حديث لا شأن لنا به الآن . ولكن الحديث خاص بأثر هذه المذبحة فى حياة مصر السياسية والقومية .

وقد يتعجب البعض من ذكر «القومية» فى هـذا المجال . ولكن هناك عاملان تاريخيان يجب ألا نغفلهما . نذكرهما بغاية الإيجاز ، لنزيل هذا التعجب الذى قد يتبادر إلى ذهن البعض . العامل الأول : أن المماليك — على رغم ما لقى منهم المصريون من شر ، وعلى رغم أنهم لم يولدوا فى مصر — كانوا يرون أنفسهم مصريين لا وطن لهم غير مصر ، وكان المصريون يرونهم كذلك . كما رأينا فى هذا الفصل

منذ قليل . والعامل الثانى : أن الدولة كانت ، فى أول عهــد محمد على ، منعت استجلاب المماليك إلى مصر ، وحرمت بيعهم فيها ، وقد رأينا هــذا وذاك من قبل، فكانت النتيجة المحتومة لذلك — ولو بعد فترة طويلة — لو لم يقض على المماليك ، أن ينصهر من بقى منهم فى الحياة المصرية ، وأن يكون مجال نشاطهم العام والخاص فى حــدود القومية المصرية . ومن هنا كان استئصالهم فى مذبحة القلعة ذا أثر كبير فى تكوين هذه القوميــة ونشاطها وحدودها . كما كان له أثر فى الحياة السياسية لمصر ، وأستطيع أن أقول : إنه أثر كبير . ولعل محمدا عليا قصد هذا وذاك ، عندما أقدم على جريمته معهم .

ولئن أراحت هذه المذابح المنكرة محمدا عليا من خصوم كان يخشى خطرهم ، وسنناقش هذه الحجة أيضا ، فقد خسرت مصر بفقد هذه الطبقة من الرجال خسارة كبيرة . فقد كانت الأوضاع العامة ، ومزايا المماليك التى لا تنكر ، وتوزيع الثروة . كان ذلك كله ، إلى جنب اعتراف المصريين بانفراد المماليك بالتصرف فى الشئون العامة وتدبيرها ، مع العثمانيين . كان هـــذا وذاك كفيلا بأن يجعل من المماليك قوة موازنة تحــد من سطوة محمد على وبطشه إذا انفرد بالحــكم .

كان بقاء هذه الطائفة من المماليك — على رغم ما كان فيهم من ســوء — كفيلا بإيجاد طبقة لها من المواهب ، ومن الثراء ، ومن القوة ، ومن ماضيها فى الحــكم والسيطرة ، ما يجعلها شبيهة بطبقة النبلاء فى إنجلترا . وكانوا ، كما قلنا ، سيجدون أنفسهم بحكم انقطاع الصلة بينهم وبين بلادهم ، وانقطاع بيع أجناسهم فى مصر ، أنه لامعدى لهم عن الاشتغال بشئون الحياة المصرية العامة . أى بسياسة الأمة . بل كان محمد على يستطيع — لو أنه كان يريد لمصر حياة كريمة ، لا أن ينفرد فيها بالسلطان المطلق — أن يجعل منهم برلمانا ، أو مجلسا للمشورة وتدبير الرأى فى المسائل العامة . وكان اندماج هذه الطائفة من المماليك فى الحياة المصرية على مدى الزمن ، كفيلا أيضا بإيجاد «الطبقة المتوسطة» التى نعتقد أنها لم تــكن موجودة فى حياة مصر إذ ذاك ، والتى هى عماد الحياة العامة لــكل أمة ، وكانت

هذه الطبقة المتوسطة ستجمع بين خصائص الشعب المصرى من النشاط ، والصبر ، والجلد على العمل ، والذكاء . وبين خصائص المماليك من الشجاعة ، وقوة البأس ، والصلابة . إلى جنب مواهب أخرى نفسية ، وجسمية ، ومظهرية .

هذه الآثار فى حياة مصر السياسية والقومية . كان لابد من وقوعها — على ما أعتقد — لو أن محمدا عليا أبقى على المماليك .

بقى القول بأن القضاء على المماليك ، كان أمرا لابد منه ليتمكن محمد على من حكم مصر . ولنترك ما فى هذا التعليل من دواعى الأنانية ، وأنه لايبرر هذا الغدر ولا هذه الجريمة . لنترك ذلك لنقول إن محمدا عليا لم تكن به حاجة للإقدام على هذه الجريمة . فقد كان كبار المماليك الذين يخشى محمد على منافستهم له فى حكم مصر أربعة : مرادا ، وإبراهيم ، والألفى ، والبرديسى . أما مراد ، فقد مات بالطاعون قبل خروج الفرنسيين من مصر ، أى قبل أن يسعى محمد على لتملكها . وأما إبراهيم فقد كان طريدا خارج القاهرة ، قليل الحول ، ضعيف الحيلة . ومات الألفى ، ألد خصوم محمد على وأقواهم ، فى يناير سنة ١٨٠٧ . ومات البرديسى قبله بنحو شهرين . أى أنهما ماتا قبل مذبحة القلعة بأربع سنوات وشهرين ، أو أربعة . أما من بقى من المماليك ، غير هؤلاء ، فقد أرضى محمد على بعضهم بالمال والمصاهرة ، واستخدمهم فى القاهرة ، تحت رقابته ، أو فى بلاد لا يخشى فيها لهم خطر . ومن بقى بعد ذلك ، لم يكن من الخطر ، ولا من القوة ، وكثرة الأتباع والأموال ، بحيث يخشى منه محمد على ، على سلطانه . وكان بيعهم قد منع ، كما ذكرنا ، فلن يتقووا بغيرهم .

على أنا نسجل رأيا نعتقد أنه حق : وهو أن مذبحة القلعة ، والقضاء على المماليك ، كان لهما أثر سيىء ، بل كبير السوء ، فى حياة مصر السياسية والقومية . ولا تمنينا بعد ذلك الدوافع التى أقدم بسببها محمد على على هذه الذبحة . ولا المبررات

التى برَّر بها مؤرخوه ذلك . ونحن نعرف كيف كتب هؤلاء المؤرخون تاريخ محمد على .

فعندما أتم محمد على القضاء على المماليك ، واستأصلهم . قضى ، فى الوقت نفسه ، على الطائفة التى كانت ظروف مصر إذ ذاك ، كما كان وضع هذه الطائفة الخاص ، تجعل منها الأداة الوحيدة لإيجاد توازن فى الحياة السياسية ، وإيجاد شىء من الرقابة والهيمنة — أو المشاركة — فى تبعات الحكم . لذلك سهل على محمد على بعد ذلك التخلص من السيد عمر مكرم ، زعيم القومية المصرية إذ ذاك ، عندما بدأ عمر يعارض محمدا عليا ، باسم الشعب ، وباسم المواثيق التى أخذت عليه عندما تولى الحكم .

عظماء المماليك

الأمير إيواظ بك

إسمه «عوض» بك ، ولـكن الأتراك، والمماليك لايستطيعون أن ينطقوا حرفى العين والضاد ، فحرف اسمه إلى «إيواظ» . كان من أمراء الجراكسة القاسمية . بل كان أشهرهم وأعظمهم شأنا . تولى الإمارة فى سنة ١١٠٧ . وفى سنة ١١١٠ أرسل السلطان فرمانا إلى الوالى فى القاهرة بتأديب رجل من العرب اسمه عبدالله وافى المغربى كان قد تغلب على حكم الصعيد . فجمع الوالى الأمراء ، واتفق الجميع على تجريد حملة على هذا المتغلب ، يكون قائدها إيواظ بك . وخرج هذا ، ومعه ألف جندى ، بعد أن أنعم عليه الوالى بخلعة ، ولـكنه عرف بعد أيام أن خصمه جمع جيوشا كثيرة . فأرسل إلى القاهرة يطلب مددا . فجمع الوالى الأمراء واتفقوا على أن يمدوه بجند آخر ، يقوده خمسة من الأمراء . وخرج هؤلاء الأمراء بمددهم إلى الجيزة فبقوا فيها أياما . ثم جاءهم الخبر بأن إيواظ بك حارب المغربى وافى وجنده الـكثيف ، فهزمه ، وتفرقت جموعه . ثم تتبعهم حتى أضعف شوكتهم . وعاد بعـد ذلك فدخـل القاهرة فى موكب حافل يحمل رؤوس القتلى . ثم صعـد إلى القلعة فأنعم عليـه الوالى وعلى كبار جنده . ونزلوا إلى بيوتهم فى أبهة عظيمة . وأرادت الدولة بعد ذلك تجريد حملة على الحجاز لعزل شريفها سعد ، وتنصيب الشريف عبدالله مكانه . واختير إيواظ بك ، أميرا للحملة وحارب الشريف سعدا فغلبه . وأجلس عبدالله مكانه ، كما أرادت الدولة . ثم بقى فى مكة إلى أن أدى فريضة الحج . فأنعم عليه السلطان بإمارة جدة . كما اختاره أميرا للحج .

وجرت بين الأمير إيوظ بك وبين خصومه حروب قاسية . أصيب فيهـا برصاصة طائشة قاتلة ، وهو على ظهر جواده . بعد أن هزمهم ، وفروا أمامه .

كان إيواظ بك شجاعا مقداما ، فيه شهامة ، وتصميم . عندما خرج من بيته

لهذه الحرب التى قتــل فيها ، اشتبك الزراق الذى يحمله تابعه فى سقف الباب فكسر . وقال له أنصاره إن كسر الزراق فأل سيء ، وأرادوا منعه من الخروج فقال لهم : لعلى إذا مت فى الحرب ينصلح الحال ، وأخذ مزراقا آخر . ثم خرج للحرب ، ولما قتل ، فى سنة ١١٢٣ ، حزن عليه الناس . وقال شاعر العصر الشيخ حسن البدرى الحجازى شعرا يرثيه .

ولــكن الناس وجدوا بعد موته عزاء فى ابنه الأمير إسماعيل بك .

إسماعيل بن إيواظ

كانوا يسمونه الأمير السعيد ، الشهيد . وقد ذكرنا من قبل طرفا من أخبار مروءته ونبل نفسه . وكانوا يصفونه بالأمير المعظم ، والملاذ الأفخم ، نشأ فى بيت أبيه إيواظ بك ، فى رفاهية وسيادة . وكانت النساء تسميه — لفرط جماله — قشطة بك . فلما قتل أبوه ، اختير للإمارة بدلا منه . وكانت سنه يوم نصب أميرا ، ست عشرة سنة . ولــكنه كان لهذه الإمارة أهلا وكفؤا .

جلس أمراء أبيه وأتباعه ، فى حيرة من أمرهم ، وحزن ، بعد قتل كبيرهم وسيدهم . ثم نظر بعض الجالسين إلى كبير من الأمراء ، هو قيطاس بك ، فرآه يبكى . فقال له : لاتبك على سيدنا ياقيطاس بك . بل نختار ابنه هذا — وكان إسماعيل جالسا معهم — أميرا علينا بدل أبيه . واتركوا لى أنا إمارة الحج ورياسة الجند ثم نحارب أعداءنا . والله يعطى نصره من يشاء .

وانتهى الرأى إلى ذلك . وكان الفريقان المتحاربان قد جعلا بينهما — بعد قتل إيواظ بك — هدنة ثلاثة أيام ، ثم يستأنفان الحرب . وفى هــذه الأيام الثلاثة استطاع إسماعيل بك وأنصار أبيه أن يجمعوا شملهم . فلما عادت الحرب تغلبوا على خصومهم . حتى قتل منهم من قتل . وهرب من هرب خارج القاهرة ، وشتتوا فى البلاد . واستقر إسماعيل بك أميراً لمصر ، بالإشتراك مع نصيره قيطاس بك ، وإبراهيم بك أبو شنب . ولــكن أولهما لم يكن مخلصا لإسماعيل بك ، بل

كان يناً كده ، ويكيد له . حتى جاء الوالى عابدى باشا فأحب إسماعيل وأعجب به إعجابا شديدا ٠ وأراد أن يريحه من خصمه وشريكه قيطاس بك ، فقتله ٠ ثم جاء أمر السلطان بتولية إسماعيل بك إمارة الحج . فلما سار بالحجيج ، حفر كثيرا من الآبار والعيون فى طريقه ، ومهد كثيرا من الطرق إلى البلاد المقدسة ٠ وكان ذلك سببا فى اختياره ، أكثر من مرة ، لهذه الإمارة . ثم مات شريكه الآخر إبراهيم بك أبو شنب فتحرك عليه حقد كبار المماليك وحسدهم . وجاهره محمد بك جركس بالخصومة حتى نصب له كمينا أطلق عليه النار وهو فى طريقه إلى الديوان ، ولكنه لم يصبه ، ثم هزم جركس بك ، وانتاده أنصار إسماعيل بك إليه ، فكان من عفوه عنه ما روينا من قبل فى هذا الفصل . وأبى أن يسمع نصيحة الناصحين بقتله .

ولما لم يستطع خصومه قهره علانية فى القاهرة . سعوا سعيهم ، وبذلوا أموالهم فى اسطنبول ، حتى أمرت الدولة باختيار رجب باشا واليا على مصر ، على أن يقتل إسماعيل بك ، وعابدى باشا نصيره . ويقول الجبرتى : إنهم رشوا رجال الدولة العثمانية بأربعة آلاف كيس [1] حتى نالوا هذا الأمر ٠ وأعموا سعيهم بإخراج جركس بك من منفاه فى قبرص ، وإدخاله القاهرة سرا ٠ وخرج إسماعيل بك فى هذه السنة — ١١٣١ — أميرا للحج أيضا . وفى غيبته قدم الوالى الجديد . وقتل عابدى باشا — كما أشرنا من قبل — وأظهر جركس بك نفسه من مخبئه فأرسل طائفة من أمرائه ، وجنده ، لقتل إسماعيل بك ، وهو فى طريقه إلى القاهرة . ولكن رجلا أمينا تطوع بسبقهم ، وأسرع فأخبره بما كان ، ونصحه بالهرب ، فدخل القاهره مختفيا . ثم أظهر نفسه فجأة فى مجلس كان فيه خصمه وعدوه جركس بك . فذكر هذا ما كان من عفوه عنه وصفحه وإكرامه . ثم اتفق الجميع على أن يعزلوا ذلك الوالى الذى قدم للفتك بإسماعيل بك ، والذى قتل سلفه وسلخ رأسه . وقد عزلوه فعلا ، وأنزلوه من القلعة وحاسبوه على الأموال ٠ ثم سافر إلى إسطنبول ٠

---

(١) الكيس ٥و١٢ ألف فضة : وهو يساوى نحو أربعين جنيها بالعملة الحالية .

ولكن هذا كله لم يرض جركس بك ، ولم يشف ما فى قلبه من الحقد على ابن سيده ، إسماعيل بك ، فظل يماكسه ويناكده ويكيد له ، وهو يقابل ذلك بالصفح والتسامح . وانتهى الأمر بأن دبر جركس ورجاله قتل إسماعيل بك غدرا . فأدخلوا عليه رجلا يقدم إليه ورقة يشكو فيها من أمر . فلما أخذ يقرؤها طعنه واحد منهم بخنجر . ووثب آخرون على رجاله فقتلوا طائفة منهم . وكان ذلك فى سنة ١١٣٦ وسنه إذ ذاك ثمانية وعشرون عاما · ويقول الجبرتى: إن الأمير إسماعيل بك «كانت أيامه سعيدة وأفعاله حميدة ، والإقليم فى أمن وأمان ، من قطاع الطريق وأولاد الحرام» وأنه كان صاحب عقل ، وتدبير ، وسياسة ، وفطانة ، وفراسة . وقد ذكرنا من قبل طرفا من حيلته ومروءته . وهو الذى جدد سقف الجامع الأزهر ، وكان آيلا للسقوط ، وأنشأ مسجدى السيد إبراهيم الدسوقى ، والسيد على المليجى ، وعمائر أخرى . ولما تم بناء مسجد المليجى ، ذهب ليراه ، ثم سافر إلى طنطا · ولم يخش تدبيرات خصومه فى القاهرة ودسائسهم · مع أن عدوه جركس بك ، رغم شجاعته ، لم يخرج من القاهرة ، منذ أظهر نفسه فيها . وقليلا ما كان يترك بيته ·

وكأن إسماعيل بك أراد أن ينفرد بحكم مصر ، من دون غيره من المماليك . بل لعله أراد أن يستقل بها ، كما فعل على بك الكبير بعد ذلك بوقت غير طويل . فقد استكثر إسماعيل من شراء المماليك ، واستخدامهم · وشجع على استجلابهم حتى غلا ثمنهم ، ونشط تجارهم نشاطا كبيرا لجلبهم من البلاد وبيعهم له . واختار للمناصب الهامة ، وكبريات الوظائف ، جماعة من أنصاره ومماليكه ومماليك أبيه . ومكّن لنفسه عند رجال الدولة فى إسطنبول ، واستطاع أن ينال رضاهم · أو يشتريه بالرشى والهدايا ·

وقد أوشك إسماعيل بك أن ينجح سعيه . واستطاع أن يكون صاحب الشوكة والكلمة الأولى فى مصر · حتى دس له خصومه عند رجال الدولة فى إسطنبول قائلين لهم : إنه لو ترك ، وبقيت له السلطة ، فسيخرج مصر كلها عن سلطان الدولة ،

ويخرج واليها من القاهرة مطرودا ، ويمتنع عن دفع ماللدولة من مال . وشفعوا نصيحتهم هذه بأربعة الآلاف كيس ، التي قدموها رشوة لرجال السلطان . ثم دبر له جركس بك ومن معه ، هذه القتلة الغادرة ، التي قضت على أحلامه ، وأمانيه ، كما قضت على شبابه وحياته كلها .

ولما مات هذا الأمير ، حزن عليه أهل مصر حزنا شديدا ، كما حزنوا على أبيه من قبل . وقيلت فيه المراثي الكثيرة ، ولما بلغ خبر موته الحرمين الشريفين ، حزن عليه أهلهما أيضا . وصلّوا عليه ، في الكعبة ، صلاة الغائب .

جركس بك

امتاز محمد جركس هذا ، منذ صباه ، بالشجاعة الفائقة ، والجرأة النادرة . كان سيده ، يوسف بك القرد ، يراه أقوى مماليكه جميعا ، وأشدهم بأسا ، وأعظمهم شجاعة . فلما مات يوسف بك أخذه إبراهيم بك أبو شنب ، وولاه منصبا كبيرا . ثم اختير بعد ذلك حاكما على جرجا ، وإقليم البحيرة . وكان حكم هذا الإقليم ، ومن فيه من العرب ، أمرا شاقا عسيرا . فتغلب جركس بك على جميع المشقات . وأخضع العرب وغيرهم لحكمه وأرغمهم على الطاعة .

وطلبت الدولة العثمانية إلى مصر ، أن تمدها بطائفة من الجند ، والمماليك ، ليعينوها في حروبها مع دول أوربا . فأجمع الوالي والأمراء على اختيار جركس أميرا على هؤلاء الجند ، وسافر معهم للحرب في سنة ١١٢٨هـ (١٧١٦)م ثم عاد بعد سنتين .

لم يرد جركس بك بعد عودته أن يظهر الطاعة للأمير إسماعيل بن إيواظ ، شيخ الأمراء في ذلك الوقت . فجمع حوله كثيرين من المماليك . وحارب ابن إيواظ ولكنه هزم ، وجيء به أسيرا ، فعفى عنه إسماعيل بك ، كما رأينا في ترجمته ، ونفاه إلى قبرص . ولكنه تسلل إلى القاهرة . ودخلها متخفيا في زي أحد الدراويش . وائتمر مع مماليكه بإسماعيل بك حتى قتلوه غيلة . وصار جركس أميرا وحاكما مطلقا .

عند ذلك ظهرت سجية جركس على حقيقتها . ووجدت نفسه سبيلها للظلم والقسوة والبغى :

اختار أنصاره من المخلصين له · الذين يتفقون معه فى صفات الظلم والقسوة · وجعل الوظائف الكبرى كلها فى أيديهم . وكان منهم اثنان : واحد اسمه الصيفى ، والثانى اسمه أحمد أغا ، المعروف بلهلوبة · أمعنا فى القسوة بالناس وإيذائهم حتى بلغا فى ذلك مبلغاً لم يُسبقا إليه . وكان سيدهم جركس يؤيدهم فى ذلك ، ويفعل مثلهم . وكان حوله ثلاثة عشر أميراً ، كلهم على شاكلته · كان رجاله وجنده يأخذون الأشياء من الباعة والفقراء ، ولا يدفعون ثمنها . ومن امتنع ، ضربوه ، أو قتلوه · وكانوا يخطفون النساء والأولاد · ويدخلون بيوت التجار ، فى ليالى رمضان ، فلا يتركونهم حتى يأخذوا ثياباً غالية ، ومالا · فكان التجار وأعيان القاهرة ، يدخلون بيوتهم ويغلقونها قبل الإفطار ثم لا تفتح إلا فى الصباح . ودخل اثنان من رجاله ، والناس فى صلاة التراويح ، على رجل من كبار التجار ، اسمه الخواجا لطفى النطرونى ، وكان كفيف البصر عظيم الثراء فقتلوه بالخناجر ، وهو جالس فى بيته . ثم سلبوه ماله . وجاء بعدهم الصيفى ، فأخذ ما بقى فى البيت من مال ومتاع ·

وذهب رجاله إلى النحاسين ، والصاغة ، وخان الخليلى ، والنورية ، والسكرية . فنهبوا ما عند تجارها من النحاس والذهب والفضة ، والأقمشة ، والسكر . وهجموا على النساء فى الحمامات العامة ، فسلبوا ثيابهن · ونزعوا ثياب كثير من الناس فى الأسواق ، ونهبوا ما معهم من المال . وقتلوا طائفة من أعيان القاهرة فى طريق بولاق ، وفى وسط المدينة ، فى وضح النهار ، وذهب الناس إلى العلماء يلتمسون منهم الوساطة عند الوالى حتى يدفع عنهم هذا البلاء . ولكن العلماء لم يذهبوا ولم يتوسطوا ·

وزاد طغيان جركس بك وجبروته . حتى امتنع من الصعود إلى الوالى فى القلعة ، وعن حضور الديوان مع بقية الأمراء ، وعن صلاة الجمعة . فلما كانت

سنة ١١٣٧ أبرز الوالى محمد باشا النيشانجى — وقد ضاق صدره من جركس — أبرز فرمانا من السلطان بعزل جركس وبادر بإبلاغه إلى الأمراء ، والعلماء ، ونقيب الأشراف . فلما علم جركس خبر ذلك ، طلب أن يحضر إليه الأمراء ، والعلماء ورؤساء الجند . وكان الوالى عند ما أبلغهم فرمان العزل ، أمرهم بعدم الذهاب إلى جركس . ولكنهم رأوا أن يذهبوا . وكان منهم الشيوخ : البكرى ، والسادات ، ونقيب الأشراف . فلما تكامل جمعهم ، أمر مماليكه أن يحيطوا بهم ، يحملون أسلحتهم . ثم قال لهم إما أن تكونوا معى ضد الباشا الوالى ، وإما أن أقتلكم جميعاً . فقالوا له : « نحن معك على ما تريد » ثم أمر فكتبت فتوى بعزل محمد باشا ، وقعها العلماء . وتركهم جركس فى مجلسهم ، وجنده يحيطون بهم ، بالسلاح . ولم يطعمهم طعاماً ، ولم يأمر لهم بأغطيـــة تقيهم البرد ، وكان بعضهم فى فناء البيت . ترك جركس الأمراء ، والعلماء ، ونقيب الأشراف ، على هذا الحال ؛ فباتوا ليلتهم . وأرسل بعض خاصته إلى الوالى فقال له : إما أن تعتزل أو تحارب ، فآثر الوالى أن يعتزل . ثم أمر جركس أن يكتب العلماء والأمراء كتاباً يقولون فيه : إن الوالى باع غلال الحرمين ، وغيرها من أموال الوقف ، فكتبوا ، ثم وقع على ذلك القاضى . وأرسل جركس هذه الوثائق كلها إلى إسطنبول . فأرسل سلطانها والياً جديداً إلى مصر . لم يؤد له جركس عند حضوره مراسم الاحترام التى اعتاد الولاة أن يلقوها .

واستطاع ذو الفقار بك الفقارى ، بعد قتل إسماعيل بك ، أن يجمع شمل رجاله ومماليكه . وأن ينهض لحرب جركس بك . وكانت بينهما وقائع انتهت بفرار جركس إلى الصعيد ثم إلى إسطنبول . وبعد فراره أمعن خصومه فى قتل مماليكه ورجاله . وأسرفوا فى التنـــكيل بهم حتى أفنوهم . وتسلطوا على بيته بالنهب والسلب ، فوجدوا فيه ثروة طائلة . وجدوا ألف رأس من الغنم . وألف قنطار من الحديد . وأشياء أخرى كثيرة ، أخذوها ، وهدموا البيت ونزعوا أبوابه ، ونوافذه ، قبل أن يمضى النهار .

وفى إسطنبول لقى جركس بك تكريماً ، وحفاوة ، تقديراً لما بذل فى الحرب إلى جانب جيش الدولة من قبل . وعرض عليه رجال السلطان رتبة الباشوية ،

وولاية من ولايات الدولة . فلم يرض إلا أن يعود أميراً على مصر . فأعطاه السلطان مرسوماً بالإمارة عليها . وقيل له إن استطعت أن تنتزع الإمارة من ذى الفقار ، فهذا مرسوم السلطان قد أعطيناه لك .

وعاد جركس إلى مصر . فنزل إلى جزيرة مالطة . وأنشأ فيها سفينة حملها بالذخيرة والمدافع وأدوات الحرب . واتصل بأنصاره فى القاهرة وغيرها ، ثم نزل فى الإسكندرية ، وتسلل ، عن طريق الصحراء ، إلى الصعيد . وحارب جيش ذىالفقار حتى غلبه . ثم أظهر مرسوم السلطان بإمارته على مصر . وانتقل بعد ذلك إلى الوجه البحرى . وكان ذو الفقار أعد له جيشاً عظيما . فلما كانت الحرب ، وجد جركس أنه مغلوب ، وأنه قد أحاط به أعداؤه من كل جانب . فنزل بفرسه إلى النيل ، ثم أراد أن يتركها ليصعد إلى الناحية الأخرى سباحة . ولكنه لم يستطع أن يتخلص من فرسه ، التى كانت تغرق . فغرق إلى جانبها . ثم أخذ خصومه رأسه ، فسلخوها ، وأرسلوها مع المبشرين إلى القاهرة . حيث كان أنصاره ينتظرون قدومه إليها منصوراً .

ولكن أنصار جركس بك كانوا قد تمكنوا من قتل ذى الفقار بك أيضاً . وكان بين قتل الخصمين العنيدين خمسة أيام . ولم يعلم أحدهما بمصرع عدوه .

وكان قتل جركس بك فى رمضان سنة ١١٤٢ (١٧٣٠)

عثمان بك ذو الفقار

أشرنا من قبل إلى عثمان بك هذا ، عند ذكر فضائل المماليك . وذكرنا طرفا من حيله ، وعدله ، وعفته عن أموال الناس ، وامتناعه عن الرشوة وقسوته على المرتشين ، ومن فروسيته ، حتى وهو شيخ كبير ، وحب الناس له ، حتى كانوا يؤرخون بسنة خروجه .

تولى عثمان بك ، صنجقاً وأميراً فى سنة ١١٣٨ ، كما تقلد مناصب كثيرة ، وكشوفيات[١] فى الأقاليم ، فى حياة سيده الأمير ذى الفقار . واستطاع عثمان

(١) الكاشف حاكم المديرية .

بعد قتل سيده أن يتغلب على خصومه من القاسمية · وأن يقتل منهم طائفة كبيرة ، بالاتفاق مع الوالى التركى محمد باشا النيشانجى ، وكان كلما أخذ الجنود أميراً من القاسمية أحضروه إلى الوالى فيرسله إلى عثمان بك ، فيأمر هذا برمى عنقه ،أمامه · وعظم نفوذه بعد ذلك · وجاء فرمان من السلطان باختياره أميراً للحج فى سنة ١١٥١ ثم سنة ١١٥٥ · فسافر وعاد فى أمن وأمان مع المحمل المصرى · وأحس بعد ذلك بقوته وسطوته ، فشمخ على الأمراء الآخرين · ونفذ أحكامه عليهم . وكان يسير فى الناس سيرة حسنة ، ويعدل بينهم ، وأمر بمنع الشهود الذين كانوا يقفون على أبواب المحاكم لشهادة الزور · وإذا اقتضى الأمر أن تفتش بيوت الأمراء والمماليك ، كان لا يتحرج من ذلك ، لإقامة العدل . ولم يكن يصادر أحداً فى ماله ، كما كان يفعل كثير من الأمراء · ولم يأخذ شيئاً من تركات الموتى ، مقابل تسليمها لوارثيها ، وكان ذلك فاشياً فى تلك الأيام · مات كثير من الأغنياء ، وأرباب الأموال العظيمة فى أيام إمارته ، فلم تطمع نفسه فى شىء من أموالهم . وكان لعدله وبطشــــه أثر كبير فى إقامة الأمن ، حيث خافته النـــاس فى مصر والأقاليم . وامتنع العرب عن قطع الطرق وسلب أموال الناس ، وقتلهم . وكان عالى الهمة ، حسن السياسة ، ذكياً طاهر الذيل شديد الغيرة على مصالح الناس · ولــكنه كان صلباً عنيداً . وصفه الشيخ حسن ، والد الجبرتى — وكان صديقاً حميما له — بأنه كان حاد الطبع . إذا قال كلاماً أو عاند فى شىء ، لا يرجع عنه أبدا · وقد اشتغل مع الشيخ حسن بمذاكرة الفقه والأدب· وكان لا يجالس إلا أهل الفضــل والعــلم · وعثمان ذو الفقار هو أول الأمراء المصريين ، الذين قبل الولاة العثمانيون ضيافتهم فى بيوتهم الخاصة . فقد كان الأمراء السابقون يقيمون الولائم للولاة فى قصور الدولة . مثل قصر المقياس، أو قصر العينى · ولــكن الوالى يحيى باشا قبل ضيافة عثمان بك فى بيته . كما كانت له على هؤلاء الولاة كلمة نافذة . حتى إنه منع صدور بعض الفرمانات التى عرضت عليهم لتوقيعها .

وبقى عثمان بك أميراً وحاكما ، نحو عشرين سنة . حتى ضاق به خصومه

واجتمعوا على حربه . واستطاعوا أن يفجؤوه بالقتال · حتى خرج من القاهرة مسرعا . ونزل بمسجد أبي الملا ، في بولاق . وتسلط خصومه على بيوته بالنهب والحريق فأخذوا أموالا عظيمة . حتى اغتنى بعض فقرائهم مما نهبه منها . وظلت النار تأكل بيوته يومين · ولم يلاحقه خصومه عندما ترك القاهرة لانشغالهم بالسلب · وفر هو إلى جرجا ، حيث كان حاكمها من أتباعه . ثم انتقل إلى السويس · ولم يشأ أن يعود لحرب أعدائه ، فسافر إلى إسطنبول حيث أكرمه رجال الدولة ، وأنزلوه في قصر فسيح ، وخصصوا لخدمته عدداً كبيراً من الخدم . وقابله السلطان وأكرمه · ثم سأله عن أحوال مصر وعن سبب خصومة الأمراء له · فقال عثمان بك للسلطان : خاصموني لأني أقول الحق وأقيم الشرع · ثم أرسل السلطان أمرا إلى الوالي في القاهرة بأن ترد أموال عثمان بك إليه .

ويبدو أن خصومه لم يتركوه متمتعا بعطف السلطان وتقديره · بل لا حقوه بالشكوى والخصومة . فقد أبعد عثمان بك من اسطنبول إلى بروسا ، فأقام بها سنتين . ثم أعيد مرة أخرى إلى إسطنبول . وبقي فيها إلى أن مات في سن التسعين ، نحو سنة ١١٩٠ . وكان خروجه من القاهرة سنة ١١٥٧ ، فكأنه بقي منفيّاً نيّفا وثلاثين سنة .

وكان عثمان بك عنيدا ، شديد الخصومة ، في طبعه حدة بالغة . حتى أن صهره الذي تزوج بنته الوحيدة ، وكان أميرا ، سافر إلى إسطنبول في مهمة ، عند ما كان عثمان بك مقيما فيها ، ولكنه لم يستطع زيارته ، ولم يقدر على مواجهته · بل لم يستطع أحد أن يذكر اسمه أمامه ، أو يخبره بوجوده بالقرب منه في اسطنبول ، لأنه كان لا يحبه ·

الأمير رضوان بك

كان هذا الأمير نسيج وحده ، كما يقولون · امتاز عن أنداده المماليك بحبه للشعر ، والأدب ، ومجالسته للشعراء ، والأدباء من أهل عصره ، وبره بهم ، وتقديره

إياهم بما يعطيهم من نوال ، ويقدم لهم من تـكريم . وامتاز بالإسراف البـالغ في حياة المتعة ، والترف ، والنعيم .

كان اسمه رضوان كتخدا الجلفي ، نسبة إلى « سنجلف » من قرى المنوفية . وكان الأمير الـكبير عثمان بك ذو الفقار يحبه ، ويقربه ، ويقدمه . حتى وصل به إلى منصب كتخدا الوالى . ثم انتهى حكم مصر إليهما بالاشتراك ، فعرف رضوان حق عثمان بك عليه ، ويده عنده . فلم يشاركه فى أمر . بل ترك له شـئون الحـكم والسلطة . وكان هذا أيضا يلائم طبعه فى الانصراف إلى حيـاة النعيم ، والترف والمتاع « فعكف على لذاته ، وفسوقه وخلاعاته ونزهاته » ، وأقام عدة قصور بالغ في الإنفاق عليها وزخرفتها . ومنهـــا قصر بالغ الفخامة والروعة بناه على بركة الأزبكية . ونصب عليه قبابا عجيبة الصنعة منقوشة بالذهب المحلول ، واللازورد ، والزجاج الملون . وفيها من دقيق الصناعة وجميل الفن شيء كثير . وأنشأ فى أحد قصوره على قنطرة الدكة ، بركة عظيمة فيها قناطر جميلة تنتهى إلى بستان كبير يطل على الخليج .

وكان الأمير رضوان ينتقل بين قصوره هذه وبساتينه ، ويجلس إليـه فيها الشعراء والندماء ، يتحدث إليهم ، ويسمع شعرهم فى مدحه ، كما يستمع إلى نوادرهم ويشاركهم فـكاهاتهم ، ويباسطهم فى الحديث . ويوقع بين بعضهم وبعض . ليزيد مجلسه أنساً وبهجة . وكان يعاصره عدد غير قليل من شعراء مصر فى هذه الفترة . فأكثروا من مدحه ، بالقصائد والتواشيح ، والمقامات . وهو يجيزهم بالجوائز السنية ، ويعطيهم الأموال الـكثيرة . ونجد طائفة من أحسن وأكثر ما قيل من الشعر فى هذا العصر كله . قيلت فى عهد هذا الأمير ، وفى مجلسه ، وبتشجيعه . كان يجتمع فى مجلسه الشيخ مصطفى اللقيمى الدمياطى ، وكان من أكبر شعراء العصر ، وله فيه مدائح كثيرة . والشيخ قاسم التونسى . وله مزدوجة طويلة فى مدح هذا الأمير . أوردها الجبرتى كاملة ، وفيها رقة وشاعرية وترف . ويصف الشيخ

قاسم فى مزدوجته تلك ، الأمير رضوان بأنه خليفة الزمان ، وعزيز مصر ، ويلقبه بلقب الملك .

ومن جلسائه أيضا الشيخ عبد الله الإدكاوى الذى ألف كتابا فى مدحه سماه « الفوائح الجنانية فى المدائح الرضوانيــة » . والشيخ على جبريل ، والسيد حمودة السديدى ، والشيخ يوسف الحفنى ، والشيخ قاسم بن عطاء الله المصرى · وبعض هؤلاء الشعراء ، نجد حديثا عنهم وعن مكانتهم الأدبية ، فى الفصل الذى أفردناه للحياة الفكرية والاجتماعية لذلك العصر ، فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

ونظمت فى مدح الأمير رضوان أيضا الأغانى ، والأدوار والدواليب .

وكما كان لهذا الأمير ، ولعنايته بالشعر والأدب ، أثر فى تنشيط الحياة الفكرية والفنية . كان لهذه الحياة التى يحياها ، ويجاهر بها ، أثر فى الحياة الاجتماعيــة ، وفى أخلاق معاصريه · كان رضوان « يتجاهر بالمعاصى والراح ، والوجوه الملاح » فأخذ الناس فى تقليده فى ذلك . حتى تبرجت النساء « وخالبع أولاد البلد » ، وخرجوا عن الحد . وكان الأمير يمنع الشرطة من التعرض للناس فى ذلك . حتى يقول الجبرتى : إن مصر فى عهده كانت « مراتع غزلان ، ومواطن حور وولدان . كأنما أهلها خلصوا من الحساب ، ورفع عنهم التكليف والخطاب »

وقد حكم رضوان مع شريكه عثمان بك نحو سبع سنوات . كانت مصر فيها هادئة من الفتن والشرور ، والإقليمان ، البحرى والقبلى ، فى أمن ، وأمان . والأسعار رخيصة ، والأحوال مرضية . ثم جرت فتنة بينه وبين طائفة من خصومه المماليك أوشك فيها أن يخرجهم من القاهرة . فعمدوا إلى الحيلة والمداهنة . وتوددوا إليه يرجون عفوه وصفحه . وكان رضوان طيب السريرة ، فصالحهم . ولكنهم بعد قليل دبروا أمرهم وكادوا له ، وأغروا واحدا من مماليكه الصغار ليخونه ، عندما تطلق المدافع على داره . ثم قاموا الحرب على غرة . وكان يجلس إلى حلاقه . فأطلق عليه مملوكه الخائن رصاصة من خلف الباب . أصابت ساقه فكسرت عظمها ، وأسرع رضــوان إلى

فرسه فانطلق بها إلى الصعيد . ومات بشرق أولاد يحيى ، ودفن فيهـا . وتفرق مماليكه وأتباعه . ونهبت قصوره وأمواله . وكان على بك الـكبير من الذين تآمروا عليه . فلما جاءوه بالمملوك الخائن صالح ، الذى أطلق على سيده الرصاص من وراء الباب . وطلبوا إليه أن يكافئه على خيانته . أمر على بك بقتـله . وقال أنه خائن لا خير فيه . وأكثر الشفعاء عند على بك فى أن يعفو عنه ، فلم يقتله، وأمر بنفيه من مصر .

ويقول الجبرتى فى ترجمة الشيخ على بن جبريل المتطبب ، شيخ دار الشـفاء بالمارستان المنصورى — وقد ذكرنا أنه كان من خاصته — يقول : إنه نال من جوائز الأمير رضوان ما يعد بالألوف ، حتى أصبح فى نعمة شاملة ، وثراء عظيم . وإن مما وهبه له بيتا على بركة الأزبكية « رؤيته تسر النفوس الزكية . وصفه عجيب . ورونقه بديع غريب » .

وكانت وفاة الأمير رضوان سنة ١١٦٨ (١٧٥٤ — ١٧٥٥ م) .

على بك الكبير وأبو الذهب

على بك بلو قبطان ، أو على بك القازدغلى ، ثم على بك الـكبير ، بعد فتوحاته وغزواته . ثلاثة أسماء لفرد واحـــد ، كان من كبار هؤلاء المماليك . بل لعله أكبرهم شأنا ، وأعظمهم شخصية ، وأبعدهم همة وجاها ، وأوسعهم سلطانا ، وأعزهم ملـكا .

كان من مماليك إبراهيم كتخدا القازدغلى ، وكلاهما ينسب إلى كبير من المماليك هو مصطفى كتخدا القازدغلى . ولما بلغ على طور الشباب ، بدت عليـه مظاهر الشجاعة ، والقوة ، والطموح . وبدت له شخصية غالبة قوية . فلما مات سيده ، تولى الإمارة بعده فى سنة ١١٦٨ ثم أميرا للحج وكبيرا للمماليك وشيخا للبـلد فى سنة ١١٧٧ (١٧١٣) . ونحن نعلم أن شيخ البلد عندهم كان صاحب الحول والقوة فى مصر ، والحاكم الفعلى لها . وخاصة إذا كان صاحب سطوة وجبروت .

كما كان على بك · ولم يصل على بك إلى مشيخة البلد ، إلا بعد منازعات طويلة ، وحروب قاسية بينه وبين خصومه ومنافسيه من المماليك · وبعد أن قضى ثمانى سنوات يكثر من شراء المماليك ، وتدريبهم . وقصة على بك مع عبدالرحمن كتخدا، تدلنا على عنفه ، وبطشه ، حتى بمن أعانوه وأحسنوا إليه فى أول حياته . فقد كان عبد الرحمن كتخدا فى مقام سيده ، وكان مولى لسيده أيضا · وهو الذى رشحه للصنجقية ، ومهّد له سبل الرياسة والتسلط . وبذل كثيرا من جهده، وماله ، وحيلته · ليمكن لعلى بك ، ويبسط سلطانه على غيره من المماليك · ولكن على بك بعد ذلك أمر بنفى عبد الرحمن كتخدا ، عندما وجده عائقا فى سبيل أطماعه ، وغاياته البعيدة . وكذلك فعل مع كثير من غيره ·

ولما استتب له الأمر اختار ثمانية عشر من خاصة مماليكه ، ورقاهم إلى رتبة البكوية ، وجعلهم أنصارا له ، وعدة . والتفت إلى من بقى من خصومه . فأخذ يصادرهم فى أموالهم وينفيهم ، ثم يقتلهم ، أو يوعز بقتلهم ، وبعد ذلك يستولى على ما كان لهم من إقطاعات ، ويهبها للمخلصين من مماليكه وخاصته ·

أصبح على بك حاكما مطلقا على مصر ، فتاقت نفسه لأن يستقل بها عن تركيا. وأخذ يعمل على ذلك سرا . ويضع الخطط التى تمكنه من غايته ، وفى سنة ١١٨٢ (١٧٦٨ م) كانت الحرب قائمة بين تركيا وروسيا ، فطلبت الدولة من مصر أن تمينها بجيش مكون من اثنى عشر ألف جندى ، فلما شرع على بك يجمع هذا الجيش توجست الدولة منه ومن جيشه ، وظن رجال السلطان فى إسطنبول أنه عندما يتم له تأليف هذا الجيش سيضمه فى خدمة روسيا لتحارب به تركيا . على أن تعينه على الاستقلال بمصر . وأرسلت الدولة ، بناء على هذه الشكوك والهواجس ، أمرا إلى واليها فى القاهرة ، ليقتل على بك . ولكن هذا كان له رجال يقظون يتجسسون له على الدولة ، ويوافونه بأنباء الحاكمين فى إسطنبول ، وأسرارهم · فأبلغوه نبأ الرسالة التى أرسلت إلى الوالى فى القاهرة بقتله ·

فلما أوشك حامل الرسالة أن يصل القاهرة ، كان رجال على بك يتربصون به ، فلما رأوه قتلوه ، وجمع على بك المماليك ، فأعلن إليهم أن أمرا جاء من إسطنبول

يطلب إلى الوالي أن يقتل جميع المماليك . وأنه استطاع أن يقتنص هذا الأمر ، وحامله . وكان على بك خطيبا خلابا مؤثرا . فتحدث إلى المماليك عن ماضيهم ، ومجدهم ، وانفرادهم بحكم مصر ، وما كان لأسلافهم من أمجاد ، وحروب ، وانتصارات ، وقال : إن الدولة تحقد عليهم وتريد أن تقضي على مجدهم ، وعليهم أيضا . فثارت حميتهم ، وأعلنوا خلع الوالي ، محمد باشا الأورفلي ، وإخراجه من مصر .

وبعد ذلك أعلن على بك استقلال مصر ، في سنة ١١٨٣ (١٧٦٩ م) ثم منع قدوم الولاة الأتراك إلى القاهرة ، فلم ترسل الدولة أحداً منهم مدى أربع سنوات . وأوقف دفع الجزية التي كانت ترسل من مال مصر إلى الدولة ، وضرب النقود باسمه ، ولا يزال بعضها باقيا قد نقش عليه اسمه ، وتاريخ استقلال مصر بالتقويم الهجري (١١٨٣) ، ثم نظر بعد ذلك إلى دواوين الحكومة وإلى المناصب الكبيرة ، فأخرج منها من يعرف ميلهم إلى تركيا . وأمر المماليك الذين يخشى ميلهم إليها ، أولا يطمئن إلى ولائهم له . أمر ألا يقتني واحد منهم أكثر من مملوك ، أو مملوكين . بينما بلغ عدد مماليكه هو ستة آلاف .

وهنا يجب أن ننساق إلى شيء من الاستطراد . لنتحدث عن تصحيح لابد منه لتاريخ استقلال مصر في العصر الحديث . فقد كنا ، إلى عهد قريب ، نقول في كتبنا ، ونقرر في مدارسنا ، ومعاهدنا ، وجامعاتنا : إن محمداً عليا هو أول من استقل بحكم مصر وأول من نزع عنها رداء التبعية للدولة العثمانية . وحقق لها بذلك ، كيانا دوليا مستقلا عن دولة الخلافة . وكان الملق لمحمد على وأسرته ، هو السبب في هذا الخطأ ، بل التزييف ، في تاريخ مصر وأحداثها ؛ فقد حققت مصر استقلالها عن دولة الخلافة ، وعن كل تبعية أخرى ، قبل أن يتولى محمد على حكمها بنحو أربعين سنة . وكان ذلك على يد على بك الكبير ، كما رأينا . ولولا خيانة مملوكه (أبو الذهب) ، كما نرى بعد قليل ، ودسائس الدولة ، لما فقدت مصر استقلالها هذا .

ورب قائل يقول : إن على بك لم يكن مصريا ، كغيره من المماليك ، ولكنا نجد الجواب على هذا أول هذا الفصل . حيث قلنا : إن المماليك كانوا يرون أنفسهم مصريين ، وكان المصريون يرونهم كذلك أيضا . ونحن ، عند ذلك . نستطيع أن نقول : إن على بك الكبير كان أقرب إلى مصر ، وأهلها ، من محمد على ، الذي

نعرف وطنه ، وكيف قدم مصر ، واستقر فيها ؟ وتولى حكمها .

على أن على بك ، كما نرى من سيرته بعد ، كان إلى حد كبير ، خيرا من محمد على فى شئون الحكم ورعاية أمور الناس . والحرص على خيرهم .

ومن مظاهر الاستقلال التى حققها على بك لمصر : أنه عقد فى سنة ١٧٧٨ معاهدة تجارية بينها وبين انجلترا . وأنه عقد معاهدة سلمية مع البندقية بواسطة تاجر من أهلها اسمه كارلو روستى[1] . كما عقد معاهدة دفاعية هجومية مع روسيا .

ولم يكتف على بك بأن بسط سلطانه كله على مصر وحدها ، وحقق لها سيادتها واستقلالها . بل أخذ فى فرض سلطانه وسلطانها على بلاد العرب ، ثم على الشام . فأرسل جيشا قائده مملوكه محمد أبو الذهب إلى الحجاز ، واهتم اهتماما خاصا بالاستيلاء على جدة ، ليجعل منها مركزا للتجارة مع الهند ، ولمراقبة الملاحة فى البحر الأحمر . فلما فتحها عزل واليها الذى نصبته تركيا ، وجعل ولايتها لمملوك من أتباعه عرف فيما بعد بحسن بك الجداوى . واستطاعت الحملة أن تستولى على بلاد الحجاز كلها ، وعلى الحرمين الشريفين . وخلع أمير الحجاز ، الشريف أحمد ، الذى هزمه الجيش المصرى ، ونصب ابن عمه الشريف عبد الله بدلا منه . ونودى بعلى بك فى الحرمين الشريفين « سلطان مصر ، وخاقان البحرين » ، وذكر اسمه ولقبه هذا على منابر المساجد فى الحجاز كلها .

---

(١) استقدم على بك روستى هذا — وهو إيطالى من البدقية — إلى القاهرة ، وكلفه بتنظيم التجارة الخارجية والعلاقات الدولية ، وبقى روستى بعد ذلك قنصلا لألمانيا حتى قدوم الحملة الفرنسية . وكان صديقا لمراد بك ونجد له ذكرا فى ترجمته .

وقد أفادنى الأستاذ ستانفورد شو « من جامعة برنستون بأمريكا » بهذه المعلومات عن روستى ومؤلفاته :—

فى محفوظات الدولة بالنمسا أكبر مجموعة عرفت إلى الآن من خطابات كارلو روستى ، من بينها مايتصل بمصر بعد الاحتلال الفرنسى ، وقد نشرها انجلو سامار كو فى الجمعية الجغرافية المصرية .

وفى المكتب الهندى بلندن ، بعض خطابات كارلو كتبت أثناء الثورة الفرنسية ، ويحتمل أن تكون معظم أوراق روستى الخاصة فى مصر فى ذاك الوقت ، عند أحد أقاربه وهى من المصادر القيمة لتاريخ مصر فى القرن الثامن عشر .

وبين الأوراق التى وصلت إلى فرنسا مع أعضاء الحملة الفرنسية ، تاريخ على بك الكبير كتبه صديقه كارلو روستى ، القنصل الإمبراطورى فى مصر ، باللغة الإيطالية .

وهذا التاريخ محفوظ الآن فى المكتبة الاهلية بباريس ، ويعده للنشر الأستاذ ستانفورد شو .

وكانت جيوش مصر التى سارت لفتح بلاد العرب ، فيها جنود من الأتراك ، والمغاربة ، والشوام ، والحضارمة ، والدروز ، واليمن ، والأحباش ، والسودانيين ، وغيرهم .

ثم أرسل إلى الشام جيشا قوامه ثلاثون ألفا ، جعل قيادته أيضا لمملوكه أبى الذهب، ففتح أكثر بلاد الشام ، ودخل دمشق، ولكنه عند ذلك خان سيده على بك ، واتصل بالدولة ، فتآمر معها على هذه الخيانة . وعلى أن ينزع السلطان من على بك ، ويستأثر به لنفسه ، برضى الدولة . وعند ذلك يعيد تبعية مصر لها كما كانت .

وعاد أبو الذهب بجيشه إلى مصر ، وقد كبر على كثيرين من قواده وأمرائه أن يبلغ على بك هذا المبلغ من المجد ، وهم، كما قالوا ، يغتربون ويحاربون . وكان يسيرا على جيش أبى الذهب أن يستولى على مصر . وخرج منها على بك، لاجئا إلى صديقه الشيخ ظاهر عمر ، حاكم عكا ، الذى كان قد لجأ إليه من قبل هربا من خصومه المماليك . وهناك وجد قطعا من البحرية الروسية ، فاتصل بقائدها وطلب عونه فأعانه بالرجال والذخيرة ، واستطاع بهذه المعونة أن يعيد إلى حكمه بلاد الشام التى كان أبو الذهب قد فتحها له من قبل .

وجاءت لعلى بك أنباء من القاهرة — وكانت من إيحاء أبى الذهب — بأن الناس ينتظرونه ليخلصهم من ظلم أبى الذهب وعسفه ، فسار إلى مصر بجيش صغير والتقى بجيش أبى الذهب فى الصالحية فهزمه أول الأمر ، ولكن أبا الذهب استطاع أن يدس على رجال سيده على بك من يغريهم به ، ويفتنهم عنه . ثم عادت الحرب ، فهزم على بك ووقع فى أسر مملوكه أبى الذهب، بعد أن دافع وأبلى أكرم دفاع وبلاء ، وجرح وجهه. وتلقاه مملوكه وهو جريح ، فقبل يده وأعانه على السير، وأجلسه مكانه فى صدر خيمته . ثم نقله إلى القاهرة حيث مات بعد وصوله إليها بسبعة أيام . وأحضر أبو الذهب عددا من الأطباء لعلاج سيده على بك ، ولكنه عندما مات تحدث الناس أنه مات مسموما ، ولم يهمل الجبرتى حديثهم هذا ، وهو غير بعيد على أبى الذهب ، فقد كانت أبرز صفاته الغدر والخيانة . وكانت وفاة على بك فى الخامس عشر من صفر سنة ١١٨٧ (مايو سنة ١٧٧٣) ودفن إلى جانب أستاذه إبراهيم كتخدا فى قرافة الإمام الشافعى .

ومن مماليك على بك ، عدا محمد أبى الذهب : أحمد باشا الجزار ، الذى رد نابليون وجيوشه عن أسوار عكا ، ومراد ، وإبراهيم ، اللذان كان لهما شأن عظيم فى أحداث مصر ، كما نرى من ترجمتهما بعد قليل .

وكانت عند على بك جارية شركسية بارعة الجمال ، أحبها مملوكه مراد حبا شديدا ، فلما أراد أبو الذهب خيانة سيده ، وتحدث إلى مراد فى ذلك ، شرط عليه — نظير موافقته على خيانته — أن يزوجه هذه الجارية ، فلما قضى على بك ، أخذ مراد الجارية الشركسية ، وهى التى عرفت بعد ذلك باسم نفيسة المرادية . وكانت أعظم نساء عصرها ، ونجد ترجمة لها فى الجزء الذى خصصناه للحياة الاجتماعية فى الجزء الأول من هذا الكتاب . وذكر المؤرخون أن جمال نفيسة هذه كان من أكبر الأسباب لنكبة سيدها على بك .

ويقول مؤرخ أوربى ، هو استافرو لانسبان : إن على بك ابن قسيس رومى أرثوذكسى ، من قرية أماسيا فى الأناضول ، اسمه القسيس داود ، وإنه ، أى على بك ، ولد فى سنة ١٧٢٨ ثم خطف فى الثالثة عشرة من عمره وبيع فى القاهرة . وكان اسمه يوسف . وذكر عن أسرته أشياء أخرى ، كما يقول : إنه تزوج يونانية مسيحية أظهرت الاسلام وبقيت على دينها . اسمها مريم[1] وقد كان لانسبان معاصرا لعلى بك ، وعاشره وعمل له .

أما صفات على بك ، وسياسته فى حكم مصر . فقد كان شديد المراس ، عظيم الهمة ، قوى الشكيمة . لا يرضى لنفسه غير المكانة الأولى والمنزلة العظمى . لا يميل إلى الهزل ، ولا يحب المزاح ، يجالس أهل الوقار والحشمة . مثل الشيخ حسن الجبرتى أبو عبد الرحمن ، والشيخ على العدوى ، والشيخ أحمد الدمنهورى ، وكان له كاتب عربى ، وآخر تركى ، ومنجم .

(١) ص ١١٥ — ١١٦ من كتاب المماليك فى مصر لأنور زقلمة . نقلا عن كتاب لانسبان « ثورة على بك »

ومما يذكر عن علو همته، واعتداده بنفسه، أن الأمراء تداولوا يوما، وهو غائب، فيمن يرشحونه للإمارة معهم. وذكره قوم فأثنوا عليه واختاروه، ومانع آخرون في اختياره، ونقل إليه هذا الذى كان من حديث. فقال: إنى لا أرقى بمساعدة فلان، ولا تعوقنى ممانعة فلان. بل سأرقى بسيفى، ولا أتقلد الإمارة إلا بنفسى.

وكان يطالع كتب التاريخ والأخبار، وسير ملوك مصر من المماليك. ويقول لخاصته: إن هؤلاء الملوك كانوا من جنسنا، مثل السلطان بيبرس، والسلطان قلاوون، وأولادهم، وكذلك ملوك الجراكسة. ولم يستول العثمانيون على مصر، ويقهروا هؤلاء المماليك، إلا بالقوة، ونفاق أهل البلد. وكان فى حديثه هذا يشى بسريرته، ويرهص بما حققه بعد ذلك من الاستقلال لمصر، وتحريرها من التبعية العثمانية.

وكان أيضاً متحرزاً فى الحديث، أو الخطاب، له هيبة عظيمة. حتى ذكر الجبرتى أن بعض الناس أماتهم الخوف عند دخولهم عليه. وكثير منهم كانت تأخذه الرعدة فى حضرته، فيلاطفهم، ويؤنسهم، حتى يهدأ روعهم. ويستطيعوا أن يتحدثوا اليه، وكان شديد الفراسة صحيح الفهم، قوى الحذق. يفهم ملخص الدعوى الطويلة المعقدة بين المتخاصمين، من غير حاجة الى ترجمان، ويقرأ الوثائق، والصكوك بنفسه، ولو كان خطها سقيما، ولا يعتمد فى ذلك على أحد، ولا يضع خاتمه على ورقة إلا بعد أن يقرأها بنفسه ويراجعها.

وقد سلك على بك فى أول أمره، سبيل العنف البالغ، والقسوة التى لا تعرف الرحمة، مع خصومه ومعارضيه. أو كما يقول الجبرتى: نفى الأعيان، وفرق جمعهم فى القرى، والبلدان، وتتبعهم خنقا وقتلا، وأبادهم فرعا وأصلا، وأفنى باقيهم بالتشريد، واستأصل كبار خشداشينه[1]، وقبيلته، وأقصى صغارهم عن ساحته وسدته وأخرب البيوت القديمة، وأخرم القوانين الجسيمة، وقتل الرجال، واستصفى الأموال.

(١) جمع «خوشداش» وهو الزميل فى الرق. والكلمة الأولى، إما أن تكون خوش أى السرور، أو خوش أى الفناء. والكلمة الثانية معناها: زميل أو رفيق. والمعنى: رفيق السرور، أو رفيق الفناء.

ولـكنه بعد أن استتب له الأمر ، جعل من مصر ، مدنها وريفها ، بلدا آمنا رخيّ العيش . حتى كان المسافر يسير ، بمفرده ليلا ، « راكبا أو ماشيا ، ومعه حمل الدراهم ، والدنانير ، إلى أى جهة ، ويبيت فى الغيط أو البرية » ، آمنا مطمئنا ، لا يرى مكروها أبدا .

كان شيخ العرب ، سويلم بن حبيب ، له الـكلمة العليا فى كثير من بلاد الوجه البحرى ، يستولى هو ورجاله على ما يشاء ، ويفرض من الضرائب ، والغرامات ما يريد . فحاربه على بك حتى تغلب عليه وقتله . وكان شيخ العرب همام[1] ، زعيم الهوارة فى الصعيد ، يكاد أن يكون ملـكا على هذه البلاد كلها ، ليس وراء رأيه رأى ، ولا فوق أمره أمر . فحاربه على بك حتى تغلب عليه ، ودخل عاصمته فرشوط ، وتركها همام هاربا الى قرية فى مركز إسنا ، حيث قتله الحزن .

وبذلك دانت مصر كلها ، من الإسكندرية إلى أسوان ، لسلطان على بك ، وشملها الأمن والهدوء .

ولم يكن على بك قاسيا بالغ القسوة على أعدائه أو خصومه وحدهم . بل كان قاسيا شديد القسوة أيضاً على المرتشين ، وأصحاب الحيلة ، ومن لاخلاق لهم من المفسدين . ولو كانوا من المعممين الذين يحفظون الفقه والقرآن . كان هناك ناس يتداخلون لدى القضاة ليحكموا لمن يدفع الرشاوى ولو لم يكن صاحب الحق . فعاقبهم ، وعاقب القضاة أيضاً ، بالضرب ، والنفى ، والقتل . وكذلك فعل مع المفسدين والسراق وقطاع الطرق .

علم أن شيخا اسمه الشيخ أحمد الـكتبى ، المعروف بالسَّقَط ، يتداخل فى القضايا ويقتسم الرشا مع القضاة . وأن له فى ذلك جسارة عظيمة ، فقبض عليه ، وضربه ضربا شديدا ، ثم أمر بنفيه إلى جزيرة قبرص . ولم يعد إلى مصر . بل انتقل إلى إسطنبول فمات بها . ويقول الجبرتى : إن الشيخ أحمد السقط هذا كان من

---

(١) فى الجزء الأول من كتابنا ترجمة وافية لـكل من سويلم وهمام .

دهاة العالم ، يسعى فى القضايا ، والدعاوى ، يحيى الباطل ، ويبطل الحق ، بحسن سبكه وتداخله .

وأقام على بك كثيراً من المنشآت ، والعمائر . أصلح قلاع الإسكندرية ودمياط وزاد فى تحصينها . وجدد مسجد السيد البدوى فى طنطا ، وأقام على ضريحه قبة عظيمة ، ومنارتين كبيرتين ، وسبيلا وقيسارية فيها كثير من الحوانيت . كانت تعرف بالغورية ، لأن تجار الغورية فى القاهرة كانوا ينزلون فيها أيام المولد السنوى . وجدد قبة الإمام الشافعى ، ونقشها من الداخل بالذهب ، واللازورد ، والأصباغ الجميلة المتقنة ، وأقام بعض إصلاحات فى مسجده ، وأنشأ عمارة عظيمة على شاطىء النيل فى بولاق . فيها خان كبير ، وقيسارية ، ودار واسعة ، ومساكن ، وحوانيت ، ومخازن للغلال ، ومسجد . وبنى لنفسه دارا عظيمة بدرب عبد الحق ، على بركة الأزبكية ، وكان فيها حوض ماء ، وطاحون وساقية . وهى الدار التى مات فيها .

وقد أورد الجبرتى ، فى الصفحات الأخيرة من حديثه عن محمد على ، أنواع العملة ومقاديرها وصرفها . وذكر العملة التى سكّها على بك باسمه . ويؤخذ مما أورده فى ذلك : أن معيشة الناس فى عهده ، وفى أول عهد أبى الذهب ، كانت رخية هنية ، والمكاسب وافرة ، والخير كثير . وقارن بين عهده وعهد محمد على ، وما كان يجده الناس فيه من جهد ، ومحنة ، وغلاء ، وضيق .

أبو الذهب

أما أبو الذهب فقد اشتراه على بك فى سنة ١١٧٥ . وتولى الخازندارية ، ثم خرج مع سيده إلى الحج فى سنة ١١٧٨ وتولى الإمارة فى السنة نفسها ، ولما لبس خلعتها فى القلعة أخذ يفرق « البقشيش » نقوداً ذهبية . وصار وهو عائد ينثر الذهب على الفقراء فى طريقه ، حتى دخل منزله ، لذلك سمى أبا الذهب . وكان بعد ذلك لا يضع فى جيبه إلا الذهب ، ولا يعطى غيره ، ويقول : أنا أبو الذهب .

وقد بلغ هذا المملوك مكاناً عظيما فى وقت قصير ، وكان موفقاً فى سعيه

كله ، مجدوداً فى كل عمل يتولاه . ندبه سيده للمهام الـكبار ، وقيادة جيوشه التى هزم بها الشيخ هماما ، شيخ الهوارة ، وفتح بها بلاد الحجاز والشام ، كما رأينا من قبل .

وكان أبو الذهب شجاعاً قوى البأس . لما عاد من الشام خارجا على سيـده ودخل القاهرة ، حاصره على بك فى بيته ليلا ، وأحاط جنده بالبيت من كل جانب ، وأوشكوا أن يقتلوه أو يأخذوه أسيراً . فلما رأى ذلك ، برز مع بعض أتباعه ، واخترق صفوف الجند الذى يحيط به ، وهرب إلى الصعيد . وأرسل على بك وراءه الحملات العسكرية ، ولـكن كثيراً من رجالها كان ينحاز إليـه ، لأنه كان يبذل لهم من المال والرشا ، ما يغريهم بالخيانة . ثم كان بينهما ما أجملنا ذكره .

فلما انفرد أبو الذهب بأمر مصر ، أكثر من شراء المماليك ، كما فعل على بك من قبل ، وقلدهم كبار المناصب ، والأعمال . وبذل لهم الأموال ، وأظهر لهم لين الجانب ، حتى أحبوه ، وأعانوه ، وحاربوا معه . وتقدم إلى الدولة بالطاعة ، وإلى رجال الآستانة بالأموال والهدايا ، وكتب لهم أنه ملك البلاد وأراحها من على بك . فـكافأته الدولة على خيانته ، وعلى إهداره استقلال مصر ، وإعادتها ولاية عثمانية ، بأن أنعم عليه السلطان برتبة الباشوية ، وإقراره على ولاية مصر فى سنة ١١٨٦ (١٧٧٢م) وبقى فى هذه الولاية سنتين . قدم فيهما قرة خليل أغا باشا والياً من قبل تركيا ، ولـكنه كان معدوم السلطة ، إذ استأثر أبو الذهب بكل سلطان .

وتوجه أبو الذهب لحرب عدوه ، وحليف على بك فى الشام ، الشيخ ظاهر عمر ، فخرج إليه على رأس جيشه ، فى أوائل المحرم من سنة ١١٨٩ واستولى على غزة ، ثم قصد يافا ، فوجد أهلها قد تحصنوا بها ، وأحكموا تحصينها . فحاصرها حصاراً شديداً ، وأكثر من رميها بالمدافع أياماً وليالى متوالية . ثم نقب جنوده سورها ، ودخلوها ، ولقى أهلها منه ومن جنوده قسوة منـكرة : نهبوا أموالهم ، وأخذوهم فربطوهم بالحبال ، والجنازير ، وسبوا النساء والأطفال . وقتلوا منهم مقتلة

عظيمة ، ثم جمعوا الأسرى خارج المدينة ، وقتلوهم جميعاً ، بالسيف « لم يميزوا بين الشريف ، والنصراني ، واليهودي ، والعالم ، والجاهل ، والعامي ، والسوقي ، ولا بين الظالم ، والمظلوم » وأقاموا من رءوس القتلى عدة إهرامات تنسف عليها الأتربة والرياح .
وكان الشيخ ظاهر يتحصن في عكا . فلما بلغه ما فعل أبو الذهب بيافا خرج منها هارباً ، ودخلها أبو الذهب ، وأرسل رسله بالبشارات إلى مصر ، وأمر أن يوقدوا قناديلها ثلاثة أيام . وكان قد راسل الدولة مرة أخرى لتقره على ولاية الشام . فأقرته ، وردت إليه مبعوثه إسماعيل أغا يحمل التقرير ، والكساوى الفاخرة ، والخلع الثمينة ، ووصل إسماعيل أغا يوم دخل أبو الذهب عكا . ولكنه عند ما نزل سفينته ليعود بها ، جاءته الأنباء بموت أبي الذهب . فرجع واسترد ما حمله من الدولة إليه .

فقد امتلأ فؤاد أبي الذهب بالفرح العظيم ، عندما وجد بلاد الشام كلها تحت أمره ، ووجد عدوه الشيخ ظاهر ترك له عكا ليدخلها من غير حرب . فلما دخلها شعر بدبيب الحمى . فاستكان في خيمته . وأخفى الأمراء من خاصته ذلك الأمر عن الجيش . ولكن الجنود ، بعد ثلاثة أيام من دخول عكا ، استيقظوا في الصباح ليجدوا خيمته قد تهدم ركنها ، ثم وجدوا خاصة رجاله يرفع بعضهم السيوف في وجه بعض ، يتقاتلون على ماله . فعرفوا أنه مات . وتقدم إبراهيم بك فكف بعضهم عن بعض ، واتفقوا على أن يعودوا إلى مصر . وأرادو أن يدفنوه في الشام . ولكنهم عرفوا أنهم إذا دفنوه فيها فهما يخفون مقبرته ، فسينبش أهلها قبره ليحرقوه ، جزاء ما فعل بهم وبأهل يافا خاصة . فحملوه معهم إلى مصر حيث وصلوا القاهرة بعد ستة عشر يوما ، ليلة الرابع والعشرين من ربيع الثاني سنة ١١٨٩ ودفن في مسجده المواجه للأزهر . وكانت تسير أمام نعشه مجامر العود والعنبر لستر الرائحة . وكانت القاهرة وضواحيها ، قبل ذلك بأيام ، تقيم زينتها ، وتضيء قناديلها ، وتطلق مدافع أفراحها ، وتسير سفنها المزينة المضيئة في النيل ، سروراً وابتهاجاً بنصر أبي الذهب . كان أهل القاهرة يشاهدون ذلك في ثالثة الليالي التي أمر

بإقامة الزينة فيها ، عند ما جاءهم الخبر بموته ، فذكروا قول الله تعالى : « حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » .

وكان أبو الذهب شبيهاً بسيده فى الجد ، والصرامة ، والحزم ، سمحاً حليماً ، محباً للخير ، يكرم العلماء ، ويعظمهم ، وينصت إليهم . ويجزل لهم العطاء . كان وهو أمير ، يحضر دروس الشيخ حسن الكفراوى فى شهر رمضان بالمسجد الحسينى . فلما استقل بالإمارة ، بقى على احترامه وحبه ، يقبل شفاعته ويبيح له أن يدخل عليه من غير إذن ، فى أى وقت . وكان معروفاً بين الأمراء بجمال الصورة ، واعتدال القامة ، وبياض الوجه ، وبهاء الطلعة ، والمهابة .

وكانت مصر فى مدة حكمه القصيرة تنعم بالأمن والرخاء ، وتصنع فيها المدافع الكبار ، وقد استخدم بعضها فى حروب الشام الأخيرة .

بنى مسجده ، ومدرسته فى مواجهة الجامع الأزهر فى أواخر سنة ١١٨٧ ، ورتب لهما وقفاً كبيراً ، واختار له الشيخ أحمد الدردير مفتياً المالكية ، والشيخ عبد الرحمن العريشى للحنفية . والشيخ حسن الكفراوى للشافعية ، والشيخ أحمد الراشدى خطيباً . كما اختار للتدريس فيها طائفة من كبار العلماء خصص لهم الرواتب من المال والقمح . وجعل فيها خزانة كبيرة للكتب ، اختار لها أميناً ، ومدرساً للغة التركية ، واشترى لها مكتبة الشيخ أحمد الراشدى ، وبذل للسيد مرتضى الزبيدى مائة ألف درهم فضة ، ليضع فيها كتابه تاج العروس .

وكانت وفاة أبى الذهب فى اليوم الثامن من ربيع الثانى سنة ١١٨٩ (يونيو سنة ١٧٧٥) .

(وهكذا لم يسترح أبو الذهب من الحرب حتى يومه الأخير ، ولم يفلح فى شىء ، سوى أن أهدر استقلال مصر ، وسيادتها ، وغدر بسيده)

ولئن رأينا أبا الذهب ، وكثيرين من مماليك على بك ورجاله ، قد خانوه معه ، وأغراهم ذهبه . فقد بقى عدد من رجاله ومماليكه المخلصين ، يدافعون عنه ، ويقفون إلى جانبه فى كل شدة ومحنة . ولما انكشف عنه جيشه فى موقعة الصالحية

التي جرح فيها وهزم . لم يتركوه أو يسلموه . وظل عشرة منهم يحمونه ، ويقفون من دونه سداً ، ويقاتلون من حوله ، حتى قتلوا جميعاً .

مراد وإبراهيم

بعد وفاة محمد بك أبو الذهب في عكا سنة ١١٨٩ — ١٧٧٥ م خلص حكم مصر لمراد وإبراهيم ، بالاشتراك بينهما . وكان كلاهما من مماليك أبي الذهب .

(أما إبراهيم فكان غلاما جركسيا . أعتقه سيده أبو الذهب وزوجه أخته . وكان شجاعا فارسا ، ساكن الجأش ، صبورا ، فيه حلم ، وتؤدة . قريب الانقياد للحق ، متجنبا للهزل ، إلا نادرا ، يميل إلى الكمال والحشمة . وكان لطيف المعاشرة ، متساهلا مع مماليكه ، حتى طغوا ، وزاد جبروتهم ، وظلمهم .

وأما مراد فكان قاسيا ، متهورا ، مغرورا بنفسه ، متجبرا ، حاد الخلق ، عصبي المزاج ، ظالما ، غيورا . وكان يجمع إلى هذه الصفات ، جهلا فاضحا معيبا . وقصر نظر ، قل أن وصل إليه واحد من حكام مصر) .

وقد حكم مراد وإبراهيم مصر فترة طويلة ، لعلها لم تر في تاريخها كله ، حكما أسوأ منه ، ولاحا كمين في قسوتهما وظلمهما ، وأنانيتهما ، وجهلهما .

وقد فرضت في عهدهما الضرائب الفاحشة ، التي لم ير الناس لها مثيلا من قبل ، وتنوعت ، حتى شملت بائعي الفسيخ ، والمخلل ، كما يقول الجبرتي ، وكان أبو الذهب ، عندما خرج لفتح الشام ، اختار إبراهيم نائبا عنه : فلمامات أقر الأمراء اختيار سيدهم ، وأبقوا إبراهيم في الحكم ، على أن يشاركه فيه مراد . وورث إبراهيم وزوجه ، من أبي الذهب مالا عظيما .

وكانت صفات إبراهيم وشخصيته اللينة ، المتساهلة . كفيلة بإطلاق يد شريكه الطاغية مراد في أغلب أوقات حكمهما ، ولم تكن مهمة الحكم في أول الأمر ، ميسرة للحاكمين الجديدين . فقد نازعهما إسماعيل بك ، وتغلب عليهما في البداية ، حتى هربا إلى الصعيد . ولكنه عندما توجه لحربهما هزم ، وفر إلى الشام ، وعاد

إبراهيم ومراد إلى القاهرة . وقد تخلصا من خصمهما القوى .

(ولم يكن الحاكمان ، مراد وإبراهيم ، على وفاق دائم . بل كثيرا ما تحاربا ، وتداولا النصر والهزيمة مرارا . حتى أصلح بينهما العلماء) ، بعد أن شقّ الناس بحروبهما وتنازعهما شقاء شديدا . فلما تم الصلح بينهما ، نكبت البلاد بالطاعون فى سنة ١١٩٩ — (١٧٨٤ — ١٧٨٥ م) واصطلح عليها الوباء ، والغلاء ، والفتن ، وانخفاض النيل ، حتى ترك كثير من مالكى الأرض بلادهم ، وزروعهم . بعد أن باعوا بيوتهم ، وعبيدهم .

(وكان إبراهيم ، والناس فى هـذه المحن ، يصادر تركات الموتى ، ويغتصب حقوق وارثيهم ليأخذها لنفسه)

واضطرب ، بل انعدم ، الأمن فى البلاد . فـكان المسافر يستأجر الأعراب لحراسته لينتقل من بلد إلى بلد ، وهاجر الفـلاحون إلى القاهرة ، بنسائهم ، وأولادهم ، يضجون من الجوع ، ويأكلون قشر البطيخ ، وأوراق الشجر . حتى لايجد الـكناسون شيئا من ذلك يكنسونه . وأكل الناس لحوم الأطفال ، والخيل والحمير ، والبغال ، حتى كان يتزاحم على ميتتها من يقوى على المزاحمة ، والمنازعة . ومن يقدر على الوقوف ، والسير .

(وأكل بعض الناس لحم هذه الجيف ، نيئا . ومات كثيرون . كل ذلك ، ومراد ، وإبراهيم ، ينهبان مابقى عند الناس فى القاهرة ، ورجالهما يفعلون مثل ذلك فى الأقاليم .

(ووصل علم ذلك إلى الدولة ، فى إسلامبول . فأرسلت حملة بقيادة حسن باشا قبطان ، لإنقاذ مصر من شر مراد وإبراهيم . وانتصرت جنـــد الدولة عليهما فى «فوة» . ففر مراد راجعا إلى القاهرة . وأراد إبراهيم أن يصعد إلى القلعة ، مقر الحـكم ، فـكان حسن باشا أسبق منه اليها ، وفر الأمراء إلى الصعيد . واستصفى قبطان أموالهم . وأرسل عابدين باشا ليحاربهم فى الصعيد)

ثم أقام خصمهما اللدود إسماعيل بك ، حاكما . ولـكن الحظ كان فى خدمة

مراد وإبراهيم . فقد مات ، فى ذلك الوقت ، إسماعيل بالطاعون . وتولى عثمان بك طبل ، فاستطاعا أن يخدعاه ، حتى تواطأ معهما ، وسهل لهما دخول القاهرة ليلا).

وكانت حروب روسيا مع الدولة تجعل يدها مغلولة ، وجهدها قليلا ، فآثرت أن تترك مصر لحاكميها الظالمين . وزاد طغيانهما وكبرياؤهما ، وخاصة مراد ، حيث ظن أنه هو الذى هزم حسن باشا قبطان . وأحبط سعى الدولة لإخراجهما من مصر).

وجاء فرمان من الدولة فى ذى الحجة من سنة ١٢٠١ بسفر قبطان باشا لحرب الروس . والعفو عن مراد، وإبراهيم ، على أن يقيم أولهما فى إسنا ، والثانى فى قنا ، ولكنهما كانا يقيمان فى القاهرة ، فعلا ، ويحكمان مصر ، على الرغم من فرمان الدولة .

(وامتد حكم مراد وإبراهيم الثانى أكثر من عشرين سنه . كانت من أسوأ العهود التى مرت بمصر)، وكان إبراهيم فيها صاحب المقام الأول . حتى كان مراد يقبل يده فى الأعياد . ولكن مرادا كان فى أغلب الأوقات ، صاحب النفوذ الأول والسلطة الغالبة . وكان كبار المماليك يهابون مرادا ، ويحترمون إبراهيم . ويقولون : إنه أبوهم . حتى إن الألفى الكبير ، أعظم المماليك شأنا بعد مراد وإبراهيم ، كان لا يجلس إلا إذا أذنه إبراهيم . وكان الاتفاق الذى تم بينهما على طريقة الحكم ، أن يتناوبا ، فى كل سنة ، مشيخة البلد ، وإمارة الحج .

وكان إبراهيم يتصف بشىء من الصراحة . نصب نفسه قائمقام على مصر . وأقام لذلك ديوانا فى بيت ابنته بدرب الجماميز ، وحرص على أن يشترك القاضى والعلماء فى هذا الديوان ، عندما يلبس خلعة الحكم والولاية . ولكن هؤلاء العلماء عندما احتبس المطر عن البلاد سنة ما . وأوشكت زروع الناس على التلف . أرادوا أن يقيموا صلاة الاستسقاء . ومن شروط هذه الصلاة : رفع المظالم ، وترك الذنوب والرجوع إلى الله . لعله ينزل الغيث رحمة بالناس . فذهبوا إلى إبراهيم ليحدثوه عن صلاتهم . وليمنع المظالم . عسى الله أن يقبل منهم ، ويسقيهم . فقال لهم إبراهيم: « هذا أمر لا يمكن ، ولا يتصور . . . . ! » .

وهذه القصة تدل على ما كان يفهمه إبراهيم من معنى الحكم ، والعدل فيه . وهو فهم لم يكن فيه منفردا ، ولكن صراحته فيما أجاب به العلماء ، لها دلالة على خلقه .

ومما يدل على عقلية إبراهيم ، وبساطته ، ما كان من صلحه مع محمد على . فقد أوشك هذا الصلح أن يتم . وقدم إبراهيم فعلا إلى الجيزة ، ليدخل القاهرة ، متصافيا مع محمد على . ولكنه ، وهو يهم بدخول القاهره ، لم يسمع مدافع القلعة تطلق طلقاتها تحية له ، فغضب ولم يدخل . بل عاد من حيث قدم من الصعيد . وقال : كيف يكون ذلك ... ؟ ألم أكن أمير مصر نيّفا وأربعين سنة . وكان محمد على يأخذ مرتباته ومرتبات جنوده من عندى ...؟ ولكن هذا التصرف نفسه يدل على أن إبراهيم كانت له نفس كبيرة . ولو أنه دخل القاهرة وسمى فيها سعيه وأعمل حيلته ، مع مماليكه ، وأتباعه الكثيرين . فربما كان له شأن آخر . وما انفرد محمد على بعد ذلك بحكم مصر ، وقضى على المماليك ، ولما بقى إبراهيم بقية عمره ، مشردا فقيرا ، جائعا . وهو الذى أهدى مرة إلى محمد على ، ثلاثين حصانا ومائة قنطار بن ، ومائة قنطار سكر ، وأربعة خصيان ، وعشرين جارية سوداء . وأرسل له محمد على مع أحد أولاده هدية . وقد بقى إبراهيم ، بعد عودته من الجيزة لعدم إطلاق المدافع تحية له ، يهبط إلى بلاد الصعيد ، ثم ينحدر إلى السودان ، حتى استقر مقامه فى دنقله . وبلغ من حاله أن أرسل إلى محمد على أحد مماليكه ، مستعطفا ، فى ربيع الثانى من سنة ١٢٣١ ومع مملوكه هـذا رسالة يقول فيها : إنه قد كبرت سنه ، وعجزت قواه ، ووهن جسمه . وإنه يلتمس من محمد على الأمان والإذن له ، ولمن بقى معه من المماليك ، فى الإقامة بأى مكان يأذن لهم فى الإقامة به من أرض مصر . ليعيشوا فيها أقل عيش . فأبى عليهم محمد على ذلك . وأراد أن يجىء اليه إبراهيم ليقيم تحت حكمه ويجرى عليه من الرزق ما يكفيه ، كما فصلنا ذلك من قبل .

ومع ما لقى إبراهيم من محنة ، وفقر ، وغربة ، فيما بقى من عمره الطويل ، فقد رفض عرض محمد على . ومات فى هذه السنة نفسها ، فى دنقلة . ثم نقلت زوجه

جثته إلى القاهرة ، بإذن من محمد علي ، فدفنت في قرافة الإمام الشافعي ، في رمضان سنة ١٢٣٢ .

وكان إبراهيم ومن معه ، مدة إقامتهم في السودان ، يزرعون الدخن ، ويقتاتون به ، ويلبسون القمصان التي يلبسها الجلابة ، وبقي كذلك حتى مات . وأقام إبراهيم في إمارة مصر ثمان وأربعين سنة .

أما مراد ، فلم تكن فيه سهولة إبراهيم ، ولا يسر أخلاقه (وكان الاتفاق بينهما قائماً على أن يتولى إبراهيم الشئون الإدارية . ومراد إدارة الحرب) . ونستطيع أن نعرف ما كان يتمتع به هذان الحاكمان من سطوة ، ومكانة ، إذا عرفنا أن الكبار من مماليك إبرهيم وحده كان عددهم ستمائة ، ومراد أربعمائة .

وكان ما يملكه كبار الأمراء ، غيرهما ، يتراوح بين خمسين ومائتين . وكان إبراهيم ، ومراد يسكنان في منازل كبيرة ، واسعة ، في الحبانية . ويسكن قريباً منهما مرزوق بك ابن إبراهيم . ثم بني مراد قصوراً بإذخة ، في الجيزة ، أقام فيها . كما بنى قصوراً أخرى في الروضة ، وجزيرة الذهب ، والعادلية ، وترسا .

اشترى أبو الذهب ، مراداً ، في سنة ١١٨٢ ثم أعتقه بعد أيام قليلة ، وجعله أميراً وقدمه على أقرانه ، وأنعم عليه بالاقطاعات الجليلة ، وزوجه أرملة صالح بك الكبير الذي قتل يوم بيع مراد لأبي الذهب . ولما مات علي بك الكبير تزوج مراد بسريته نفيسة المرادية . ولما سافر أبو الذهب لحرب الشام ، أخذ مراداً معه ، وأبقى إبراهيم نائباً عنه في مصر ، كما سبق .

وقضى مراد فترة من حياته الأولى ، وهو شريك لإبراهيم ، عاكفاً على ملذاته ، وشهوات نفسه ، متنقلاً بين قصوره ، وحدائقه . ثم اتجه لاستجلاب المماليك ، والإنفاق عليهم . ليقوى بهم نفوذه ، وليستطيع أن يحقق مطامعه في الغلبة والتسلط .

واستوزر مراد رجلاً عبداً ، اسمه إبراهيم كتخدا السناري ، وجعله مشيره ،

وجمع لهذا العبد من السطوة ، والنفوذ ، مالم يكن لأعظم أمير فى مصر ، وبنى له بيتاً بالناصرية ، واقتنى له المماليك الحسان ، والسرارى البيض ، والسود ، والخدم ، وعلمه اللغة التركية . وكان إبراهيم السنارى هذا هو الوسيلة عند مراد ، والسفير بينه وبين الأمراء ، والأعيان ، يقضى حاجاتهم . وبلغ من علو كلمته أنه كان ينقض ما أبرمه مراد نفسه . وتجد له ذكرا فى أول هذا الفصل .

وكان مراد مُتَعَاظماً ، متكبرا . أقام ست سنين فى الجيزة ، لايقدم إلى القاهرة ولا يلتقى بالأمراء فيها ، ولا يحضر مجالس الديوان . فإذا قدم وال جديد من عند الدولة ، جاء للسلام عليه ، ثم لايراه بعد ذلك . كما كان مخادعا مخاتلا ، إذا التقى بمن يستحى منه ، أو يخافه ، تخلص منه حتى لايمده بشىء . ثم تحاشا أن يلقاه بعد ذلك . فإذا اضطر لأن يبذل له شيئا ، غصب مال الغير ، وأعطاه .

ولم يكن مراد شجاعا ، بل كان متهورا ، وشتان مابين الصفتين . وكان ، كما أحسن الجبرتى فى وصفه « يغلب على طبيعته الخوف ، والجبن ، مع التهور والطيش ، والتورط فى الإقدام ، مع عـدم الشجاعة » . تشاجر بعض نصارى الأروام مع بعض السوقة بمصر القديمة . وتعصب الأولون على الوطنيين واعتدوا عليهم ، وقتلوا منهم أكثر من عشرين رجلا . فشكوا إلى مراد ، وطلب مراد كبير المعتدين فامتنع عليه . وكانت له مركب فى النيل تحمل المدافع . فأوقفها أمام قصر مراد ، بعد أن ملأ مدافعها بالقنابل . فخاف مراد ، وتغافل عن شكوى الشاكين ، ورضى بالمهانة .

وقدم رسول من قبل الدولة ، يطلب من الأمراء ما تأخر عليهم من المال . فلما صعد الأمراء إلى القلعة ، وتحدث معهم الباشا فى ذلك ، قال له مراد : ليس لكم عندنا إلا الحساب ، أمهلونا حتى نتحاسب . وأرسل إلى من قدم الإسكندرية من جنود الدولة ليعود من حيث قدم . فاذا لم تفعل ذلك فلن ندفع شيئا ، ولن نخرج محمل الحج ، وهذا آخر الكلام . وكان إبراهيم يلطف من خشونة مراد . ثم علم الأمراء بعد ذلك أن الجند القادم إلى الاسكندرية لن يعود ، وأنه جاء لحربهم .

وعرف مراد أن الأمر جـــد ، فصعد إلى الباشا ، مرة أخرى . وذل له ذلة كبيرة . وكان يقبل «أتَــكَـه[1]» . وركبتيه ، ويقـول له . ياسلطانم . نحن فى عرضك فى تسكين هذه الحرب ، ودفعها عنا . ولما وقعت الحرب بعد ذلك ، كان أول شىء فعله مراد وإبراهيم ، إخفاء زوجتهما الكبيرة فى القاهرة . ولما أتما إخفاءها ، ذهب إبراهيم إلى العلماء يستنجد بهم ، ويستعطفهم « وتصاغر أمام المشايخ جدا » .

ومما يدل على جهل مراد ، وقصر نظره ، أنه أنشأ فى الجيزة مصانع كبيرة ، لصنع المدافع والقنابل والبارود ، فوق ما كان منها فى القاهرة ، وأخذ جميع الحدادين ، والسباكين ، والنجارين ، وأهل الصناعة للعمل فيها . واستولى على جميع ما فى مصر من الحديد ، والرصاص ، والفحم ، والحطب ، حتى الترمس ، والذرة ، يحرق بها الجير . وأوقف أعوانه على شاطىء النيل يحتجزون المراكب ، ويستولون على ما تحمله من الحطب ، لهذه المصانع . واختار للإشراف عليهـا رجلا من الأروام اسمه نقولا . كان يركب الخيل ، ويلبس الثياب الفاخرة ، ويمشى فى شوارع مصر تسعى أمامه وخلفه القواسة ، يفسحون له الطريق . كما يركب الأمراء ، ويمشون .

ومع وجود هذه المصانع ، والمدافع ، والبارود ، والمراكب الحربية . فإنه لما كتب السيد محمد كريم ، حاكم الإسكندرية ، إلى مراد يطلب منه إرسال كمية من البارود ليتهيأ للدفاع عنها أمام نابليون ، وأرسل كريم ثلاثة عشر رسولا إلى مراد ، فى ليلة واحدة . ومع أن مسيو روسيتى ، قنصل النمسا فى مصر فى ذلك الوقت ، نصحه ، وألح عليه فى إسعاف حامية الإسكندرية بحاجتها . مع هذا كله لم يرسل مراد سوى قنطارين من البارود ، بعد تردد طويل .

ومن غرور مراد ، أنه ، عندما أبلغه قنصل النمسا هذا بقدوم نابليون إلى مصر ، قال له مراد مستهزئا : « كيف نخاف من هؤلاء الرعاع ، الذين لافرق

(١) ذيل ثوبه .

بينهم وبين الواقفين بأبوابنا ... ؟، وإن فرض وصولهم إلى أرض مصر ، فماليك الخزنة وحدهم يكفوننا مؤونة قتالهم ، ويقطعون دابرهم » .

ثم كان من جهله ، أن طلب من القنصل أن يكتب إلى نابليون ، بعد دخوله الإسكندرية ، ليخرج منها . فقال له روسيتي : إنه لم يدخلها بإذني حتى يتركها بإذني . فإن كان لابد من إرسال كتاب إلى نابليون ، فأرسل معه خمسين ألف فرنك حتى يرحل[1] .

وكان مراد يقول عن الفرنسيين القادمين : إنهم « فستق » خلق للأكل ، لا للحرب . وسنرى بعد ، كيف كان حاله في حربهم . ؟

وبعد أن هرب مراد إلى الصعيد ، أرسل له القنصل كارلو ، وكان صديقا له ، يدعوه إلى التسليم بسيادة فرنسا على مصر ، وأن يدخل في طاعة نابليون ، على أن يجعله حاكما على جرجا ، وعضوا في ديوان الأحكام . فقال له مراد « إرجع إلى نابليون ، وقل له يجمع عساكره ، ويرجع إلى الاسكندرية ، ويأخذ منا مصروف عسكره ، عشرة آلاف كيس . ويكسب دما أجناده ، ويريحنا من كفاحه ، وجلاده[2] .

ومن حماقة مراد ، أنه عندما جاءه كتاب بقدوم الفرنسيين الإسكندرية ، « طرح الكتاب من يده ، وصاح على عساكره وجنـــده ، واحمرت عيناه ، واضطرمت النار في أحشاه ، وأمر بإحضار الخيـل للركوب . وسار إلى منزل إبراهيم بك على ذلك الأسلوب ، وهناك التقى بالأمراء ، والعلماء ، والوالي التركي بكير باشا ، وخلق كثير . فنظر مراد إلى بكير باشا وقال له : إن هؤلاء الفرنساوية ما دخلوا هذه الديار ، إلا بإذن الدولة العثمانية . ولابد الوزير عنده علم بتلك النية . ولكن القدرة تساعدنا عليكم وعليهم ... !

فأجابه الوزير : لا يجب عليك أيها الأمير أن تتكلم بهـذا الكلام العظيم

(١) خطط علي باشا مبارك ، ص ٧٥ جزء ٧ نقلا عن كلوت بك .
(٢) ذكر تملك جمهور الفرنساوية . ص ٤٠ طبع باريس سنة ١٨٣٩ لنقولا الترك .

ولا يمكن أن دولة بني عثمان تسمح بدخول الفرنساوية على بلاد الإسلامية .
فدعوا عنكم ذلك القال ، وانهضوا نهوض الأبطال ، واستعدوا للحرب والقتال [٢]

فراد ، وهو مقبل على حرب نابليون ، لا يستبق صداقة الدولة ، ولو ظاهرا ،
بل يبادئها بالخصومة ، والاتهام . وقد لقي من بكير باشا ما يستحق من رد .

ومما ذكره الجبرتي عن مراد : أن طائفة من عرب البحيرة شكوا إلى
إبراهيم عدوان آخرين عليهم ، فكلف إبراهيم مراداً أن ينظر شكواهم ، وينصفهم .
واستمع مراد إلى شكوى الشاكين ، ثم سافر معهم إلى البحيرة لينصرهم .
ولكن المعتدين اتصلوا به سرا ، وقدموا إليه رشوة ، فتركهم . وانقلب إلى
الشاكين فهاجم بيوتهم في غفلة منهم ، ونهب مواشيهم ، وإبلهم ، وأغنامهم ،
وقتل جماعة كبيرة منهم ، ثم عاد إلى القاهرة .

وفي منتصف ربيع الأول من سنة ١٢٠٠ شرع مراد في السفر إلى الوجه
البحري للقبض على أعراب كانوا يقطعون الطرق . وسمع هؤلاء بمقدمه فهربوا ، وطلب
من أعيان البلاد أن يحضروهم ، فاعتذروا ، فأخذ منهم أموالا وتركهم . ثم نزل
إلى بلدة « طملوها » فطالب أهلها بالهاربين ، فلما لم يجدهم نهب القرية ، وسبى
النساء ، والأولاد ، ثم أمر بهدمها وحرقها ، ومحو أثر بيوتها بالجراريف ، حتى
سواها بالأرض . وفرق جنوده وكشافه على البلاد الأخرى ، لجباية الأموال ،
وقرر على البلاد ، والقرى ، ماشاء منها . فإذا استوفى جنوده ما فرضه طلبوا
لأنفسهم « حق الطريق » [٢] ثم « المقرر » وكل بلد أو قرية تمتنع عن دفع
ما فرضه ، مهما كان معجزا لهم ، نهبها وحرقها .

ولم يزل مراد في سيره على هذا النسق ، حتى وصل إلى رشيد ، ففرض على
أهلها ضريبة فادحة ، فهرب غالب أهلها . وعين على الإسكندرية جابيا ، اسمه
صالح أغا ، وقرر له خمسة آلاف ريال « حق طريق » وفرض لنفسه عليها مائة

(١) ذكر تلك جمهور الفرنساوية ص ٢٢ — ٢٤ .
(٢) تجد تفسير هذا الاصطلاح في الجزء الأول من هذا الكتاب .

ألف ريال . وأمر بهدم كنائسها . فلما علم تجارها ذلك هربوا إلى المراكب ، وكذلك غالب النصارى . وعاد مراد فهدم فى طريق عودته بلادا منها جمجمون ، ودسوق . ثم عرج على الشرقية ، ففعل ببلادها وأهلها مثل ذلك ، وكان أمراؤه الذين تركهم فى القاهرة . يفعلون بأهلها مثل مايفعل كبيرهم بأهل البلاد والقرى .

وخرج مراد مرة إلى أبى زعبل ، فوجد طائفة من الأعراب فى خيامهم ، لم يفعلوا ذنبا ، فنهبهم ، وأخذ أغنامهم ومواشيهم . وقتل منهم أكثر من عشرين ، بينهم الشيخ والغلام . وقبض على مشايخ البلد فحبسهم ، وفرض عليهم أحد عشر ألف ريال . وهرب من حولها من الأعراب ، قبل أن يدركهم مراد .

ويبدأ الجبرتى حديثه عن سنة ١٢٠٧ بهذه البداية « استهل المحرم بيوم الخميس . والأمر فى شدة من الغلاء ، وتتابع المظالم ، وخراب البلاد ، وشتات أهلها وانتشارهم بالمدينة — القاهرة — حتى ملأوا الأسواق ، والأزقة ، رجالا ، ونساء ، وأطفالا . يبكون ويصيحون ، ليلا ، ونهارا ، من الجوع . ويموت من الناس ، فى كل يوم ، جملة كثيرة من الجوع » .

وذكر الجبرتى أن مرادا اتهم بدس السم ، للسيد محمد البكرى .

هذه كانت حال مصر وأهلها . وهكذا كان يصنع بها ، وبهم ، مراد . أما هو ، فكان ينعم بترف من العيش الرغيد . يتوسع فى بناء قصره بالجيزة ، يزينه وينمقه ، ويبنى تحته رصيفا محكما ، وينقل إلى حدائقه الفسيحة الأشجار ، والنخيل ، والأعناب . ويضيف إليه ماشاء من أرض حتى استخلص إقليم الجيزة كله لنفسه . واقتنى فيه الأبقار ، والجواميس الحلابة ، والأغنام المختلفة الأجناس . وأنشأ بساتين واسعة ، فى قصوره الأخرى . وكان يخرج للصيد فى أغلب أوقاته . ويجالس الندماء ، والظرفاء ، ويلعب الشطرنج ، ويسمع الآلات ، والأغانى .

وقد وجد جنود نابليون عندما دخلوا قصره بالجيزة . فراشا فاخرا ، وحرائر موشاة الأطراف بالذهب ، والفضة ، وأشياء من مفاخر الصناعة الأوروبية[1] مع

(١) فتح مصر الحديث ص ٢٧ المرحوم أحمد حافظ عوض .

أنه كان أخلى قصوره من كل شيء ثمين ، وأخفاه على أمل أن يعود مرة أخرى .

كما وجد الفرنسيون فى ثياب كل قتيل من المماليك ، فى موقعة إمبابة ، مالا يقل عن مائتين ، أو مائتين وخمسين ، قطعة من الذهب . عدا ماتقدر به هذه الثياب من مال كثير .

وقد كانت سياسة مراد الطائشة ، نحو الأجانب ، والمغارم التى كان يوقعها بهم ، والمصادرات التى كان يفرضها على أموالهم ، سببا ، أو ذريعة ، اتخذها نابليون للحملة على مصر .

فقد استنفد مراد ، بقسوته وطيشه وظلمه ، موارد مصر ، واستنزف كل ما فيها من ثورة . ثم التفت إلى الأجانب ، والفرنسيين خاصة ، حيث كانت لهم متاجر رابحة فى القاهرة ، والاسكندرية ، ورشيد . فأثقل عليهم بالضرائب الباهظة ، والمغارم الجائرة . والمصادرات المجحفة . وأنشأ ديوانا ، سمى « ديوان البدعة » أنشأه فى رشيد ، وفرض ، عن طريقه ، دينارا على كل أردب من القمح يحمل إلى الخارج . غير ما كان يتقاضاه ، هو ورجاله ، من الرشاوى .

وقد أكثر التجار الأجانب من الشكوى . وتدخل الباشـــا ، نائب الدولة فى مصر ، مرارا ، ولـكن جهده كان يذهب عبثاً . ولم يزد مراد إلا ظلما ، وجورا . فأرسل التجار الفرنسيون بشكواهم إلى حكومة الجمهورية . وقد تـكون هذه الشكوى متفقا عليها بين هذه الحـكومة وهؤلاء التجار ، لتتخذها هذه الحـكومة سببا للحملة على مصر . ولـكن مما لا شك فيه ، أنه كان لهذه الشكوى أكثر من مبرر .

وقد أدرك المصريون أنفسهم هذه الحقيقة ، حيث ذكر الجبرتى ، أكثر من مرة ، أن عدوان مراد على التجار الأجانب ، ونهبه أموالهم ، كان من أكبر أسباب الحملة الفرنسية . بل قال ذلك شيخ كبير هو الشيخ السادات . فى مواجهة مراد . قال الشيخ ذلك عند ما اجتمع الأمراء والعلماء ليدبروا أمرهم عند قدوم نابليون ، فتكلم السادات ، وخاطب الأمراء « بالتوبيخ » ، وقال : كل هذا من سوء فعالـكم ،

وظلمكم . وآخر أمرنا معكم ملكتمونا للإفرنج . وشافه مرادا بقوله : وخصوصاً بأفعالك وتعدّيك ، أنت وأمرائك ، على متاجرهم ، وأخذ بضائعهم ، وأهانتهم .

وقد صدق الجبرتى عندما قال : إن مرادا « كان من أعظم الأسباب فى خراب الإقليم المصرى » ولم يذكر له فضيلة واحدة سوى أنه كان « يحب العلماء . ويتأدب معهم ، وينصت لكلامهم ، ويقبل شفاعتهم . ويميل طبعه إلى الإسلام والمسلمين » .

وقد مات مراد ، بالطاعون ، فى سوهاج ، فى اليوم الرابع من ذى الحجة سنة ١٢١٥ (اريل ١٨٠٠ م) أى بعد دخول نابليون مصر بثلاث سنين . وكان فى طريقه إلى القاهرة ، باستدعاء الفرنسيين . ودفن عند الشيخ العارف ، بسوهاج .

كان فى طريقه إلى القاهرة لمساعدة الفرنسيين فى حربهم مع الحملة الإنجليزية التركية ، التى قدمت لإخراجهم من مصر . وكان الفرنسيون قد عقدوا معاهدة مع مراد ، تفرض عليه مساعدتهم حربيا ، إذا احتاجوا لهذه المساعدة .

وقد حزن الفرنسيون لموته حزنا شديدا . ونعاه الجنرال مينو فى آخر منشور منه لأعضاء الديوان . وذكره بعبارات فيها كثير من الجزع ، والحزن ، والتفجع ، والتقدير لصداقته ، وإخلاصه لهم .

وقد كان مراد ، بعد استقرار الأمر للفرنسيين ، تابعا ذليلا لهم . فعندما ظهرت عليه جيوشهم ، وأحبطوا ثورة القاهرة مرتين ، وفرضوا على أهلها المغارم الثقيلة ، كان مراد يجول ومعه قليل من جنده فى الجيزة ، رافضا أن يشترك مع المصريين وجند الدولة ، فى مقاومة الفرنسيين . بل كان يترقب وينتظر . فلما ظهرت غلبة الفرنسيين . اتصل بالجنرال كليبر ، لعقد صلح معه . ودعاه إلى وليمة فى جزيرة الذهب ، بالقرب من الجيزة ، قدم فيها « الطعام وآنية المدام » كما يقول نقولا الترك ، واتفق معه على أن يكون حاكما على الصعيد . وأن يجعل قاعدته

مدينــــة جرجا ، وأن يدفع للفرنسيين الضرائب . وأن الفرنسيين إذا خرجوا من مصر ، لا يسلمونها إلا إليه ، وأهدى إليه مراد ، سيفاً ثميناً ، وخنجراً ، وقدم إلى رجاله الهدايا . ثم طلب أن يستعرض معه بعض جنود فرنسا . فاستعرضها معه كليبر . وعرض عليه مراد أيضاً بعض فرسان المماليك . ثم سافر إلى جرجا ، خادماً للفرنسيين .

وعندما ضاق الأمر بالمصريين ، وفتــكت بهم مدافع الفرنسيين . أرادوا أن يستعينوا بمراد ، فأبى أن يجيء لعونهم ، أو يرسل إليهم جنده ، أو بعض جنده . بل طلب إليهم أن يصالحوا الفرنسيين ، ويكفوا عن المقاومة . بل فعل أكثر من ذلك . كان يحرض القاهريين على المقاومة ، وهو في الوقت نفسه ، يرسل هدية عظيمة للجنرال كليبر ، دليلا على مودته ، وإخلاصه . ثم يعرض عليه الصلح ، ويصالحه . ولــكنه يخفي ذلك عن أنصاره وأصدقائه ، ويرسل ، في الوقت نفسه أيضاً ، إلى قائد الجيش العثماني يقول : إنه يقيم في طره حارساً يمنع عن الفرنسيين خيرات الصعيد .

الألفي والبرديسي

محمد بك الألفي ، وعثمان بك البرديسي ، زعيمان من كبار المماليك ، عاشا في عصر واحد ، وماتا في عام واحد . والرأي فيهما ، عند الجبرتي ، مختلف جدا ، ومتباين إلى أبعد حدود التباين ، والتناقض .

أما أولهما ، فالجبرتي شديد الإعجاب به ، والتقدير له ، والثناء عليه ، بلا تحفظ ولا حيطة ، يذكر له بعد النظر وشدة الحذر ، والحرص البالغ على بقاء المماليك ، وإعادة مجدهم ، وسلطانهم الذي أوشك محمد علي أن ينزعه منهم في ذلك الوقت . ويذكره بكثير جدا من الإشفاق ، والمرثية . لأنه لم يجد عند البرديسي ، وعند إبراهيم بك ، أيضاً ، غير الصلابة ، والعناد ، والمــكابرة ، والحقد . وهو لا يقصد إلا خيرهم ، وخير المماليك ، ويقبل أي شيء ، ويقدم على كل شيء ، حتى يتغلب على

عدوه، وعدوهم، محمد على. وتعد ترجمة الألفى، من أجود ما كتبه الجبرتى في تاريخه كله.

وأما البرديسى، فالجبرتى شديد الكراهة له، والذم فيه، والقسوة عليه، يصب عليه اللعنة، ويجعله شؤما، أى شؤم، وسببا لانتهاء دولة المماليك وسلطانهم، وتمكين محمد على منهم ومن مصر، بسبب هذه الصلابة، وهذا العناد الذى وقفه من الألفى، وانحيازه أول الأمر لمحمد على ومعونته له، وخديعته فيه. وبسبب غروره، وحقده، وقصر نظره، وجهله.

كان الألفى من مماليك مرادبك، اشتراه فى سنة ١١٩٠ رجل من المماليك ثم باعه بعد أيام، لأنه كان مزّاحاً، سفيها. فطلب إلى سيده أن يبيعه، وأهداه سيده الجديد إلى مرادبك زاهدا فيه أيضاً. فأهداه مراد فى نظيره ألف إردب من القمح. لذلك سمى بالألفى. وكان معتدل القامة، جميلا، أبيض اللون، مترفا، حسن اللباس، معجبا بنفسه، كما كان قوى الشكيمة، صعب المراس، فائق الشجاعة، له بأس شديد، وحرص بالغ. وقد جملت هذه الصفات سيده، مراد بك، يسرع بتحريره وتنصيبه أميرا بعد سنتين من شرائه. وعند ذلك استقل الألفى بشئونه، وظهرت مزاياه، وصفاته النفسية. وكان من أهمها الكتمان. فقد كان لا يظهر مافى سريرته أبدا، ولا يبدى طويته لأحد. بل يكثر من التفكير، والتدبر، فاذا انتهى تفكيره إلى رأى، أقدم على تنفيذه حذراً، متيقظاً. ولا يعرف أقرب الناس إليه ماذا دبّر، وماذا يريد أن يفعل. وكان سيده أعطاه أرضاً بالالتزام فى ناحية فرشوط بالصعيد، وأخرى فى المنوفية، فكسب فيها محبة الناس، وتقديرهم، وثناءهم.

وكان لعلو همته لا يساوم تاجرا فيما يشتريه، بل يدفع لهم مايطلبون من ثمن، ولو اشتطّوا، ويأمر عماله وموظفيه، أن يدفعوا لكل بائع ما يفرضه من الثمن لبضاعته.

وكان الألفى حازما، رقيقا، معاً. عين كاشفا للشرقية، وأقام فى بلبيس عاصمتها إذ ذاك، فخاف أعرابها من بطشه، وصرامته، وأحبه الفلاحون لرقته معهم وعطفه عليهم. وقد سجن الألفى كثيرا من زعماء العرب، وساقهم فى

القيود والأغـــلال ، وصادر أموالهم ، وفرض عليهم الضرائب الـكثيرة ، وردّ ظلمهم عن الفلاحين . وكان هؤلاء العرب وزعماؤهم ، يحبونه ، ويظهرون له غاية الإمتثال والطاعة . ويسارعون لتلبية أمره وإشارته . ولعل من أسباب ذلك أنه كان خبيرا بطبائعهم ، محيطا بأحوالهم ، وشئونهم ، دارساً لنفسياتهم . وقد تزوج كثيرات من بنات قبائلهم ، ولـكنه لم يستبق إلا واحدة .

وكان فى أول شبابه ، جبارا ، معتديا ، اختلف مع جار له من كبار المماليك ، فأمر خدمه أن يضربوه ، ومات بعد يومين . وخشى مراد بك الفتنة ، فأمره بالخروج من القاهرة إلى البحيرة ، ثم أعاده بعد فترة من الزمن .

ثم تمرّس الألفى بالأيام ، وأفاد من دروسها ، وعبرها ، فاعتدل . وكان قد ترك القاهرة فرارا من بعض الفتن ، واغترب أكثر من أربع سنوات عنها . فلما عاد مالت نفسه إلى مطالعة الـكتب ، ودراسة علوم الهندسة ، والفلك ، والتقاويم والنجوم ، والتاريخ . فاقتنى فى ذلك كله كتبا كثيرة ، وطلب العلماء فى هذه العلوم ليجلس إليهم ، ويفيدمنهم . وآثر الوحدة والقراءة ، على المشاركة فى الفتن والأحداث العامة . وترك كثيرا من أملاكه لرجاله ومماليكه . ولـكنه وجد أن هذه الوحدة وهذا التباعد والترفع ، أضعفت هيبته ، وجرّأت عليه كثيرين من المماليك ، حتى غضب له رجاله ، وعيّروه ، وطمع الأدنياء فيه ، وترفع الضعفاء عليه . فرجعت نفسه إلى حب السيادة والتطلع للجاه والسلطان ، وأقبل على شراء المماليك . يبذل فى ذلك أموالا جسيمة حتى صار له ألف منهم ، غير أربعين من الأمراء الذين يحكمون الأقاليم الـكثيرة ، ويملـكون البلاد الواسعة . وكان يزوجهم وينفق فى جهازهم مالا كثيرا ، ويعطيهم القصور الباذخة . وبنى له بيتا فى صحراء بلبيس ، كان يقيم فيه ثلاثة شهور أو أربعة من كل عام . واقتنى بيتا من خشب ، وحديد ، كان ينقله حيث شاء . يتسع لثمانية من الناس ، نومهم وإقامتهم ، وبنى قصوراً كثيرة منها قصره الذى وضع رسومه بنفسه وأبدع فى بنائه وزخرفته إلى أبعد غاية . وركب فى سقوفه النجف الثمين ووضع فى حجراته وردهاته ، التحف الغالية التى أهدتها إليه الحـكومة الإنجليزية . وفرشه بأندر أنواع السجاد ، والوسائد الحريرية ، والستائر . وأنشأ خلفه

بستانا عظيما ، وبنى فيه قصورا أخرى لخاصة مماليكه . وأهدت إليه الحكومة الإنجليزية فسقية عظيمة من الرخام ، فيها تماثيل لأنواع من السمك تمج الماء من أفواهها ، فوضعها فى بستان القصر . ولما بنى من هذا القصر قسم كبير ورآه الألفى ، لم يعجبه . فأمر بهدمه وبنائه من جديد ، فلما تم تشييده على ما يرضيه ، وضع له الشيخ حسن العطـــار ، بيتين من الشعر نقشهما بماء الذهب على باب القاعة الكبرى التى خصصها لمجلسه ، وهما : —

شموس التهانى قد أضاءت بقاعـــة

محاسنهـا ، للعين ، تزداد بالألف

على بابها قال السرور مؤرّخـــا :

سماء سماداتى تجـــدد بالألفى

وكذلك هنأه شعراء آخرون ، وتزاحمت الأمراء على بابه . وقد أقيم هذا القصر بالأزبكية على بركة الرطلى . وبناه الألفى بلا رواشن ، ولاخرجات ، ولا بروز . فكانت نوافذه كلها من الجدان . وتم بناؤه فى آخر شعبان من سنة ١٢١٢ ، وأقام فيه ستة عشر يوما لاغير . فقد تركه فى منتصف رمضان إلى الشرقية . وفى غيبته جاء نابليون ، ثم دخل القاهرة فجعل من هذا القصر سكنا له ، ومقرا لقيادته . ثم استولى عليه محمد على بعد ذلك وأقام فيه . ولم يدخله الألفى بعد خروجه منه . وقد بقى جزء من هذا القصر هو الذى كان فيه فندق شبرد ، إلى أن احترق فى سنة ١٩٥٢ فى حريق القاهرة الذى وقع فى ٢٦ يناير من تلك السنة .

ومع هذه القصور الباذخة التى بناها الألفى ، وحبه للترف والنعيم ، فقد كان بسيطاً فى معيشته وحياته إذا شغلته الحروب والأزمات . كان إذ ذاك ، لايدخل إلى حريمه . بل يبيت فى إحدى الحجرات أسفل البيت ، وينام على سجادة . ولم تكن تلهيه رغائب الحياة ، أوصغار أمورها عن جلائل المطالب والغايات . وكان يغضبه من رجاله ، أن تلهيهم تلك عن هذه .

يقول الجبرتى : إنه زاره يوما ، بعد خروج الفرنسيين — والعثمانيون يتحفزون

للعودة إلى القاهرة — وكان متوجسا من عودتهم . فلما دخل عليه وجده جالسا على سجادة . ثم دخل بعده واحد من أمرائه يستأذنه فى زواج سيدة مات عنها زوجها الأمير . فزجره الألفى وعنّفه ، وأخرجه من مجلسه ، ثم قال للجبرتى : انظر إلى هؤلاء المغفلين ، يظنون أنهم استقروا بمصر ، وأمنوا ، ولم يبق إلا أن يتزوجوا وينعموا . مع أننا ، بين محمد على ، وبين العثمانيين ، لانعرف ماذا يكون من أمرنا غدا .

وقد صدقت فى ذلك فراسة الألفى ، إلى أبعد غايات الصدق . فقد دخل العثمانيون القاهرة . وتودّد الوالى إلى كبير المماليك إبراهيم ، وأعطاه شيئا من السلطة . فانخدع هذا ، وبقية الأمراء . ولكن الألفى لم ينخدع ، وتحدث إلى الأمراء بأن هؤلاء العثمانيين ، يخادعوننا ، وسوء الظن من حسن الفطن . ثم قال : كيف نحسن الظن بالعثمانيين : وقد حرمناهم ثمرة انتصارهم علينا فى عهد السلطان سليم ، ولم نترك لهم من حكم مصر سوى المظهر . وكثيرا ما منعنا عنهم الجزية ، وأخرجنا واليهم مطرودا من القاهرة . وقد ذاق العثمانيون خيرات مصر ، وعرفوا متاعها ، فلا يمكن أن يتركوها لنا وفيها جيوشهم .

وكان الرأى عنده ، أن يأخذ المماليك جانب الحذر ، من العثمانيين ، ولا يأمنوهم حتى تخرج جيوشهم من مصر ، ويعود الأمر فيها كما كان . للمماليك السلطة والحكم ، وللعثمانين الجزية ، ووال يقيم فى القلعة ، ويبقى مادام حائزا لرضاهم ، ولا يعترض على أمر لهم . ونصح لإخوانه من الأمراء ، أن يخرجوا إلى الجيزة ، فيقيموا فيها ، ويحملوا من الإنجليز — وكان معسكرهم فى الجيزة أيضا — وسطاء بينهم وبين العثمانيين فى الخروج من القاهرة ، والعودة إلى الحال الذى كان قبل قدومهم لحرب نابليون . وقال قائل منهم : كيف نلجأ إلى الإنجليز وهم غير مسلمين ..؟ فيحكم علينا العلماء بالكفر . فأجابه الألفى بأنه لا بأس علينا فى ذلك ولا لوم . فقد استعان العثمانيون أنفسهم بالإنجليز . واستنجدوا بهم ليعينوهم على حرب الفرنسيين ، وإخراجهم من مصر ، ولولاهم لما خرجوا . وقد أراد العثمانيون أن يحاربوا الفرنسيين فى مصر ، وأن يخرجوهم ، فلم يستطيعوا ، كما تعلم جميعا . على أننا لن نشارك الإنجليز فى حرب ، ولن نأذن لهـم

بالبقاء فى مصر . ولن نحارب معهم أهل ديننا من العثمانيين . بل سنحجملهم وسطاء عند أصدقائهم العثمانيين حتى لا يخدعونا أو يغدروا بنا . وعندما يترك الجيش العثمانى القاهرة ويخرج الإنجليز من البلاد ، نعقد معهم اتفاقا سياسيا · ويكون الحكم لنا دون الجميع .

ولم تقنع حجج الألفى إبراهيم بك وبقية الأمراء . فطلب هو من الوالى يوسف باشا أن يقلده إمارة الصعيد ، يريد بذلك أن يترك القاهرة ، وفرح الوالى بذلك ليستريح منه ومن رجاله . ولام الوزيرَ بعض رجاله على أن يترك الألفى يفلت من يده . وأدرك خطأه فأرسل مسرعا بعض رسله إلى الألفى ليعود فيوصيه ببعض الأمر ثم يسافر . ولكن الألفى كان ، فى سرعة فائقة ، قد أبعد عن القاهرة أميالا كثيرة ، ثم استقر فى أسيوط . وكان بعد ذلك ماخشيه الألفى وحذر منه ، فقد عاد الوالى بعد قليل فكفّ إبراهيم بك عن قليل السلطة التى كان قد مكنه منها . وبعد شهور ثلاثة أخذ من فى القاهرة من المماليك فسجنهم ، وأقام قبطان باشا حفلا بحريا لمن كان يقيم منهم فى الإسكندرية ثم قتل منهم جماعة غدرا · ولم يخلّص من بقى من المماليك إلا وساطة الإنجليز .

ثم جرد الحملات واحدة إثر واحدة لحرب الألفى فى الصعيد ، فلم تفلح منها واحدة فى هزيمته . ويقول الجبرتى : إن الوالى محمد باشا خسرو أخرج حملة عظيمة جعل نائبه يوسف بك قائدا لها ، وجمع لها حمير السقائين، والحمالين، والكلاف، وفرض على أهل بولاق ألف حمار . وكان جنوده يخطفون حمير الناس ، ويأخذونها غصبا فسمى أهل القاهرة هذه الحملة (تجريدة الحمير !) وكان بعض العثمانيين يضع فمه على ثقوب أبواب البيوت . ثم يقول بصوت عال « زَرّ » فإذا سمع نهيقا من داخل البيت اقتحمه ، وساق مافيه من الحمير . وكان الألفى إذ ذاك ترك الصعيد ، وسار من خلف القاهرة إلى البحيرة . وعند دمنهور حاربته (تجريدة الحمير) هذه · وكان مع الألفى جماعة من الإنجليز يشهدون المعركة ، وقدروا جيش العثمانيين بأربعة عشر ألف رجل . وكان جيش الألفى بضع مئات من الفرسان · فنصحه الإنجليز بألا

يحارب . ولـكنه اقتحم بفرسانه جيش العثمانيين ، وأوقع فيه هزيمة منكرة ، وأسر منـه سبعمائة بأسلحتهم . ولـما عاد قائد الجيش ومن بقى من جنوده ، أبى الباشا فى القاهرة أن يعطيهم رواتبهم لأنهم — كما قال لهم — لم يفلحوا فى شىء .

وبعد ذلك سافر الألفى مع أصـدقائه الإنجليز إلى بلادهم ، وقد أعجبوا به وبفرسانه يوم الموقعة أعظم إعجاب . وأخذ الألفى معه خمسة عشر من رجاله ، وأقام مملوكه بشتك بك — ويعرف بالألفى الصغير — نائبا عنه فى مصر . وخرج من مصر فى منتصف شوال سنة ١٢١٧ فأقام فى إنجلترا سنة ونحو شهر . فلما عاد ، فى أول ذى العقدة من السنة التالية ، كانت قد جرت فى القاهرة أحداث هامة، انتهت بعودة السلطة إلى أتباعه وإخوانه من المماليك . وكان هؤلاء ومعهم محمد على ، أخرجوا العثمانيين ، وقتلوا ، أو نفوا ، عددا من رؤسائهم .

عند ذلك لم يجد محمد على خصما يخشاه غير الألفى، فتودد إلى البرديسى ، واستغل حقده على الألفى ، وغروره بنفسه . وكان يجالسه فى مجلس الشراب ويمنيه بأن يستقل بحكم مصر ، وسيجعل محمد على جنودَه خدما له . فلما عاد الألفى ، وأراد أن يجمع شمل المماليك . ويوحد قوتهم ضد محمد على ، استمع إليه إبراهيم بك . ولـكن البرديسى لم يرض إلا خصومة الألفى والإصرار على حربه . وكان بشتك بك قد انخدع أيضا بمحمد على والبرديسى ، بعض الشىء ، ولم يعتقد أن البرديسى يقدر على حرب الألفى ، فأعانه على تمـكين سلطته فى غياب سيده .

عرف محمد على أن الألفى عائد إلى القاهرة . وكان يقول إنه لن يهنأ له فى مصر عيش مادام فيها الألفى . فجمع كل حيلته ، واستعان بكل دهائه ، وقد عرف نفسية البرديسى ، واستطاع بهذا وذاك أن يمكن الخصومة بينهما ، وأن يجعل البرديسى يمتلىء بالـكراهة والحقد على الألفى ، والخوف على نفوذه ، وحياته ، إذا رجع إلى القاهرة . وكذلك استطاع محمد على وحليفه البرديسى أن يدخلا كثيرا من الحقد والـكراهية إلى نفوس طائفة أخرى من المماليك ، ضد الألفى .

فى اليوم الثالث من ذى القعدة سنة ١٢١٨ نزل الألفى مدينة رشيد عائدا من انجلترا، وأرسل حاكمها يحيى بك البرديسى بهذا النبأ إلى القاهرة . فأطلق الأمراء المدافع ، وأوقدوا القناديل إظهارا لسرورهم بعـودة كبيرهم ، وأخذوا يجمعون التحف والهدايا ليلقوه بها . ولـكنهم أخفوا فى نفوسهم غير ما أظهروا . إذ كتب البرديسى إلى يحيى بك حاكم رشيد بأن يقتل الألفى . وكان هذا حذرا ، كعادته ، إذ أمر حاكم رشيد ألا يرسل بنبإ قدومه إلى القاهرة ، حتى يكون دخوله إليها مفاجئا . ولـكن يحيى بك بادر بإبلاغ النبأ . ولما سأله يحيى بك عن الأجل الذى يعتزم أن يقيمه فى رشيد ، قال له الألفى : سنبقى فيها ستة أيام لنستريح . ولـكنه بعد ليلة واحدة تركها ونزل فى بيت القنصل الإنجليزى . وكانت هذه الحيطة سببا فى أن يحيى بك لم يتمكن من قتله ، عندما جاءه أمر البرديسى بذلك .

أما فى القاهرة ، فقد أظهر البرديسى وجماعته أنهم خارجون للترحيب بزعيمهم الألفى . وطلبوا إلى حسين بك الوشّاش ، من كبار الأمراء الألفية ، أن يخرج لملاقاتهم ليلا ، فلما التقى بهم شجعوه على أن يسير معهم لملاقاة الألفى . وكانوا قد أوقفوا جماعة منهم يحملون المشاعل أمام بيت الألفى . فأوهموه أن بشتك بك — الألفى الصغير — خارج أيضا للقاء سيده . وهذه مشاعل رجاله . فانخدع حسين بك بذلك ، وأمر مرافقيه من المماليك أن يعودوا فيحضروا فرسه وأفراسهم لمرافقة القوم . فلما أبعد مماليـكه عنه قتله جماعة البرديسى ، وأسرعوا فأخبروه بنجاح الخطة . وكان محمد على مشتركا فى هذه المؤامرة . يحيط برجاله قصر الألفى ليقتل بشتك بك عندما يصله نبأ مقتل حسين الوشاش . ولـكن مملوكا من رجال الألفى تسلل إلى القصر مسرعا وأخبر بشتك بك بما كان ، فأسرع هذا بالهرب ، ولم يستطع محمد على أن يلحق به ، واتجه إلى الصعيد ، ودخل جنود البرديسى ومحمد على قصر الألفى ، فنهبوا ما فيه من الأشياء الثمينة .

وأما الألفى الـكبير ، فقد أنزل أثقاله وأمتعته وما جاء به من إنجلترا فى أربع سفن ، وأهدى اليه القنصل الإنجليزى سفينة لينزل بهـا . وسارت به السفن

الخمس في النيل، يقصد القاهرة مسرعا ليصلها في وقت لا ينتظره من فيها من الأمراء . ولكن الريح عاكست سفنه . وفي قرية من قرى المنوفية ، التقت سفن الألفي بأربع سفن تحمل جندا من الأرنؤود — جند محمد علي — وفهم بعض أتباعه من حديثهم مع هؤلاء الجند أنهم يتحدثون عن الألفي . فلما أبلغوه ذلك تعجب منه كل العجب ، وأوشك ألا يصدقهم ، ولكنه أخذ حيطته وأسرع إلى مكان نزل منه إلى البر . ولقيه رسول من قبل بعض المخلصين له فأبلغه تفصيل ما فعله البرديسي ومحمد علي . وتأكد عنده ما كان لا يصدقه .

عند ذلك أمر الألفي بتغريق سفنه ، وأسرع بالسير ، وكانت هذه المنطقة كلها تعج بطوائف المطاردين له ، كلّ يريد أن يسبق بأخـذه إلى البرديسي لينال مكافأته . وكان الألفي ومن معه من الأمراء يسيرون على أقدامهم ، فدخل نجع عرب الحويطات في ناحية قرنفيل ، ولجأ إلى سيـدة من بنات العرب فأجارته . وأحضرت له فرسا ، وأمرت رجلين من رجالها بأن يصحبوه ، كل واحد منهما ركب هجينا ، ومماليكه راجلون يسيرون من خلفه ، والتقى به عند الخانكة جماعة من مطارديه ، وأحاطوا به ، فحاربهم مماليكه . وتسلل هو في أثناء المعركة فأفلت منهم . وكان البرديسي قريبا من هذه المعركة يصل إلى سمعه صوت رصاص البنادق، ولكنه بعد انتهائها لم يجد له أثرا ، رغم ما بذل من جهد عظيم . ولقيته بعد ذلك جماعة أخرى من المطاردين ، فلما رأى أنهم سيأخذونه . ألقى بينهم ما معه من الذهب والجوهر، والثوب الثمين الذي يلبسه . فشغلوا بذلك عنه ، واستطاع أن يفرّ منهم فلم يجدوه .

وبذل البرديسي كل حيلته وجهده ليقتل الألفي ، أو يأخذه أسيرا ، فلم يستطع . فرّق جنوده ورجاله في البر ، والبحر ، على بلاد القليوبية : والمنوفية ، والشرقية ، والبحيرة . وفي طريق الجبل الذاهب إلى الصعيد ، وجعل خمسة من كبار مماليكه على رأس هذه الفرق المطاردة ، وكان محمد علي على رأس الفريق الذاهب إلى القليوبية . وأذن البرديسي أيّ رجل من المطاردين يجد الألفي ، أن يقتله لفوره . وأوشكوا أن

يدركوه مرة أخرى عند منوف ، ولـكنه ترك لهم خيوله وجماله وأثقاله ، ونجى بنفسه . ففرضوا على أهلها أربعة آلاف ريال عقوبة لهم . وقتلوا بعض رجال من العرب لأنه مر بديارهم . أخذوهم فشنقوهم فى عمائمهم . وقد ظلت هـذه المطاردة على عنفها وشدتها ، نحو عشرة أيام . أدرك بعدها البرديسى ، ومحمد على ، أنهم عاجزون عن صيده . فاكتفوا بأن أوصوا حكام الأقاليم الموالين لهم بالبحث عنه ، وعن الألفى الصغير .

وأدرك رجال البرديسى السفن التى كانت تحمل متاع الألفى . فأخذوا مافيها من الأموال ، والطرائف ، التى أهديت إليه فى انجلترا ، والأسلحة، والجواهر . وكان اشترى بضائع بأربعة آلاف كيس (نحو عشرين ألف جنيه) وحمل هذه البضائع على أن يدفع ثمنها لقنصل إنجلترا بعد رجوعه إلى مصر . فنهب هذا كله. وكان ذلك سببا فى أن زار القنصل إبراهيم بك ، والبرديسى ، وتحـدث إليهما فى ذلك ، وفى الاعتداء على الألفى حديثا شديدا ، ثم سافر من مصر إلى بلاده غاضبا . وأراد قنصل فرنسا أن يسافر أيضا فمنعه إبراهيم بك والبرديسى ، معتذرين إليه .

وفى هذه الأثناء تنـكّـر محمد على للبرديسى . وأظهر له حقيقة أمره ، وأقدم على حربه حتى أرغمه على الفرار من القاهرة ، كما نرى فى ترجمته بعد قليل . وكان الألفى يختفى عند كبير من العرب فى رأس الوادى بالشرقية ، اسمه عشيبة . فلما عرف ما جرى للبرديسى ، وأمن من مطارديه ، أرسل إلى كبير من ممـاليـكه ليلقاه بمـا عنده من مال ومعونة . وانتقل الألفى ومن معه إلى إطفيح ، وهناك سعى سعيين ، أحدهما سياسى ، وثانيهما حربى . أما السياسى فهو اتصاله بالسيد عمر مكرم فى القاهرة ليضع نفوذه إلى جانب المماليك دون محمد على . وقد رضى عمر مكرم عن هذا السعى ، وقبل من الألفى أموالا ينفقها فى سبيل الدعوة له ولمماليـكه . ولـكن دهاء محمد على كان أثره أكبر من سعى الألفى ورسائله وماله . فقد خلب السيد عمر مكرم ، واستولى على قلبه بالمداهنة كما فعل بالبرديسى . وأما سعى الألفى الحربى فقد أفلح فيه إلى حد كبير ، حيث أعاد جمع مماليكه ، وجيوشه .

وكانت له بهما قوة لا بأس بهـا . ولـكنه عرف بعد قليل أن السيد عمر مكرم لا يصدقه، وأنه ومعه نقيب الأشراف والعلماء ، قد اختاروا محمدا عليا لولاية مصر ، وأعلنوا خلع الوالى أحمد باشا خورشيد . وقد أثار هـذا التصرف من السيد عمر مكرم حزن الألفى ، وكرّبه كربا عظيما ، فترك الجيزة حيث كان يقيم ، وذهب إلى دمنهور . ولـكن أهلها منعوه من دخولها وحاربوه ، بتحريض عمر مكرم ومساعدته . فعاد إلى الجيزة مرة أخرى . وكان أول شيء فعله محمد على بعد انفراده بالحكم ، أن ضيق الحصار على الألفى ، ومنع الناس من السفر إلى حيث يقيم . وملأ السبل ، فى البر والبحر ، بالعيون . ليعرف عنه كل حركة . فلما ضاق الحال بالألفى ، لجأ إلى الحيلة . فأرسل إلى الباشا أنه يريد أن يصالحه ، وفرح هذا فرحا شديدا ، وأباح لرسول الألفى أن يملأ سفنه بما يشاء إلى سيده ، وأعطاه كثيرا من الأموال والهدايا والسلاح ليقدمه للألفى ، مقدمة للصلح . ولـكن الألفى — وقد كان فى أشد الحاجة لهـــذه الأموال والهدايا — اشتط فى شروطه للصلح حتى رفضه الباشا . وذهب الألفى إلى الفيوم يجمع جيوشه ، وينفق فى ذلك ممـا أهداه الباشا ، وما أباح لرسوله أن يحمله إليه . وخرج جيش محمد على ليبادر الألفى بالحرب ، فهزم . ثم خرج محمد على بنفسه على رأس جيشه فهزم أيضاً . وألقى كثير من جنوده بأنفسهم فى النيل . وبلغ الألفى ، بشجاعته ، مبلغا عظيما من القوة . حتى كان ، وهو فى إقليم الجيزة . يصل جنده إلى ضواحى القاهرة ، ولا يجرؤ جنود محمد على أن يردّوهم ، أو يعترضوهم . وكان جيش محمد على يسمع طبول الألفى ، وخطوات فرسانه ليلا ، ولا يستطيع أن يهاجمه . وخرج الألفى بجيشه قاصدا إمبابة . وخرج محمد على ليستأنف معه الحرب . ومر أمامه الألفى بجند عظيم يسير فى صفوف منتظمة ، ومعهم كثير من عرب أولاد على ، والهنادى وغيرهم . فلما رأى محمد على ذلك قال لفرسانه : تقدموا وحاربوه ، ولـكم ما تشاءون من الأموال . ولـكنهم لم يجسروا ولم يتقدموا . وجاء إلى الألفى رسول من قبل الدولة ، يعرض عليه أن يُخرج محمدا عليا من ولاية مصر ، وتترك له ولإخوانه حكمها ، على شرط أن يدفعوا ثلاثة آلاف كيس . واجتمع قبودان

باشا مع الألفى فى البحيرة ، فوضعا شروط هذا الاتفاق ، ومنها أن الدولة — كما طلب الألفى — تبيح بيع الرقيق ودخوله مصر — وكانت منعت ذلك نحو ثلاث سنوات — وفرح الألفى بهذا الاتفاق فرحاً شديداً ، وبعث برسله إلى بقية المماليك يطلب إليهم أن يشتركوا جميعاً فيدفعوا ثلثى هذا المال ، على أن يدفع وحده ثلثه ، فإذا عاد لهم حكم مصر ، وتخلصوا من محمد على ، استطاعوا أن يزيلوا خلافاتهم فيما بينهم ، وأرسل إلى عدوه البرديسى فيمن أرسل إليهم . وقبل ابراهيم بك عرض الألفى ، بل أظهر قبوله لأن يكون تحت إمرة من يتفق عليه بقية الأمراء ليكون كبيرهم . ولـكن البرديسى كبر عليه أن يتصل الألفى بالدولة ، كما اتصل بالإنجليز من قبل ، وأن ترسل له الدولة بعوثها ، وهو ، أى البرديسى ، طريد ضعيف الشأن قليل الحول . فأفسد على الألفى ما اتفق عليه مع الدولة ، ورفض أن يدفع شيئاً من المال . وعاد قبودان باشا وموسى باشا ، مبعوثا الدولة من غير أن يقبضا الآلاف الثلاثة من الأكياس .

وكان محمد على فى ذلك الوقت يبذل المـال الـكثير فى سبيل تفريق كلمة المماليك ، وفى ألا يتم هذا الأمر الذى اتفق عليه الألفى مع الدولة . حتى إن إبراهيم بك قبل أن يدفع نصف المال على أن يدفع الألفى نصفه الآخر . ورضى الألفى . ولـكن إبراهيم بك عاد فنكص ، وأبى أن يدفع هو أو غيره شيئاً . وكان ذلك بإغراء محمد على وسعيه ، ومعارضة البرديسى وعناده .

عند ذلك عاد الألفى للاتصال بالإنجليز . وطلب إليهم فى هذه المرة أن يرسلوا إليه جيشاً ليعينه فى حرب محمد على . وتعلل الإنجليز أول الأمر بأنهم لايستطيعون أن يعتدوا على أرض الدولة . ثم عادوا فأرسلوا جيشاً ، يقدره الجبرتى بستة آلاف . نزل إلى الإسكندرية فى اليوم التاسع من شهر المحرم سنة ١٢٢٢ (٢٠ مارس ١٨٠٧) وكان الاتفاق بينهم وبين الألفى أن ينتظرهم فى دمنهور ، ثم يسير معهم إلى الحرب . ولـكن الحملة الإنجليزية تأخر وصولها عن الموعد الذى اتفقوا عليه . فارتحل الألفى بجيوشه عن دمنهور — التى تعذر عليه دخولها — متجها نحو القاهرة ، ثم تجاوزها . فلما وصلت الحملة الإنجليزية إلى الإسكندرية ، وأرسل قوادها رسلهم إلى دمنهور ليجتمعوا بالألفى ، عرفوا أنه قد مات .

مناجاة

ويقول الجبرتي : إن الألفي عندما مر بالقاهرة ، ومحمد على يرقبه ، ويرى جيوشه العظيمة بمنظاره ، ويتعجب من كثرتها وحسن نظامها ثم لايستطيع فرسانه أن يهاجموها . يقول إن الألفي جلس إلى مرتفع عند قناطر شبرامنت ، مولياً وجهه صوب القاهرة : ثم أخذ يناجيها بقوله : « انظرى يامصر إلى أولادك وهم حولك مشتتين ، متباعدين ،مشردين . واستطونك ، الأجلاف والأراذل — يقصد الأتراك ومحمدا عليا وجنده — يقبضون خراجك ، ويحاربون أولادك ، ويقاتلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويعبثون بولدانك وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك » .

ولم ينته من مناجاته الشاعرية هذه ، حتى أصابه خلط دموى كان فيه موته . وكان ، وهو يغالب سكرات الموت ، يذكر المماليك . ويقول : الآن نفذ فيهم حكم محمد على ، ولم يبق لهم أمل . ولكنه ، مع ذلك ، جمع مماليكه ، وأوصاهم ألا يتنازعوا ولا يتفرقوا ، وأن يحذروا عدوهم محمدا عليا ومكره . وأوصاهم أن يدفنوه في وادى الهنسا ، عند قبور الشهداء .

وكان موته في نحو الخامسة والخمسين بناحية المحرقة ، بالقرب من دهشور ، ليلة الأربعاء التاسع عشر من ذى القعدة سنة ١٢٢١ (٣٠ يناير سنة ١٨٠٧) « وبموته اضمحلت دولتهم « أى دولة المماليك » وتفرقت جمعيتهم ، وانكسرت شوكتهم ، وزادت نفرتهم ، ومازالوا في نقص وإدبار ، وذلة وهوان وصغار ، ولم تقم لهم بعده راية . وانقرضوا وطردوا إلى أقصى البــــلاد في النهاية . وأما مماليكه وصناجقه ، فإنهم تركوا نصيحته ، ونسوا وصيته ، وانضموا إلى عدوهم وصادقوه . ولم يزل بهم حتى قتلهم وأبادهم عن آخرهم » .

ونعرف من سيرة الألفي هذه ، أنه حورب وحارب العثمانيين وجند محمد على في وقائع صغيرة ، ومعارك كبيرة ، لم يهزم في واحدة منها . ولم يفشل إلا عندما امتنع عليه أهل دمنهور ، بتحريض عمر مكرم، ومعاونته كما ذكرنا ، فلم يستطع أن

يدخلها لينتظر فيها الحملة الإنجليزية — وكان ذلك صيفا — فلقيت جيوشه ولقى معاونوه متاعب جمة ، ونقصا فى المطاعم وأعلاف الأفراس والحيوان . وكلما ضاق صبرهم طلب إليهم أن يتحملوا ويثبتوا . فلما طال عليهم الأمد . وتأخر وصول الحملة ، خشى عصيانهم فارتحل عن دمنهور كارها .

كان الألفى فارس حرب مع العثمانيين ومحمد على . وكذلك كان مع الفرنسيين من قبل . فقد أبلى ، فى موقعة إمبابة ، أحسن بلاء ، وقتل فيها من كشافته ومماليكه عدد كبير . وظل بعد ذلك مدة إقامتهم فى مصر كلها يتنقل فى الصعيد وفى الدلتا محاربا لهم منقضا عليهم من حيث لا يحتسبون ، مطاردا لهم فى كثير من البلاد والجهات . وقد أرسل إلى وزير الدولة العثمانية عددا من القواد الفرنسيين وقعوا فى أسره ، وأهدى إليه أسدا عظيما صاده فى بعض رحلاته ، وخلع عليه الوزير خلعة ثمينة ، واستضافه أياما . وكان الفرنسيون يضعون فى طريقه الأربطة والأرصاد ليوقعوا به أو يأسروه . ولـكنه كان يفلت منهم ثم يباغتهم بالحرب ، ويوقع بهم الخسائر الـكثيرة . ولما خرج العثمانيون إلى الشام والفرنسيون فى مصر ، خرج معهم ثم رجع ليحارب الفرنسيين . ولقى منهم فى الشرقية جندا كثيرا فكان يناوشهم ويقتل منهم ، فإذا تجمعوا لحربه ، لم يجدوه . وحارب الفرنسيين فى الصعيد أيضا ، وحيثما لقيهم أولقى منهم فرصة . ولما تصالح مرادمعهم لم يوافقه على ذلك ، واعتزله .

ولم يستطع عدوه الألد محمد على أن ينكر عليه هذه الشجاعة الفائقة . فقد كان يشهد جيوشه تسير ، على نظام جيش نابليون ، وفرسانه على خيولهم ، وهو على ظهر فرسه . فقال محمد على لمن حوله وهو يتعجب : « هذا ، ولاشك ، فارس الزمان »

وكان الألفى يقظا شديد الحذر . كان لا يذهب إلى الوالى إلا فى وسط جنده ومماليكه وسلاحه . وأراد العثمانيون أن يأخذوه بالحيلة والغدر بعد أن أعجزهم فى الحرب ، فأرسل إليه الوالى من يبلغه أن السلطان يريد أن يراه لينعم عليه ويكرمه . ولـكنه أبى أن يذهب إلى إسلامبول ، وقال : « نحن عبيد السلطان ونقيم فى أرضه . فلينعم علينا بما يشاء منها ، ونحن فيها لا نبرحها » . كما كان شديد الحزم

والصلابة مع مماليكه . مع برّه بهم برا شديدا وإنفاقه عليهم الأموال العظيمة . فكانوا مع شدةمراسهم وقوةنفوسهم يهابونه ، ويخافونه خوفاشديدا . ويخشون بأسه أعظم الخشية . ويترددون فى خطابه والحديث معه .

وهو إلى ذلك كله حيّ شديد الحياء . إذا خرج من القاهرة إلى بعض قصوره فى خارجها ، تحاشى أن يسير فى وسط المدينة ، وكذلك فى رجوعه . فلما قيل له فى ذلك قال « أستحى أن أمرّ وسط الأسواق ، والناس ينظرون إلى ، وأفرّجهم على نفسى » .

وقد أفاد الألفى من نواحي متعددة ، من أسفاره ، وخاصة تلك الرحلة التى زار فيها إنجلترا وأقام بها شهورا عدة ، كما رأينا . أفاد من مشاهدة تلك الصناعات التى زار دورها هنالك . وأنواع الأسلحة المختلفة الكثيرة التى أطلعوه عليها . وأهدوا إليه كثيرا منها . كما أهدوه جواهر وآلات فلكية وهندسية ، ونظارات مكبرة ، بعضها يرى الانسان منها فى الظلام ، وأخرى لرصد الكواكب والنجوم . وأهدوه آلة موسيقية تشبه الصندوق وتصدر عنها أنغام موسيقية متعددة . وقد نهب ذلك كله جند البرديسى ، وطفقوا يبيعونه على الناس فى القاهرة . ولاشك أن الألفى أفاد من زيارته تلك فى تنظيم جيوشه وتدريبها — كما أفاد من مشاهدته جيش نابليون ونظامه — وأفادته أيضا نفحة من الإدراك لنظم الدولة ، ومهمة الحاكم ونظرته لمن يحكمهم . فقد رأى عند الإنجليز نظما للحكم وتقديرا للمحكومين ، لم يكن لمصر ولا للشرق عهد بها إذ ذاك . رأى عندهم ذلك ، وتأثرت به نفسه . حيث يقول الجبرتى : إنه « قد تأثر وتهذبت أخلاقه بما اطلع عليه من عمارة بلادهم ، وحسن سياسة أحكامهم ، وكثرة أموالهم ، ورفاهيتهم ، وصنائعهم ، وعدلهم فى رعيتهم — مع كفرهم — بحيث لايوجد فيهم فقير ، ولامستجد ، ولا ذو فاقة ولا محتاج » .

الفقير والفلاح

ونحن نجد عند الألفى شيئا غير قليل من الرعاية للفلاحين والفقراء . لعله

أثر من آثار هذه النظرة الجديدة للحكم والمحكومين ، ومن هذا الإدراك الذى أفاده من اختلاطه بالإنجليز وزيارته بلادهم . لعله أثر من هذه ومن تلك ، وهو فى الوقت نفسه مظهر من مظاهر صفاته الخلقية وخصائصه النفسية أيضا . وقد رأينا من قبل أنه كان شديد القسوة على العرب ، ليكف بأسهم عن الفلاحين .

ونجد له حديثا مع كبير من مماليكه ، حين عرف شططهم فى الجور على أهل القرى . وهو فى هذا الحديث يذكرهم بأن العدل بالرعية أساس عمران البلاد ، وازدهارها ، ونماء ثروتها . ويضرب لهم مثلا بمن عنده بقرة حلوب . يأكل من لبنها وسمنها وخيرها . أليس من الحكمة والمصلحة معا ، أن يكرمها ويرفق بها ليبقى له ماتدر من لبن وخير ، أو زبد . أما إذا أجاعها وامتهنها فسيفقد خيرها وبرها . حتى إذا ذبحها لم يجد فيها لحما ، ولادهنا ، ومضى يحدثهم ليلته تلك حديثا طويلا . ويأخذ على نفسه المواثيق ، لئن أعطاه الله سيادة مصر ، ليقيمن فيها العدل . ويمحق الظلم « ليكثر خيرها ، وتعمر بلادها ، ويرتاح أهلها . ونكون أحسن بلاد الله » .

ونجده فى حديث آخر ، مع واحد من خاصته ، يبدى غاية سخطه وأسفه على ماترغمه عليه ظروفه وظروف مماليكه من أخذ أموال الناس لينفق على جيوشه . ثم يقول : « إن قدر الله لى الظفر ، عوضت على الناس ماأخذت منهم ، ورفقت بحالهم ، وإن كانت الأخرى ، فالله يلطف بنا ، وبهم . ولا بد أن يترحموا علينا » .

وكان الألفى شديد الألم ، كثير التفكير فيما يلقاه من معاندة الدهر له ، ومعاكسة الأيام لحظه وتدبيره . ولكن الحزن الذى كانت توشك أن تنشق منه مرائره ، كان من خروج قومه عليه ، وعنادهم له ، وإفسادهم كل عمل يقوم به ، ومناكدتهم لكل سعى يسعاه ، وردهم لكل رأى له أو قول أو نصيحة ، مع أنه فكر ودبر وسعى لخيرهم جميعا ، وسافر إلى إنجلترا برأيهم وموافقتهم ، واتصل بالدولة طالبا وساطتها ، بموافقتهم أيضا . فكان ذلك منهم — كما قال — سببا فى أن « أشقونى ، وأشقوا أنفسهم ، ومكنوا البلاد لأعدائى وأعدائهم » . وكانت هذه هى المحنة العظمى التى أشقت قلبه وحياته .

ولما مات الألفى ، انبعثت بموته عاطفتان متناقضتان كل التناقض : أما إحداهما فكانت عند العرب الذين حاربهم وقسى عليهم ، وصاهرهم وقتل منهم · ومع ذلك أحبوه وحفظوا دمه ، وأجاروه عند المطاردة والمحنة· فقد حزنوا لموته حزنا بالغا ، عميقا · واجتمعت نساؤهم يبكينه ويندبنه بكلام عجيب. تناقلته عنهم أرباب المغانى يغنون به على آلاتهم ، وجعلوا منه أدوارا وقوافى ، ينشدونها غناء حزينا باكيا ·

وأما العاطفة الأخرى ، فقد كانت عند محمد على وقومه . فإنه لم يصدق نبأموته أول الأمر . وقال: إن هذا من ضمن حيله وألاعيبه وخدعه . وأدخل البشير الذى نقل اليه النبأ إلى السجن أربعة أيام حتى يعرف أصدقه أم كذبه · فلما تحقق عنده النبأ ، امتلأ قلبه فرحا هو وقومه ، ورفعوا رؤوسهم . وأخرج البشير فألبسه خلعة ثمينة وأعطاه مالا ، وأمره أن يخرج بتلك الخلعة فيركب ويشق المدينة معلناً هذا النبأ للناس . ومع ذلك بقى أهل القاهرة لا يصدقون الخبر ، ويشكون فيه شهرين .

ولما تأكد عند محمد على موت الألفى ، من ذلك البدوى الذى اشترك فى حمل نعشه إلى البهنسا ؛ قال لقومه : الآن طابت لى مصر ، ولم يبق من أخشاه بعده .

البرديسى

أما البرديسى — نسبة إلى برديس التى تولى كاشفاً عليها — فكان أيضاً من مماليك مرادبك .زوجه ثم أعتقه، وولاه صنجقاً فى سنة ١٢١٠ . فلما سافر الألفى إلى إنجلترا كان البرديسى كبيرا على مماليك الألفى ، بالاشتراك مع الألفى الصغير ، بشتك بك . ولما رأى محمد على عند إبراهيم بك الكبير يقظة وحرصاً وبعداً عن التورط فى خصومة الألفى· التفت إلى البرديسى ، وأظهر له المحبة والود ، حتى عرف خافية نفسه وحبه للرياسة وحقده على الألفى . فأخذ يقوى عزمه على الانفراد بها ، ويشجعه على معاندة الألفى ويهون عليه أمره . وزين إليه أن يقيم حول بيته بالناصرية أبراجاً وأقام فيها محمد على حرساً من جنده للمحافظة عليه — فى ظاهر

الأمر — واستعان به محمد على فى محاربة العثمانيين وقتل بعض ولاتهم وأسرهم . فلما عاد الألفى حرّضه على مطاردته ، وأشار عليه بأن يخرج كبار مماليكه وطوائف جنده للبحث عنه ، وأن يخرج آخرين من هؤلاء لجمع المال من البلاد للإنفاق على هذه المطاردة . فلما أصبح البرديسى وليس حوله جند ولا قادة ، زين له مرة أخرى أن يفرض على أهل القاهرة مالا أيضاً ، كما فرض على أهل القرى . فلما بدأ رجاله فى إحصاء من يفرض عليه المال ، وتقدير فئاته، ضج الناس وسخطوا. فلما بلغ سخطهم محمدا عليا وعشيرته ، أظهروا للناس العطف والمودة ، وقالوا لهم : نحن معكم فى معارضة هذه الضريبة . فتجمع سخط النـاس وغضبهم كله نحو البرديسى ، وخرجت نساء القاهرة بأيديهن الدفوف يضربن عليها ويقلن صائحات : « إيش تاخد من تفليسى يا برديسى » . وخرج هذا من القاهرة مغاضباً إلى مصر القديمة وهو يلعن أهل مصر ويقول : لابد أن يأتمر أهل البلد بأمرنا . وما دام لم يرضهم أن يدفعوا هذه الضريبة لعام واحد . فسيدفعونها ثلاثة أعوام . ثم عاد إلى القاهرة لينفذ أمره . وكان السخط عليه فيها قد بلغ كل غاية . واشترك العلماء مع الناس فى سخطهم ، وحضر كثير منهم إلى الأزهر ثم ذهب شفيعاً إلى الأمراء . عند ذلك ضرب محمد على ضربته ، فأمر جنوده الذين وضعهم على أبراج بيت البرديسى ، ليحرسوه ، أمرهم بأن يضربوا عليه بالرصاص . وكذلك أمر جنده بأن يحيطوا بقصر إبراهيم بك . وقصور بقية الأمراء . وتسلق جنـد محمد على بيت البرديسى يريدون قتله . وخرج هذا من قصره مسرعاً ، فهرب إلى مصر القديمة . وكذلك خرج إبراهيم . وكثير من مماليكهما . وكانوا يسرعون بالهرب ، ورصاص البنادق ، من رجال محمد على ، يلاحقهم ، ويحيط بهم من كل مكان . وعاد جند محمد على بعد ذلك إلى قصور الهاربين ، فنهبوا ما فيها من مال ورياش وشيء كثير ، وسبوا نساءهم ، وسراريهم . وسحبوهن ، من شعورهن . وساقوا من وجدوه من أمرائهم ومماليكهم عرايا ، حاسرى الرؤوس ، فسجنوهم . ثم هدموا قصورهم . وخرج البرديسى وإبراهيم ومن معهما لم يأخذوا شيئاً من المال الذى جمعوه وكنزوه ، غير مافى جيوبهم . وفرّ البرديسى إلى الصعيد . ثم مات فى منفلوط ،

ودفن بها . فى أوائل رمضان سنة ١٢٢١ أى قبل موت الألفى بنحو ثمانين يوما .

ويصفه الجبرتى بأنه « كان طائش العقل ، شابا ، مغروراً ، ظالما غشوماً ، حقوداً ، سيء التـدبير . لم ينتصر فى معركة واحـدة . جعله الله سبباً لفشل المماليك ، وذلهم وهوان أمرهم ، وذهاب دولتهم إلى آخر الدهر » .

وقد رأينا أن الألفى لم يهادن الفرنسيين ولم يُرحـهم من خصومته وحربه . بل كان شديد اللدد ، قوى الخصومة لهم فى جميع الأوقات . أما البرديسى فقد كان على نقيضه فى ذلك . ومما يدل على لصوق البرديسى بهم ، وتفانيه فى خدمتهم ، ماذكره الجبرتى فى مظهر التقديس. من أن الجنرال كليبر عندما سار على رأس جيشه فى شوارع القاهرة ، بعد هزيمة الثورة الثانية فيها . كان جنوده يأمرون الناس بالوقوف لهم ويسيئون لمن لم يبادر إلى ذلك . وكان البرديسى يسير يوم ذاك خلف كليبر . كما نجده ، فى هذه الفترة بالذات ، كثير الملازمة لقائدهم هذا، واللصوق به .

من هذا الذى ذكرناه عن أيام المماليك ، وحياتهم ، وتراجم كبارهم ، نستطيع أن نحيط ، إلى حد كبير ، بما يكفى لفهم تاريخهم ، ونظم حياتهم ، وأثرهم فى حياة مصر — مع ما نجده فى الجزء الأول عن الحياة الاجتماعية — وفى الفصل التالى من هذا الجزء ، عن الأزهر والعلماء .

ولـكننا نجد من الخير ، ومن إتمـام الدراسة لما كتب الجبرتى ، أن نتحدث حديثاً موجزاً عن ثلاثة من كبار المماليك ، هم : عبد الرحمن كتخدا ، وصالح بك القاسمى ، وأحمد باشا الجزار .

عبد الرحمن كتخدا

أما عبد الرحمن كتخدا فلم يجلب من خارج البلاد ، ولم يبع فيها ، كما هو شأن الأكثرين من المماليك ، صغاراً أو كباراً . بل ولد فى القاهرة . وكان أبوه ، حسن جاويش القازدُغلى ، أميراً كبيرا ، بل سيداً على جميع الأمراء فى عصره ، فلما مات حسن جاويش ، اعتدى معتوق من معاتيقه على ثروته كلها . ونازع عبد الرحمن فيها ،

حتى حازها . وكانت ثروة عظيمة جـداً . ولم يجد عبد الرحمن من مماليك أبيه السابقين من ينصره . وكان سليمان بك ، الذى استولى على هذه الثروة ، مملوكا لوالد عبد الرحمن . وبقى هذا فى ضيق من العيش ، حتى مات مغتصب ماله ، فى سنة ١١٥٢ وكان أمير مصر إذ ذاك عثمان ذو الفقار . وهو ، كما رأينا فى ترجمته ، صاحب وفاء وعفة ومروءة . فمكن عبد الرحمن كتخدا من ثروة أبيه ؛ ولم يطمع فى شىء منها . وسافر مع عثمان بك إلى الحج فبقى فى الحجاز سنتين ؛ ثم عاد . فتولى كتخدا ، أى نائب الوالى . وعند ذلك شرع فى بناء المساجد والعمائر الكثيرة التى ما يزال بعضها يعرف باسمه إلى اليوم . واتجه مع ذلك إلى الإصلاح . فأبطل المنكرات وقفل الخمارات التى كانت مفتوحة فى حارة اليهود .

وعبد الرحمن كتخدا هو أكثر المماليك والولاة إنشاء وإصلاحا للمساجد وغيرها . وكانت له معرفة بالهندسة ، استخدمها فى تصميم هذه العمائر . فمن أهم إنشاءاته وإصلاحاته : المسجد القائم بجوار ضريح الإمام الشافعى ، ومساجد السيدة زينب ، والسيدة نفيسة ، والسيدة سكينة ، والسيدة عائشة ، والسيدة فاطمة ، والسيدة رقية . وشرف الدين الكردى ، وأبى السعود الجارحى . وبنى للشيخ الحفنى بيتا بجوار مسجد أنشأه فى حى الموسكى . ويقول الجبرتى : إن المساجد التى أنشأها وجددها ، وأقيمت فيها الخطبة والجماعة ، بلغت ثمانية عشر مسجداً . وذلك خلاف الزوايا والأسبلة ، والسقايات ، والمكاتب ، والأحواض ، والقناطر . وما فرضه للفقيرات والمنقطعات . وله من هذه العمائر والإنشاءات شىء كثير فى ريف مصر ، وفى الحجاز . كما رتب للعميان الفقراء أكسية من الصوف يعطيها لهم قبل حلول الشتاء فى كل سنة . ورتب لمؤذنى المساجد أحـرمة تقيهم برد الشتاء عندما يصعدون المآذن لأذان الفجر . وكان يفرق الثياب من الحبر المحلاوى ، والحرير الصعيدى ، والملايات ، والأخفاف ، على الفقيرات والأرامل . ويخرج أمام بيته فى ليالى رمضان ، عند الإفطار ، القصاع الكبار مملوءة بالثريد واللحم ، مسقية بالمرق والسمن ، يفطر منها الفقير والمحتاج . وأوقف لخدمتهم نقيبا يعطيهم قطع

اللحم الـكبيرة الجيدة . وعندما ينتهون من إفطارهم يعطى النقيب لـكل واحد منهم رغيفين وشيئا من المال لسحوره .

وبنى لنفسه قصوراً . منها قصر بحارة عابدين ، كان فريدا فى بنائه وهندسته وما فيه من الزخارف والنقوش المموّهة بالذهب ، وما يحتويه من الرخام البديع واللازورد ، والقيشانى ، وأنواع الأصباغ المختلفة . وأنشأ فيه بستاناً عامرا فى داخله قاعة فسيحة ، بوسطها فسقية مفروشة بالرخام البديع الصنعة ، وأركانها مركبة على أعمدة من الرخام الأبيض .

وكان عبد الرحمن كتخدا ، يسمى فى مصر والشام ودولة الخلافة ، بصاحب الخيرات والعمائر . وقد وقف على هذه المساجد وغيرها بلادا كاملة مما كان يملك .

وكما كان مصلحاً فى منعه الخمر وإبطاله المنـكرات ، كان واسع الأفق ، لا يؤمن بالأباطيل والخرافات . كما رأينا من قصته مع الشيخ عبداللطيف ، صاحب عنز السيدة نفيسة[١] .

ومن أكبر عمائره ، توسيعه الجامع الأزهر . فقد زاد فى مقصورته نحو نصفها ، أقام هذه الزيادة على خمسين عموداً من الرخام ، تحمل مثلها من البوائك المرتفعة ، من الحجر المنحوت ، وجعل لهـا سقفا من الخشب المنحوت . وبنى به محرابا جديدا ، ومنبرا . وبابا عظيما ومدرسة ومكتبا لتعليم الأطفال وتحفيظهم القرآن ، وسبيلا . وبنى لنفسه قبرا دفن فيه . كما أنشأ كثيرا من الأروقة لمجاورى الأزهر . وزاد فى مرتبات أهله وأخبازهم . وجعل لمطبخه ، فى كل يوم من رمضان ، خمسة أرادب من الأرز الأبيض ، وقنطارا من السمن ، ورأس جاموس ، وكثيرا من الزيوت . وأمر بأن تطبخ « الهريسة » لمجاورى الأزهر ، فى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع .

وأنشأ عبد الرحمن مصحة للنساء ، بالقرب من شارع تحت الربع ، زارها

---

(١) نجد قصة ذلك فى الجزء الأول من هذا الـكتاب . ص ١٣٦ — ١٣٨ .

مسيو جومار ، أحـد مهندسى الحملة الفرنسية ، وقال : إنه كان بهـا ٢٦ من المريضات .

وقد رأينا ، فى ترجمة على بك الـكبير ، أن عبد الرحمن كتخدا كان أ كبر نصير له على خصومه أول الأمر . فلما قويت شوكة على بك ، واستقل بالإمارة ، لم يستطع الصبر على معارضة عبـــد الرحمن . فنفاه إلى الحجاز ، فى أواخر سنة ١١٨٧ ، وقد بقى فى مكة منفيا أ كثر من إحدى عشرة سنة . فلما عاد كان شيخا هرماً فانيا . ومات بعد أحد عشر يوما ، فى صفر سنة ١١٩٠ ، ولـما خرجوا بمشهده الحافل ، سار خلفه العلماء والأمراء وكبار القوم ، ومؤذنو المساجد ، وأولاد الـكتاتيب التى أنشأها ووقف عليها الحبوس .

ونجد بعد هذه الصفحة الناصعة من سيرة عبد الرحمن كتخدا ، أنه كان يقبل الرُّشا ، ويتحايل على مصادرة الناس فى أموالهم . ويصالح[1] على تركات الأغنياء . وكانت له فى ذلك جرأة وحيلة ، جعلت غيره يقتدى به ، حتى صار ذلك « سنة مقررة ، وطريقة مسلوكة ليست منـكرة » .

صالح بك القاسمى

وكان صالح بك القاسمى آخر المماليك الـكبار من القاسمية بعد وفاة سيده ، مصطفى بك المعروف بالقرد ، تقلد الإمارة ، وأحبه إخوانه من الأمراء وأطاعوه لسيرته الحسنة فيهم . وكان له ولهم مكانة عظيمة . وخاصة عند زعماء الهوارة فى الصعيد . حيث اختلطوا بهم وعرفوا عاداتهم وطباعهم ، وتأثروا بها . وكان زعيم الهوارة همام يحب صالح بك ويكل إليه قضاء شؤونه كلها فى مصر .

وأنشأ صالح بك لنفسه قصرا عظيما عنـد قلعة الـكبش مجاورا مسجد ابن طولون .

---

(١) المصالحة هى أن يفرض على الوارثين قدرا من المال ، لا يمكنهم من تركة مورثهم حتى يدفعوه .

ولما تفرد على بك الكبير بالسلطة ، أراد أن يتخلص من صالح القاسمى ، كما تخلص من عبد الرحمن كتخدا . فلما أمر بنفى عبد الرحمن . أمر صالحا بحراسته حتى منفاه فى السويس . فلما خرج كلاهما ، أرسل خلفهما أمرا بنفى صالح أيضا إلى غزة ، ثم نقله منها إلى رشيد . واستطاع صالح بك أن يفر من منفاه إلى الصعيد ، حيث استقر فى المنيا ، وتحصن فيها ، وتهيأ لحرب على بك بعد أن تجمع حوله مماليكه ورجاله . وذهبت جيوش على بك لحربه فى المنيا ولكنه هزمها . وخرج بعد ذلك على بك منفيا ثم عاد فتوجه رأسا إلى المنيا ، حيث التقى بخصمه صالح بك وأظهر له المحبة والندم على ما كان من نفيه له . ثم عاد كلاهما إلى القاهرة وصالح يعتقد أن على بك قد أخلص له الود . فوضع كل حيلته وقوته فى خدمته وحارب كبار المماليك من أجله . ولكن على بك ، بعد أن أصبح فى غنية عن صديقه ، احتال حتى قتله . وذلك بأن تآمر مع مماليكه على أن يقتلوه ، وهو خارج من قصر على بك . وخرج صالح بك يوما من هذا القصر ، ومعه كثير من أمراء على بك ، فلما ساروا فى طريقهم تجمعوا حول صالح بك وقتلوه بسيوفهم . فلما عرف ذلك مماليكه وعشيرته ، خرجوا من القاهرة ، وتفرقوا ، وذهب كثير منهم إلى الصعيد .

وكان صالح القاسمى أميراً جليلا ، مهيبا ، لين العريكة . ميالا للخير ، يكره الظلم ، سليم الصدر ، لا يحقد ، ولا يتطلع لما فى يد الناس والفلاحين . وكان كثير الحياء ،إحدى ثناياه ناقصة ، فإذا تكلم وضع سبابته على فمه ليسترها حياء من ظهورها . وكان من أمراء على بك الذين وكل إليهم مهمة الغدر بصالح وقتله . أمير اسمه أحمد بك . ولكنه أبى أن يشاركهم جرمهم . فلم يشترك فى القتل . وخشى فى الوقت نفسه من بطش على بك فخرج إلى الشام . وهذا الأمير هو الذى عرف بعد ذلك باسم أحمد باشا الجزار .

أصله من البوشناق ، حضر مع والى مصر على باشا الحكيم . عند ما تولى حكمها فى المرة الثانية ، سنة ١١٧١ ثم رغب إلى على باشا فى أن يحج فأخرجه مع أمير الحج صالح بك القاسمى ، فى السنة التالية . فلما عاد كان على باشا قدخرج

من مصر ، فبقى فيها أحمد هذا . ولبس كما يلبس المماليك ، وتعلم فروسيتهم وفنون حربهم . والتحق بخدمة على بك الكبير ، الذى جعله حاكما على البحيرة .

وكان أحمد الجزار قد خدم أول عهده بمصر عند تابع لعلى بك اسمه عبد الله بك . وأرسل على بك تابعه هذا إلى عرب البحيرة ليحاربهم فقتلوه . فلما ولاه على بك حاكما على البحيرة قال له : عليك بالثأر لسيدك . فخادع هؤلاء العرب ، واحتال حتى جمعهم فى مكان واحد ثم قتلهم ، وكانوا أكثر من سبعين . ومن أجل ذلك سمى بالجزار . ونال بعد ذلك مكانا عظيما عند على بك وجعله من جملة أمرائه . ولما خرج على بك هاربا من خصومه ، خرج معه أحمد بك ، ولازمه فى غربته ، وحروبه . ثم عاد على بك ، كما ذكرنا من قبل ، وأراد الغدر بصالح القاسمى ، وكان أحمد الجزار يعترف بفضله عليه ، فأخبره بتدبير على بك . ولكن هذا استطاع خداعه ، حتى قتله . وخرج أحمد إلى الإسكندرية هاربا . فى زى رجل مغربى ، ثم سافر منها إلى تركيا . وعاد مرة أخرى إلى مصر فأقام عند عرب البحيرة . وحارب جيوش على بك ، مع شيخ العرب ابن حبيب. فلما قتل هذا خرج أحمد الجزار إلى الشام ، وكانت له هناك حياة عاصفة لقى فيها كثيرا من المحن والشدائد . ثم استقر ، واشترى المماليك . حتى أصبح له شأن وقامت له صولة . وجاء إلى الشام واليها حسن باشا الجزائرلى ، وكان يريد أن يختار لقلعة عكا قائدا كفؤا . فلما سأل فى ذلك العارفين ، ذكروا له أحمد الجزار فطلبه وقلده الوزارة وقيادة القلعة . فعمر أسوارها ، وجدد قلاعها ، وأنشأ فيها بساتين ، وأقام مسجدا لها . وأكثر من شراء المماليك، واستجلاب الجند . حتى صار له جيش كثيف . وحارب الخارجين فقهرهم . وأغار على الدروز فى جبلهم أكثر من مرة ، حتى كسر شوكتهم ، وأعلنوا طاعتهم له . وجمع منهم ومن غيرهم أموالا عظيمة ، حتى ملئت خزائنه . واستطاع بهذه الأموال أن يصانع رجال الدولة العثمانية حتى نال ولاية الشام . وأقام من قبله نوابا على بلادها وحكاما . وظهرت بعد ذلك شدته وصرامته وقسوته . حتى ملأ قلوب أهل الشام رعبا ، فكان يعاقب على الذنب الصغير بالحبس والقتل ، ويقطع الأنوف

والآذان والأطراف لأتفه الأسباب ، ولم يغفر زلة عالم لعلمه ، أو ذى جاه لوجاهته ، وسلب النعم عن كثير جدا من ذوى النعم ، واستأصل أموالهم . «ومات فى حبسه ما لا يحصى من الأعيان والعلماء وغيرهم » واستراب فى بعض مماليكه وسراريه فقتل منهم ، وحرق بعضهم . ونفى بعضاً آخر ، من المماليك والسرارى ، بعد أن مثّل بهم ، وقطع أنوفهم . وتقصّى بالعقاب الشديد من آواهم أوأعانهم ، ولو كان فى أقصى البلاد. ووصل بعضهم إلى مصر فآواهم على بك ، فقطع صلته به ، وكانت صلة قوية .

وكانت هذه الشدة البالغة سبباً فى أن خرج عليه مملوكاه سليم باشا الكبير ، وسليمان باشا الصغير ، ومعهما كثير من مماليكه وغيرهم . وحاصروه فى قلعة عكا ، ولم يكن معه غير قليل من الجنـد وعمال البناء ، الذين لا قدرة لهم على الحرب . فاستخدم ما معه من الجند القليل ، وألبس العمال ملابس الجنـد وأوقفهم على أسوار القلعة . فلما رأى محاربوه ذلك ، ظنوا أن معه جندا كثيرا ، فلم يقدموا . وبادرهم هو ليلا بالهجوم على غرة فظهر عليهم وقهرهم . ثم تتبع الهاربين منهم بالقصاص والعذاب الشديد ، حتى أبادهم وفرقهم .

وأرادت الدولة بعد ذلك أن تخرجه من ولاية الشام ، أو تتخلص منه . فنصبت له المكايد . ولكنها لم تنل منه شيئا . فعادت الدولة إلى مسالمته ومسايرته . وعادت له قوته ، مرة أخرى ، وارتفع شأنه فى الشام وفى غيرها من البلاد . حتى هادته الملوك وراسلته . واشترى مماليك وجوارى بدلا من الذين أبادهم وشتتهم . وظل فى سطوة ومنعة ، حتى مات على فراشه فى سنة ١٢١٩ .

وقد كان لشجاعته ، ومقدرته ، وصلابته ، أثر كبير فى حبوط حملة نابليون على سوريا . وفى عجزه عن اقتحام أسوار عكا . كما نجـد ذلك فى الجزء الثالث من الكتاب .

الفصل الثاني

الأزهر والعلماء



حياة العلماء

هذا الفصل الذى نبدؤه خاص بالأزهر والعلماء . وأعتقد أنه من الخير أن نمهد له بكلمة قصيرة نظهر فيها شيئاً قليلا من هـذه « اللامح » التى ستطلع على القارىء فى هذا الفصل . شيئاً من ملامح هؤلاء العلماء الذين عاشرهم الجبرتى وخالطهم وعرف سيرهم أتم معرفة . ثم سجلها لنا هذا التسجيل الأمين ، الذى لم يكن متحيزاً فيه ولا متحيفاً . بل رسم صورة لم يكن له فيها خيار ولا حيلة . فإذا وجدنا بعض هذه السيرة التى سجلها لا يرضى شعورنا . ولا يوائم تلك الصورة المشرقة الرضية الكريمة التى يحتفظ بها خيالنا لهؤلاء العلماء . فليس الذنب فى ذلك على الجبرتى . وسنجد ، بعد أن ننتهى من فصل « الأزهر والعلماء » هذا ، أن خيالنا ، فيما رسم لهؤلاء العلماء من صورة مبرأة من العيب ، أو قريبة من الكمال ، كان مسرفا فى حسن الظن . ويجب أن نذكر عندئذ ، أن الناس هم الناس .

نجد فى هذا الفصل : أن الأزهر ورجاله كانت لهم مكانة ممتازة يوم ذاك . يقدمون على من سواهم من الناس ، حتى الأمراء . ويزورهم الولاة وكبار الأمراء فى بيوتهم . ويكرمهم بعض الولاة حتى يقبل بعضهم يد واحد منهم وقدَمه . ونجـد العلماء سفراء وقادة . يسْـفِرون بين الناس والمماليك ليرفعوا عنهم الظلم ، ويسفرون بين المماليك بعضهم وبعض ليزيلوا خصومة أو يرفعوا حربا ، ويسفرون بين نابليون وأهل مصر ، أو الثائرين منهم ، لأمور كثيرة خطيرة نجد تفصيلها فى الجزء الثالث من هذا الكتاب . بل يسفرون إلى تركيا نفسها وإلى سلاطينها فى العظيم الجليل من الأمر .

ونجد أن بعض العلماء أظهر شجاعة فائقة فى كثير مما عرض لهم أو عرضوا له من أمر هذه الحياة المضطربة التى كان الناس يلقونها من المماليك أو الولاة . ومن أمر هـذه العلائق المضطربة الشديدة القلق ، التى كان المماليك والولاة يجدونها بين بعضهم وبعض .

نرى أمثلة بارزة مشرّفة لهذه الشجاعة فيما روينا عن الشيخ الدردير ، والشيخ

الشرقاوى ، والشيخ السادات ، وما كان لهم من مواقف إيجابية حاسمة إذا تجاوز الظلم حدَّه ، وأثارهم سلوك المماليك أو عنف الفرنسيين وجبروتهم .

(ونجد إلى جانب هذه الصورة ، صورة أخرى لزهد بعض العلماء وانصرافهم عن هـذا كله إلى العلم وحـده . والتحول عن الرغبة أو الشراهة فى جمع المـال والحرص على الثراء ، إلى التحلى بفضائل الأخلاق ، من الـكرم والشجاعة والبر والإيثار والتواضع ، إلى آخر هذه الفضائل التى دعا إليها الدين . كما نرى فى سيرة الشيخ العفيفى ، والصائم ، والراشدى ، والمدابغى ، والشنوانى ، ذلك الذى كان يكنس المسجد ويُسْرج قناديله بيده . والذى فرهاربا حتى لايلى مشيخة الأزهر ، فلما أكره عليها ظل يسرج قناديل المسجد ويكنسه بيده حتى مات .

ونجد صورة رائعة كريمة لحياة العلماء وخلقهم وكرمهم وشجاعتهم ، فى تلك السيرة النادرة التى سجلناها للشيخ على الصعيدى . كما نجد صورة أعظم منها روعة وكرما فيما فصلناه من سيرة الشيخ محمد الحفنى . وهى وحدها جديرة بأن تشرف حياة العلماء فى ذلك العصر ، وفى كل عصر ، وأن يزهى بها تاريخهم ، ويسمو مكانهم ، ويعلو ذكرهم وقدرهم . ولـكننا ، إلى جانب هذه الصورة الطيبة الـكريمة ، نجد أخرى لا نستطيع أن نصفها ، أو نتحدث عنها ، فهى تتحدث عن نفسها وتصف أصحابها أبلغ وصف وأصدقه وأعجبه أيضاً ، كذلك ، الشيخ الذى ترك لابنه أربعين ألفا من الذهب والفضة ، غير ما ترك من الوظائف ، والرزق[1] ، والضياع ، والدور . وذلك الذى نازع عجوزا فقيرة على قطعة صغيرة من الأرض ، ولقى فى ذلك من المهانة مالقى ، ولم يدع لها حقها حتى مات . وذانك الشيخان اللذان تشاحنا على وقف صغير ، ولم يترك أحدهما مرتب هذا الوقف لزميله ، بعد أن نال مشيخة الأزهر ، حتى إذا ناله الآخر بعد موت صاحبه ، نازع خدم الوقف حقهم وأوشك أن يسلبهم إياه . فلما جاء الفرنسيون ، شغل نفسه بالوساطة لديهم فى حاجات الناس ، وجمع من ذلك مالا جمّاً ، وحاز لنفسه تركات كثير من الموتى ، وحرم منها أصحابها ووارثيها . ثم أضاف إلى ملـكه الخاص أماكن موقوفة

(١) المخصصات .

وذانك الشيخان اللذان تنازعا مشيخة الأزهر فأيقظا فى ذلك فتنة رفعت بسببها الأسلحة والبنادق فى داخل الأزهر ، وقاتل فيها أهل العلم بعضهم بعضاً ، فمات منهم عشرة وجرح غيرهم وسجن آخرون ، ومنعت الصلاة فى الأزهر بسبب ذلك وغلّقت أبوابه . وذلك العالم الكبير الذى كان ، على الرغم من ماله وثرائه، يضم إلى ماله تركات من يشاء ممن ماتوا بالطاعون . فلما جاء الفرنسيون سايرهم ولاطفهم وتودد إليهم ونال فى أيامهم أموالا عظيمة ، وجاهاً عظيما . كان إذا مشى سار أمامه الحراس بأيديهم العصى يدفعون الناس عن طريقه . وجعله الفرنسيون جابيا يجمع لهم المال والمغارم من البلاد . فكان الناس والفلاحون يسارعون إليه بالهدايا والرشا وهو يأخذ . ثم نال هذه المنزلة عند العثمانيين بعد أن خرج الفرنسيون ، فزاد ماله وجاهه . ولكنه مع ذلك عطل قوماً باعوه بيتا لهم . غاب عنهم خمس سنين حتى مات أكثرهم قبل أن يستوفى حقه من ثمن هذا البيت . ثم نال هذه المكانة أومثلها أيضاً عند محمد على ، وشهد له شهادة الزور فى عمر مكرم ، واستوفى ثمنها منه ألف جنيه . ثم لايكفيه ذلك فيطلب إلى محمد على أن تسند إليه نظارتا وقف كانتا للسيد عمر ، فأسندها إليه . ثم هو يضع يده على مال العجائز من النساء الأرامل ؛ لأنهن ذوات مال مستضعفات . ويضم إلى بيته زاوية كانت تقام فيها الصلاة ويذكر اسم الله ؛ وينبش القبور التى تجاورها فيخرج منها عظام الموتى ليوسّع من داره مايريد ؛ ويزيد فى رقعتها مايشاء . فلما ضم الزاوية ونبش القبور فأخلاها من عظامها ؛ بنى على هذه وتلك دارا كبيرة لزوجاته . وذلك الشيخ الذى سلب حق أخيه فى مشيخة من مشايخ المتصوفة . ثم كان همه وديدنه وشاغل حياته ونفسه ، جمع المال والتحيّل له من كل سبيل . وكلما كثر ماله زاد كبرياؤه وزاد طغيانه ، حتى ليضنّ على الناس أن يقبلوا يده ، فيترك لهم طرف ثوبه يقبلونه . فإذا خرجوا من حضرته غسل يده بالماء والصابون ، من أثر سلامهم وملامسة أيديهم وشفاههم . والذى استحوذ على كثير من الأضرحة يتنظّر على أوقافها . ثم نازع الفقراء من خدمها ونا كدهم فيما ينالون من مال قليل ، حتى كان يضربهم بالمقارع على أرجلهم . ذلك الشيخ الكبير الذى يقول عنه الجبرتى : إنه « كان يأخذ المال من

الفقير المعدم ، وكسرة الخبز الناشفة من المحتاج » ، والذى كان يرشى شهود القضاء ليشهدوا زورا فيما يريد أن يربح من القضايا ويستولى عليه من حجج الأوقاف والتركات . وكان ينفق كثيرا من وقته ، وجهده ، فى استخراج الدهون والعطور ؛ والمركبات المفرحة المنعشة للقوة ، المجددة للشباب . ذلك الشيخ الذى مات عن كثير من الجوارى ، والماليك ، والعبيد ، والخصيان . والذى وهبت زوجه بعد موته محمداً عليا خمسين ألف جنيه حتى لا يصادرها فيما ترك من ثروة ، ومال .

نجد هذا وغيره من سيرة العلماء فى هذا الفصل الذى يطالعنا بعد قليل . فإذا وجد بعض القراء فى هذا وغيره ما يؤذى إحساسهم ، ويؤلم شعورهم ، ويصدمهم ويخيب ظنونهم فى هـذه الصورة الزاهية الكريمة التى رسمت فى أذهانهم عن هؤلاء العلماء . إذا أحسَّ بعض القراء ذلك . فإن موقفى منه واضح جدا : فقد التزمت الأمانة التامة فى كل ما أكتب من هذه الدراسات (على أن ماسجله الجبرتى من ذلك عن العلماء ، خيرا كان أم نـكرا ، لا سبيل إلى الشك فيه) ، فيما أعتقد .

على أننا ننبه إلى أمر يجب ألا يفوتنا ، أو يفوت القارىء . هو أن الشيوخ الذين سجل عنهم الجبرتى ماسجل من شر ونـكر . كانوا هم الذين يلون المناصب الـكبيرة ، والوظائف الرسمية العالية . وهؤلاء الشيوخ الذين ذكر عنهم الجبرتى تلك السجايا الـكريمة من أخلاق العلماء ، كانوا بعيدين من هذه المناصب ، والوظائف . ونذر أن نجد لهذه القاعدة شذوذا . ولست أدرى ، هل كان وجود هذه الصفات المنـكرة عند الأولين سببا لنوالهم هذه الوظائف والمناصب ، أو نتيجة له . على أنهما قد يكونان سببا ونتيجة معاً .

هذا تلخيص موجز جدا لما نجد من سيرة العلماء كما صوّرهم الجبرتى ، وقد كان صديقا لهم ، خبيرا بهم ، عارفا لأسرار حياتهم . وهذه الصورة التى أجملناها هنا ونفصلها بعد قليل ، قاصرة على الناحية الخلقية . أما النواحى الثقافية والعلمية فنجد تفصيلها فى فصل « الثقافة والبيئة » فى نهاية هذا الجزء ، وفى الفصل الخاص بالحياة الفـكرية والثقافية فى الجزء الأول من كتابنا[1] .

---

(١) ص ٤٧ وما بعدها

الأزهر ومكانته

يشغل الأزهر وعلماؤه ، وطلبته أيضاً ، قسما كبيرا من عجائب الآثار . وأخبار العلماء وتراجمهم ، والحوادث التى كان محورها الأزهر ، تكون جزءا من أهم ما سجله الجبرتى وحرص على تدوينه .

(وهذا طبيعى . فقد كان الأزهر هو المثابة التى يفزع إليها الناس حين يحزبهم أمر ، والمأمن الذى يقصده الشعب حين تضيق به السبل ، وكثيرا ما كانت تضيق بالشعب السبل ، وما أكثر ما كان يحزب الناس من أمر ، فى تلك الحقبة من تاريخ مصر . وكان العلماء والمجاورون ، يستمعون إلى الشعب عندما يلجأ إليهم ، فيغضبون على من أوقع بالناس الظلم . وكان غضبهم ، فى أحيان كثيرة ، كافيا لأن يرجع الظالم عن ظلمه ، بل نجد فى بعض الأحيان ، أن الحاكم الظالم كان يعلن عن توبته أمام العلماء ، ويعاهد الله معهم على أن يعدل .)

(فالأزهر ، فوق مكانته العلمية ، ومهمته الدينية ، كان بمثابة « البرلمان» الذى يترجم عن رغبات الشعب ، سخطاً ورضا ، والترجمة عن السخط أكثر ، بطبيعة الحال ، لأن شئون الحكم ، فى ذلك الوقت ، كان فيها كثير مما يسخط . وقليل جدا مما يسر ويرضى . وقد وجدنا فى الفصل الذى خصصناه عن الحملة الفرنسية على مصر [1] ، كيف كان الأزهر بؤرة الثورة عليها ،وكيف كان رجاله قادة لها ، وأبطالا فيها ، وكيف برزت قوة الأزهر وسيطرة رجاله على مقدرات الشعب ، وتوجيه الأمور .

وفى صفحات متفرقة ، كثيرة ، مما كتبه الجبرتى ، نستطيع أن نتعرف تلك المكانة السامية التى كان الأزهر ورجاله يجدونها لأنفسهم فى ذلك الوقت ، والتى كان الناس ، حكاما ومحكومين ، يعترفون لهم بها ، ويحرصون عليها ، ويفيدون منها .

---

(١) فى الجزء الثالث من الكتاب

وقد كان وجدان الناس ، فى ذلك الوقت ، وجداناً دينيا ، وعاطفتهم ، فى الأغلب ، قائمة على الدين والعقيدة ؛ فلم تكن لهم ، غالبا ، عاطفة وطنية ، ولا يستطيعون أن يدركوها . والعلماء رجال الدين ، والأزهر موطن العلم والعلماء . فكان العلماء يشعرون بما لهم من مكانة وعزة ، بقدر مافى نفوس الناس من العاطفة الدينية ، وكان الناس ينظرون إليهم كحماة للشرع والعدل ، ورقباء على صلاح الحكم ، وتوجيه الحاكم ، وكبح جماح من يرون فيه الشطط أو الفساد ، وكان الحكام يخشونهم لهذه الأسباب ، وخاصة إذا اجتمعت كلمتهم مع الشعب على رأى واحد .

وكان العلماء يقدمون ، فى المناسبات العامة ، على جميع الناس ، وعلى الأمراء . أقام الأمير عبد الرحمن كتخدا حفلات شائقة لختان أولاده . دامت أياما ، فدعا فى أول يوم المشايخ والعلماء ، وفى اليوم الثانى مشايخ الطرق الصوفية ، وفى الثالث الأمراء والصناجق . ثم بقية الطوائف ، فيما تلا من الأيام .

وقد اختلف عبد الرحمن بك هذا مع إسماعيل باشا ، والى مصر من قبل الدولة ، وطلبه الوالى ليصعد عنده إلى القلعة ، فأبى عبد الرحمن وقال: لاأذهب إلا إلى بيت القاضى ، ولا أحاجج خصمى إلا فيه . فلما اشتد النزاع بينهما وضاق صدره « خرج من منزله ماشيا وأراد أن يذهب إلى الجامع الأزهر ، يقع على العلماء » .

ولما قدم على باشا حكيم أوغلى ، واليا على مصر ، زاره السيد أبو السرور البكرى شيخ السادة البكرية ، فتلقاه على باشا ، وقبل يديه وقدمه . وجرت بين طائفة من المماليك والعرب وقائع أسر فيها كبير من المماليك ، واقتيد مكبلا مهانا حتى دخل القاهرة ، وكان يحكمها مراد ، وإبراهيم . ففكا قيده ولا طفاه ، وسألاه أين يريد أن يقيم ، وتركا له أن يختار . فسار حتى دخل بيت الشيخ أحمد الدمنهورى فى بولاق ، وكان شيخا للأزهر ، وذهب كثير من خصومه ليأخذوه من بيت الشيخ فلم يجسروا .

وقد كان مراد صَلِفاً مغرورا ، صاحب قسوة وجبروت . ومع ذلك فقد

ذهب بنفسه إلى منزل السيد محمد البكرى ، عقب وفاته ، وخلع على ابنه ما كان له من مشيخة السادة البكرية ونقابة الأشراف .

العلماء سفراء وقادة

وكان العلماء ، ولهم هذه المنزلة السامية عند الحاكم ، وعند الشعب ، يقومون فى أوقات كثيرة بالسفارة بين بعض المماليك وبعض ، وبينهم وبين الوالى . فقد اختلف على بك الكبير مع طائفة كبيرة من المماليك وتفاقم بينهم الشر ، وكان على بك خارج القاهرة وهم يريدون أن يخرجوا لحربه . وعقدت لذلك جمعية حضرها الشيخ محمد الحفنى ، فعارض فى إرسال الحملة واشتد فى ذلك شدة قاسية ، وقال لهم إنكم خربتم البلاد بخصامكم وعنادكم وحربكم . فقالوا إننا إذا لم نذهب لحرب على بك قدم هو إلينا ، فقال الشيخ إنى مرسل إليه كتابا فلا تتحركوا حتى يأتى جوابه ، فامتثلوا . ثم أرسل الشيخ إلى على بك كتابا شديدا فيه زجر ووعظ ، ونصيحة . وقد انفرد على بك بعد ذلك بحكم مصر وفتح الشام والحجاز ، وكان مع ذلك لا يستطيع مخالفة الشيخ الحفنى .

ولما أرسلت الدولة الغازى حسن باشا إلى مصر لتخليصها من استبداد المماليك ، وظلم مراد وإبراهيم. اتفق هؤلاء على إرسال وفد لملاقاته ، وكان الوفد من المشايخ : العروسى ، والأمير ، والحريرى ، ومعهم اثنان من أتباع المماليك . فذهب الوفد إلى رشيد ، ولقى الغازى ، وكان المتحدث فيهم الشيخ العروسى . وذكر الجبرتى أن حسن باشا لقى الوفد ملاقاة حسنة ، وأكرمه وقابله ثلاث مرات . ثم أرسل إلى أعضائه بعد أن عادوا إلى القاهرة رسائل وردت من الدولة .

وقد كان ذلك فى رمضان . ويقول الجبرتى : إنه لما جاء العيد ، ركب إبراهيم بك إلى منزل الشيخ البكرى ، ثم إلى الشيخ العروسى ، والدردير . وصار يحدثهم « وتصاغر فى نفسه جدا » وأوصاهم بالمحافظة على الرعية ، وكف الناس عن الفتنة .

وعندما اختلف مراد وإبراهيم ، وخرج أولها مغاضبا إلى الصعيد ، أراد إبراهيم ومن معه أن يصالحوه ، فأسلوا إليه الشيخ السادات ، والشيخ العروسى ، شيخ الأزهر ، والسيد محمد البكرى .

ولما هزم المماليك أمام نابليون فى موقعة إمبابة ، تقدم العلماء ، باسم الشعب ، للتحدث إلى القائد المنتصر ، حيث كان المماليك يجدّون فى الهرب .

وكذلك كانوا سفراء بين الشعب وبين الفرنسيين ، عندما كانت تتحرج بينهما الأمور . وبعض هؤلاء العلماء صودرت أمواله ، وسجن ، وهو يتوسط بين رجال الثورة من المصريين ، وبين نابليون ورجاله .

الشيخ العريشى

ومن العلماء من قام بالسفارة عند السلطنة . فإن على بك الكبير أوفد الشيخ عبد الرحمن العريشى سنة ١١٨٣ ليحمل رسالة منه إلى دار السلطنة ، فى إسطنبول ، وليقوم ببعض الأعمال فيها . ومن قبل ذلك أرسل المماليك الشيخ عمر الطحلاوى مبعوثاً إلى دار السلطنة أيضاً — سنة ١١٤٧ — فقوبل بالإجابة ونجح سعيه . وألقى دروس الحديث فى مسجد أياصوفيا فاستمع إليه كبار العلماء فى الدولة . بل من العلماء من كان يرسل إلى السلطنة ، كالشيخ السادات ، فقد أرسل الشيخ إبراهيم السندوبى إليها بمكاتبات ، ومطالب استطاع أن يحققها .

وقد رأينا فى ترجمة والد الجبرتى[1] أن على بك الكبير طلب منه رسالة يبعث بها إلى السلطان ، مع هدية منه . لما عرف من جليل قدره عنده . وفى سنة ١١٦٠ لم يخرج الركب المغربى للحج لأن أمير الحج المصرى اعتدى عليه فى السنة السابقة ، وسلبه . فكتب مولاى عبد الله ، إلى علماء مصر يدعوهم للتدخل فى ذلك ، ومنع أميرهم من التعرض لركبه . كتب إلى العلماء ، ولم يكتب للأمراء ولا إلى الوالى .

---

(١) فى الجزء الأول من الكتاب ، الفصل الأول .

نداء من فوق المآذن

(وكان العلماء قادة ، يتصدرون الناس إذا وقع عليهم ظلم ، أو اعتدى عليهم معتد ، أو كثرت عليهم المغارم والضرائب والمصادرات ، أو ألمّت بهم فتنة . كان الناس ، إذا وقع بهم شيء من ذلك ، توجهوا ، وحدانا وزرافات ، إلى الجامع الأزهر — وقد تذهب النساء أيضاً — ويذهب الصبيان ، ولهم فى الطريق إليه ثورة وعجيج . فإذا دخلوا الجامع صعدوا إلى مآذنه ينادون الناس ، ويصرخون بالظلم الذى يلقونه ، ثم يبطل فريق منهم دروس العلماء التى تحلّق حولهم فيها طلابهم فى الأزهر ، وقد يبطلون الصلاة فيه . ثم يقبلون على العلماء يستصرخونهم مستجيرين بهم . فيرسل العلماء بعضاً منهم إلى أولى الأمر ، أو يخرجون جميعا ، وقد يخرج بعضهم قائدا لهذا الجمع المستجير الغاضب حتى يصل به إلى مجلس ولى الأمر ، أو منزله ، طالبا منه رفع الظلم ، أو منع العدوان ، أو كفّ الجباة ، أو قطع الفتنة . ولهم فى ذلك شجاعة فائقة تستحق أن تدون . وهذا بعض منها) .

لا طاعة للسلطان إذا خالف الشرع

كان بكير باشا والياً على مصر ، سنة ١١٤٨ ، ثم وردت إليه مراسيم من السلطان فيها إبطال لبعض ما كان يصرف للناس من مرتبات ، فلما قرئت المراسيم قال القاضى : إن أمر السلطان لا يخالف ، وتجب طاعته ، فقال له الشيخ سليمان المنصورى . ياشيخ الإسلام ، هـذه المرتبات تصرف على مساجد وأسبلة وخيرات ، وهى قررت منذ أزمان واعتادها الناس ، ورتبوا أمورهم عليها . وطاعة السلطان واجبة إذا لم تخالف الشرع . فسكت القاضى ، وقال الباشا : إنه سيراجع أصحاب السلطنة فيما قاله الشيخ . وانفض المجلس .

وشكا رجل إلى الأمير يوسف بك الكبير : أن شيخا طلق عنه زوجته وهو غائب . فلما عاد وجدها زوجا لغيره . فغضب الأمير ، وأرسل رجاله فجاءوا بالشيخ . مثقلا بالحديد فى رجليه ورقبته ، وحبسه مع المجرمين . فذهب إليه جماعة

من العلماء ومعهم الشيخ علي الصعيدي، والشيخ الجداوي، وتحدثوا إليه حديثا شديدا. وكانت بينهم وبين الأمير مناقشة عاصفة كان ختامها أن لعن الشيخ الصعيدي الأمير ، ولعن من باعه ، ومن اشتراه ، ومن جعله أميرا . ثم أخذوا الشيخ من محبسه وخرجوا يسبّون الأمير ، وهو يسمعهم .

وكان الشيخ السادات عالما كبيرا مسموع الكلمة ، مرهوب الجانب ، تشفع عند طاهر باشا في رجل يسمى مصطفى أغا الوكيل ، فقبل شفاعته . ثم طلبه إليه ، فذهب الشيخ معه . ولكن رجال طاهر باشا خطفوه من الشيخ وهما يسيران في منزل طاهر باشا . فغضب السادات ودخل على الباشا فخاطبه خطابا شديدا . فأطلعه طاهر على خطاب أرسله عدوّ له إلى مصطفى أغا . فقال له الشيخ : هذا لا ذنب له فيه . ولا يؤاخذ به . وإنما يؤاخذ بخطاب منه إلى عدوك . فأعفاه طاهر باشا من القتل ، وأمره أن يقيم في منزل السادات . ثم ذهب في الليلة نفسها فزار الشيخ في بيته ، معتذرا .

بيع الحرائر

وللشيخ السادات ، هو وشيخ آخر ، موقف آخر من مواقف الشجاعة الفائقة ، مع الوالي حسن باشا الجزائرلي .

فقد حضر هذا الوالي وأخرج الأمراء المماليك من القاهرة ، إلى الصعيد . ثم استباح أموالهم وأخذ أولادهم ونساءهم أسرى ، زاعما أنهم أرقاء لبيت المال . فاجتمع العلماء وقصدوا إليه يخاطبونه فيهم فتحدث السادات عنهم قائلا له : هل أتيت إلى مصر لإقامة العدل ، ورفع الظلم ، كما تقول . أم لبيع الأحرار ، وأمهات الأولاد ، وهتك الحريم . . . ؟ فقال له الباشا : هؤلاء أرقاء بيت المال . فقال الشيخ : هذا لا يجوز ، ولم يقل به أحد . فغضب الباشا غضبا شديدا ، وطلب كاتب الديوان فقال له : اكتب أسماء هؤلاء لأخبر السلطان أنهم يعارضون في أوامره . فتقدم إليه الشيخ محمود البنوفري قائلا : أكتب

ماتريد ، بل نحن نكتب أسماءنا بخطنا . فأفحم الجزائرلي ، وترك بيع نساء المماليك وأطفالهم . وترضى الشيخ السادات بعد ذلك ، بأن قبل دعوته للطعام عند قبور أجداده بالقرافة .

وعلم حسن باشا هذا بأن مراد بك ، كبير المماليك ، ترك عند الشيخ السادات وديعة ، فأسل إليه يطلبها فامتنع ، وكانت عند السيد محمد البكرى وديعة أخرى فسلمها . ولكن السادات أبى أن يسلم الوديعة ، وقال إن صاحبها لم يمت ولا أسلمها لغيره مادام حيا .

وقد كان لشجاعة السادات فى هذين الموقفين أثر فى نفس حسن باشا ، لم ينسه أبداً ، فكان كلما ذكر اسم الشيخ السادات يقول : لم أر فى جميع المماليك من اجترأ على مخالفتى مثل هذا الرجل ، فإنه أحرق قلبى . ولكن الشيخ لم يصبه من ذلك سوء .

غضب العلماء

وروى الجبرتى من حوادث شهر جمادى الأولى لسنة ١١٩١ حادثة تدل على مكانة أهل الأزهر ، وما كانوا يثيرونه من الفزع فى قلوب الحكام إذا غضبوا . وهى فى الوقت نفسه ترسم لنا صورة من الحياة الاجتماعية لذلك العهد .

تتلخص الحادثة فى أن المجاورين من المغاربة فى الأزهر آل إليهم مكان موقوف ونازعهم فى ذلك واحد من أصحاب النفوذ يسانده بعض أمراء المماليك ، فأقام المغاربة دعواهم فى المحكمة فأثبتت حقهم فى الوقف . ولكن هذا الحكم لم يرض عنه يوسف بك ، وهو الذى يساند خصمهم ، ويحرضه على عدم تسليم الوقف . وأرسل يوسف هذا بعض رجاله إلى الأزهر ليقبض على رجل يسمى الشيخ عباس ، كان زعيم المتمردين من المغاربة . فلما ذهب هؤلاء الرجال إلى الأزهر قام عليهم المجاورون فطردوهم وسبّوهم . وأبلغوا الأمر للشيخ أحمد الدردير . فكتب خطابا إلى يوسف بك يطلب منه عدم التعرض لأهل العلم ، والخضوع لأحكام الشرع ، وأرسل الرسالة مع الشيخ عبد الرحمن الفرنوى ، وعالم آخر . فلما تسلم منهما

كتاب الشيخ نهرها، وأمر بسجنهما. فلما وصل خبر ذلك إلى الشيخ الدردير وأهل الأزهر، اجتمعوا في الصباح، وأبطلوا الدروس بالجامع، وكذلك أبطلوا الأذان، والصلاة، وأقفلوا أبواب الأزهر، وجلس المشايخ بالقبلة القديمة. وطلع الأطفال فوق المآذن والمنارات يكثرون من الصياح والدعاء على الأمراء. وأغلق أهل الأسواق القريبة من الأزهر حوانيتهم. فلما بلغ الأمراء خبر هذا الهياج، أرسلوا إلى يوسف بك فأطلق المسجونين، وأرسل كبير الأمراء، إبراهيم بك، إبراهيم أغا بيت المال إلى المشايخ، فلم يستطع التفاهم معهم، ولا تخفيف غضبهم. ثم نزل الأغا إلى الغورية ينادى بالأمان، وفتح الحوانيت، فذهبت إليه طائفة من مجاورى المغاربة ومعهم فريق من العوام فضربوا أتباع الأغا، ورجموه بالحجارة. فلم ير بداً من شهر السيف في وجوههم فشهره، وقتل منهم وجرح.

وفي اليوم الثاني حضر إسماعيل بك، والشيخ السادات، وعدد من كبار المماليك والحكام فنزلوا مسجداً قريبا من الأزهر، وأرسلوا إلى أهله خطاباً بأن ينفضوا، لأن مطالبهم أجيبت. ولكنهم لم يرضوا بمجرد الوعد. وطلبوا جراياتهم ومخصصاتهم، وأبوا أن ينفضوا من الأزهر. وبعد ذلك بيوم حضر إسماعيل بك مرة أخرى، ومعه السادات. وأرسلوا إلى المشايخ خطابا مع الشيخ إبراهيم السندوبى يتضمن: أن إسماعيل بك تعهد بقضاء جميع ما يطلبه أهل الأزهر، وتعهد بصرف جراياتهم ومخصصاتهم، وذلك بضمان الشيخ السادات. وأرسل لهم بالفعل جانبا منها. ففتح أهل الأزهر — بعد تردد وتشدد — أبواب الأزهر. واشترطوا في صلحهم ألا يمر الأغا، والوالى، والمحتسب، من حارة الأزهر. وتولى إبراهيم بك نظارة الأزهر بنفسه، وأرسل جنديا من عنده لمطبخ الأزهر.

ذلك كان غضب أهل الأزهر لحرمان بعضهم من وقف. وذلك كان أثره في الدولة الحاكمة إذ ذاك.

ولكن غضب العلماء، والمجاورين، لم يكن دائما لمثل هذا السبب. بل كان يقع، كثيرا أيضاً، بسبب ما يلقى الناس من ظلم. فقد كان حسين بك

المعروف بشـفت[1] ، رجلا كثير الظلم . يصادر الناس فى أموالهم ، ويتهجم على بيوتهم ، ينهب منها مايشاء . فذهب يوما بجنوده إلى بيت شيخ دراويش البيومى ، وكان يسمى أحمد سالم الجزار ، ودخل جنود حسين بك إلى منزل الجزار فنهبوا ما فيه ، حتى الفراش وحلى النساء ، ورجعوا والناس تنظر إليهم صامتين . ولـكن أهل الحسينية ثاروا فى اليوم التالى ، وحضروا إلى الجامع الأزهر ومعهم طبول ، وحضر معهم كثير من العامة بأيديهم النبابيت والمساوق . وذهب الجمع إلى الشيخ الدردير فشجعهم وأيدهم . فتفرقوا فى أنحاء الأزهر وأقفلوا أبوابه ، وصعد بعض منهم على مآذنه يصيحون ويضربون الطبول . وانتشر فريق منهم فى الأسواق القريبة من الأزهر ، فى حالة منـكرة . وقال لهم الشيخ الدردير: فى غد نجمع أهل الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة ، وأركب معكم . وننهب بيوت المماليك ، كما ينهبون بيوتنا . ونموت شهداء ، أوينصرنا الله عليهم . فما بلغ الأمر ذلك الحد ، وعرفه رجال الدولة . أوفدوا رسلهم إلى الشيخ الدردير يطلبون منه أن يرسل إليهم قائمة بما نهبه جنود حسين بك كى يردوه إليه . وبعد ذلك قصد الدردير إلى منزل إبراهيم بك الذى أحضر حسين شفت وأمره برد مانهبه من بيت شيخ الدراويش فى الحسينية .

(وقد كان الشيخ الدردير رجلا شجاعا. وكان العلماء يقصدونه عندما يحتاجون لمن يعينهم على الظلمة من الحكام . وكثير ماهم ، ولـكنهم كانوا — مع عسفهم وجبروتهم — يهابونه) كان الشيخ الدردير فى مولد السيد البدوى . وشكا إليه الناس من ظلم أحد الـكشاف . ومن مصادرته لأموالهم . فطلب الشيخ إلى بعض أتباعه أن يذهبوا إلى هـذا الـكاشف ليحدثوه فى ذلك ، ولـكنهم خشوا أن يذهبوا إليه . فركب الشيخ . بنفسه ، وتبعه كثير من العامة . فلما دخل خيمة نائب الـكاشف ، ناداه إليه ، وكلمه وهو راكب على ظهر بغلته وأغلظ له القول . وأخذت الحماسة واحدا من العامة ، وشجعه كلام الشيخ وعنفه ، فضرب نائب

(١) شفت بالتركية معناها اليهودى.

الـكاشف بالنبوت . فاعتدى جنود النائب على العامة وضربوهم . وقبضوا على تابع الشيخ الدردير وضربوه . ورجع الشيخ إلى محله غاضبا . ولـكن كاشف المنوفية ذهب بعد ذلك إلى كاشف الغربية ، وأخذه لزيارة الشيخ يطلبون صفحه معتذرين . ولما رجع الدردير إلى القاهرة ، ذهب إليه فى بيته إبراهيم بك أمير المماليك ، طالبا رضاه وعفوه .

وفى أوائل سنة ١٢٠٢ كانت الحروب والمنازعات بين المماليك قد أرهقت الناس إرهاقا شديدا ، فضاقت معايشهم ، وفقد الأمن فى البلاد ، وانقطعت الطرق . فرأى الشيخ العروسى . أن يدعو المشايخ ليذهب معهم إلى الوالى يحدثونه فى هذا الأمر ، ويطلبون منه العمل للخروج من هذا الضيق . فلما علم إسماعيل بك ، كبير المماليك ، بسعى الشيخ ، خشى من ذلك ، واحتال لمنع اجتماع العلماء وزيارتهم للوالى . فادعى أن رسولا من الدولة قد جاء بمراسيم . وطلب من الباشا دعوة العلماء لتقرأ عليهم المراسيم ، فلما اجتمعوا وقرئت عليهم باللغة التركية ، قال الشيخ العروسى : إننا لا نعرف هذه اللغة ، فأخبرونا بمحصل هذا الـكلام . فأخبروه بأن أوامر الدولة تقضى بحرب الخارجين من المماليك والقضاء عليهم ، وكان ذلك ما يريده إسماعيل ، فقال الشيخ : وماذا يمنعكم من الخروج لحربهم . . ؟ لقد ضاق الحال بالناس ولا يستطيع أحد أن يصل إلى النيل . وقربة المـاء أصبحت بخمسة عشر نصف فضة . وإسماعيل بك مشغول ببناء الحصون والمتاريس بدلا من الخروج إلى خصمه كما هى عادة المصريين فى الحروب ، حتى يستقر الأمر ويستريح الناس من هذه المنازعات والحروب . وأمّن الباشا على كلام الشيخ ، وأعانه على كبير المماليك .

ومن مواقف الـكرامة والشرف للعلماء ، موقف الشيخ عبد الله الشرقاوى عندما خلع عليه نابليون شارة الجمهورية الفرنسية الثلاثة الألوان .

فقد جمع نابليون كبار العلماء بعد دخوله القاهرة . ثم خرج من المجلس ، وعاد وهو يحمل بنفسه عددا من الطيلسانات بألوان العلم الفرنسى ، ووضع منها واحدا

على كتف الشيخ الشرقاوى . فغضب الشيخ غضبا شديداً . وتغير لونه . وألقى طيلسان نابليون إلى الأرض محتداً . وتحدث ترجمان نابليون إلى العلماء متلطفا متودداً ، ولكنهم لم يقبلوا . ولم يتمالك نابليون غضب نفسه على الشرقاوى فأظهره فى المجلس أمام العلماء . وهو الذى كان شديد الحرص على رضاهم .

وكذلك وقف العلماء موقفا كريما من الوالى أحمد باشا خورشيد ، فقد كان ظالما جبارا ، أراد أن يوقع ظلما بالسيدة نفيسة المرادية ، زوج مراد بك ، فوقفت منه موقف الشجاعة والشمم، وأعانها العلماء عليه . فلما رأوا من خورشيد إصراراً على ظلمها . قال الشيخ محمد الأمير له : إن ظلم هذه السيدة أمر لا يليق ، وإن أصررت عليه فنحن لن نشاركك عواقبه . بل سنترك القاهرة لك تفعل بأهلها ما تشاء . وهمَّ الشيخ بأن يترك المجلس مغاضبا ، ولكن نائب الوالى حال بينه وبين ذلك . ورضى خورشد بعد ذلك أن يترك المرادية على أن تقيم فى بيت الشيخ السادات .

وللشيخ السادات ، عدا مواقفه المشرفة ضد الفرنسيين مماذكرناه فى موضعه[1] موقف فيه كرامة وشجاعة ، وقفه من نائب الوالى عثمان كتخدا . فقد أرسل إليه هذا وقت أن كانت القاهرة تثور على جند نابليون . وكان هؤلاء يصلون أهلها نارا حامية، بسبب نقض العثمانيين للصلح . أرسل عثمان إلى السادات كتابا، فأجابه عليه جوابا قاسياً غاية القسوة ، عنيفاً أشد العنف، بدأه بقوله : حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير . وماهى من الظالمين ببعيد . ثم أشار إلى أن جيش العثمانيين كان حربا على أهل دينه من المصريين بدل أن يكون نصيراً لهم وعونا وأمنا . وأن رئيسهم يعينهم على البغى والجور ولا ينهاهم عنه . وأن جهاد هذا الجيش ليس فى حرب أو كفاح . بل جهاده فى أماكن اللهو والموبقات . حتى أوقع بالناس الذل والضر ، ونزلت بهم أعظم الدواهى والمصائب. فلما وقع بالناس الضر من الفرنسيين، فر هذا الجند كما يفر الفأر من السنور . وهو كتاب قصير ، ولكنه قوى عنيف غاية العنف . لا نجد نظيرا له فى أسلوب ذلك العصر . وفى خطاب أهل السيادة والغلظة من العثمانيين خاصة .

---

(١) فى الجزء الثالث من الكتاب .

شيخ الأزهر يقود الشعب

ونجد فى هذه القصة التى رواها الجبرتى فى حوادث ذى الحجة من سنة ١٢٠٩ أن غضب العلماء قد يصل إلى حد الثورة . وقد نجحت هذه الثورة وحققت أهدافها ولكن تهاون الشعب فى الحرص على ما نال من حق ، وجبروت المماليك وخداعهم جعلا نجاح هذه الثورة موقوتا .

ويحسن أن نقرر ، أولا ، أن البادىء بهذه الثورة ، وزعيمها ، وقائدها ، كان شيخ الأزهر ، الشيخ عبد الله الشرقاوى .

حضر للشيخ جماعة من الفلاحين ، من بلبيس ، وكانت له ضيعة فيها . وشكوا له من ظلم محمد بك الألفى وأتباعه . فغضب الشيخ ، وتحدث إلى مراد وإبراهيم فلم يستجيبا له . ففى اليوم التالى جمع الشيخ العلماء وقفل أبواب الأزهر ، وأمر الناس بغلق حوانيتهم ومتاجرهم . ثم ركب مع المشايخ وتبعهم خلق كثير قاصدين بيت الشيخ السادات ، وكان مجاورا لبيت إبراهيم . فلما رأى إبراهيم تجمعهم عند السادات أرسل إليهم أيوب بك الدفتردار يسألهم ما يريدون ، فحضر إليهم « ووقف بين يديهم » فقالوا : « نريد العدل ورفع الظلم والجور ، وإقامة الشرع ، وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأعدتموها » فقال . ذلك أمر غير ممكن . فإننا إن فعلنا ذلك ، ضاقت علينا المعايش والنفقات . فقال له العلماء : ذلك ليس بعذر لا عند الله ولا عند الناس ، ولماذا تكثرون فى النفقات وشراء المماليك ، والأمير يكون أميراً بالإعطاء ، لا بالأخذ . فقال لهم أيوب بك الدفتردار : أمهلونى حتى أعود لمن أرسلنى ، ولكنه لم يعد لهم بجواب . فعاد المشايخ إلى الأزهر ، واجتمع فيه كثير من أهل القاهرة وأطرافها ، وباتوا فى المسجد . وخشى إبراهيم مغبة الثورة ، فأراد أن يداهنها . فأرسل للعلماء يقول : إنه معهم ويؤيدهم ، وإن ما يقع من المظالم ليس له فيه يد . ثم أرسل إلى مراد بك يخيفه عاقبة عناده . فأرسل مراد إلى العلماء يفاوضهم . ثم أرسل يطلب بعضهم إليه . فذهبوا إلى بيته فى الجيزة حيث لاطفهم ورجاهم أن يتوسطوا فى الصلح .

وفى اليوم الثالث ، حضر الباشا الوالى إلى منزل إبراهيم بك ، واجتمع الأمراء هناك ثم أرسلوا إلى العلماء فى الأزهر ، فحضر منهم المشايخ: السادات ، والشرقاوى والنقيب ، والبكرى، والأمير، وطلبوا من الشعب ألا يرافقهم ، بل ينتظرهم حتى يعودوا إليه بالنتيجة . واجتمع العلماء الخمسة بالوالى والأمراء . وطال بينهم الجدل ثم انتهى الأمر إلى أنهم — أى الأمراء — تابوا ورجعوا ، والتزموا بما شرطه العلماء عليهم . وأن يبطلوا المظالم المحدثة ، ويكفوا أتباعهم عن أموال الناس ، وأن يسيروا فى الناس سيرة حسنة » وكان القاضى حاضراً فى المجلس ، فكتب بذلك وثيقة وقعها الباشا وإبراهيم ، وأرسلت إلى مراد فوقعها .

وعاد العلماء وشيخ الأزهر ، وأمام كل واحد منهم ، وخلفه ، جملة عظيمة من الشعب وهم ينادون : بطلت جميع المظالم والمكوس من مصر ، حسب مارسم سادتنا العلماء ، وفرح الناس بذلك فرحا عظيما . وسنجد فى الفصل الذى عقدناه عن شعب[1] مصر وكفاحه ، أمثلة أخرى كثيرة رائعة عن شجاعة العلماء .

زهد العلماء وتواضعهم

وقد كانت أخلاق العلماء ، وفضائلهم ، من الزهد ، والبعد عن الصغائر ، والانقطاع للعلم ، والشجاعة ، التى رأينا أمثلة منها . سبباً فى تمتعهم بهذه المكانة العظيمة ، والمحبة عند الشعب . وهذه الكرامة والمهابة ، عند الأمراء والولاة .

الشيخ العفيفى

فمن الزاهدين الذين ترجم لهم الجبرتى ، الشيخ عبد الوهاب العفيفى ، وكان من مشايخ الطرق ، من قرية ميت عفيف ، ومع فضله وعلمه ، كان متواضعاً جدا متحرزا فى مأكله وملبسه ، لا يأكل إلا ما يجيئه من بلده . من الخبز الجاف

---

(١) فى الجزء الثالث من الكتاب

« والدقة » وكان الأمراء يقصدونه للزيارة فينفر منهم . ومن تفضل الشيخ بمقابلته قدم له من خبزه الذى يأ كله .

ومنهم فقيه كان يسمى الشيخ الصائم ، وهو تلميذ الشيخ العفيفى ، ترك زى العلماء إلى زى الفقراء ، وباع كل ما يملك ثم سافر إلى السويس فركب سفينة فانكسرت ، وخرج منها بثوبه الذى يستر عورته فقصد بعض الأعراب فأكرمته امرأة منهم ، وبقى عندها زمناً يقوم على خدمتها . ثم تركها إلى ينبع ، فأقام فى مسجدها ، وصعد إلى مئذنته فأذن على الطريقة المصرية فسمعه حاكم ينبع وأعجب بطريقته وصوته ، فاستدعاه وسأله عن حاله ، فقال : إنه فقير من الفقراء ، فأكرمه الحاكم ، وكساه . وكان يدعوه إلى قصره كل يوم . وبعد ذلك مات كبير من الأعراب . وتشاحن أولاده على ميراثه . فقدموا إلى الحاكم ، فاستمهلهم حتى يرسل بفتواهم إلى علماء مكة . ولكنهم اختلفوا مع الهجان الذى سيسافر بفتواهم إلى العلماء . فلما رأى الشيخ حيرتهم ، وتشاحنهم ، طلب من الحاكم دواة وورقا ثم ذهب إلى المسجد وعاد لهم بعد قليل بجواب فتواهم مدعمة بالأدلة الفقهية . فلما قرأها الحاكم ، وأبدى له عجبه من تواضعه وانكاره فضل نفسه ، قال له الشيخ : إنى لو ادعيت معرفة العلم ما صدقنى أحد ، لرثاثة حالى . فزاد الحاكم فى إكرامه ورفع منزلته . وأجرى عليه من المال ما يكفيه ، وطلب إليه أن يقرأ فى المسجد دروس الفقه والحديث . وعاش بقية عمره عيشة طيبة .

الشيخ الراشدى

ومنهم الشيخ أحمد الراشدى . كان عالماً فى الفقه والحساب والحديث ، حافظاً للقرآن ، حسن الصوت ، عارفا بالموسيقى . فلما بنى محمد بك أبو الذهب مسجده المقابل للجامع الأزهر أراده أن يكون خطيبا له فامتنع على الرغم من إلحاح أبى الذهب . وأرسل له صرة من الدنانير الذهب فردها ، ولم يقبل . فألح عليه مرة أخرى إلحاحاً

شديدا حتى خطب فيه الجمعة . وألبسه الأمير خلعة ، وأعطاه مقدارا من الدنانير قبلها كارها . ورجع إلى بيته محموماً يدعو الله ألا يخطب بعد ذلك فى هذا المسجد . وقبل الله دعاءه ، فظل فى بيته مريضاً حتى مات .

الشيخ البولاقى

وإلى جانب هذا الشيخ ، الذى لم تغره خلعة محمد بك أبى الذهب ، ولادنانيره ، نجد آخر ، هو الشيخ أبو ذكرى البولاقى . الذى كان ينتقل من بولاق حيث يقيم ، إلى الأزهر ، راكباً حماره ، ليقرأ على الناس درسه ، ثم يرجع بعد الظهر ، فلما مات حماره ، لم يشأ أن يتخلف عن درسه . بل كان يمشى على رجليه كل يوم من بولاق إلى الأزهر حتى أشفق عليه بعض جيرانه فاشتروا له حمارا .

وكان الشيخ خليل المدابغى عالما كبيرا فاضلا ، ولكنه كان فقيرا . فكان ينسخ للناس الكتب بالأجر ليعيش عيش الكفاف . ويظن من لايعرفه أنه من العوام .

زهد وعفة

ومن القصص الطريفة التى سجلها الجبرتى عن زهد العلماء ، وكرم أخلاقهم ، أن السلطان محمدا ، سلطان المغرب، كان يرسل فى كل عام أموالا تنفق على علماء الأزهر . وفى سنة ١١٩٨ وردت هذه الأموال ، وصرفت . وكان لهذا السلطان ولد تخلف فى القاهرة وهو عائد من الحج إلى المغرب ، وأقام فيها زمنا نفد فيه مامعه من المال . وتحدث الناس بقصته . فلما جاءوا للشيخ أحمد الدردير بنصيبه من صلة السلطان ، سأل عن قصة ابنه هذا ، فلما سمعها أبى أن يأخذ نصيبه من الصلة . وقال : والله لا يجوز أن نأخذ أموال أبيه ، ونحن فى سعة ، ونتركه فى الضيق والغربة . ثم أعطاه حقه من الصلة . فلما سافر الولد إلى أبيه السلطان وحدثه بما فعل الشيخ . أرسل إليه عشرة أضعاف ماقدم لابنه . فأدى منها الشيخ فريضة الحج وبنى ماباقى الزاوية التى دفن فيها بعد موته .

الشيخ الشنوانى :

وروى الجبرتى عن الشيخ محمد الشنوانى ، وكان شيخا للأزهر : أنه كان يشمّر ثيابه ويكنس مسجد الفاكهانى بيده ويسرج قناديله . ولما طلب لمشيخة الأزهر امتنع واختفى فى مصر القديمة حتى أرغم عليها · وبقى ، وهو شيخ الأزهر ، ملازما مسجد الفاكهانى ، لم يتخل عن كنسه وإسراج قناديله ، حتى مات ·

الشيخ على الصعيدى

أما الشيخ على الصعيدى — وقد ذكرنا من قبل بعض الأمثلة من شجاعته — فقد كان فى مبدإ اشتغاله بالعلم ، كثيرا ما يبيت جائعا ، ولا يقدر على ثمن الورق الذى يكتب فيه دروسه . وكان مع ذلك ، إن وجد شيئا تصدق به . وقد بلغ الصعيدى مبلغا جعل الجبرتى يصفه بأنه « شيخ مشايخ الإسلام » وكان شديداً فى نقده الأمراء وذوى النفوذ · يرى تحريم شرب الدخان . فكانوا يخشون بأسه ويتحاشون أن يشربوه فى حضرته « · ومن شربه أمامه كسر آلة الشرب ، ولو كانت فى يد أمير الأمراء . وكان على بك الكبير يوصى حاشيته أن يخبروه بقدم الشيخ الصعيدى حتى يرفع « الشُّبُك[1] » ويخفى أثر الدخان ، قبل دخوله عليه .

ودخل الشيخ عليه مرة ، فقبل يده وأجلسه · وكان على بك مفكرا قليل الكلام فى ذلك اليوم . فظن الشيخ أنه معرض عنه فقال له الشيخ ، بلهجته الصعيدية ، يامن غضبك ورضاك على حد سواء ، بل غضبك خير من رضاك · ثم ترك المجلس وعلى بك يترضاه ويستعطفه وهو لا يجيبه . ثم عرف أن الشيخ

---

(١) الشيشة أو الترجيلة ، أو قصبة التدخين . ويقول إدوار وليم لين — السائح الإنجليزى الذى زار مصر فى القرن التاسع عشر ، وألف عنها كتابا قيما عربه الأستاذ عدلى طاهر نور باسم « المصريون المحدثون » — يقول لين إن طول هذه القصبة ، كان يبلغ خمسة أقدام ، وقد يزيد على ذلك زيادة كبيرة .

كان قادما فى أمر فقضاه له . ومع ذلك بقى الشيخ منقطعا عن زيارته حتى زاره مع والد الجبرتى بعد زمن طويل . فسرّ على بك بذلك سروراً كبيرا .

وكان الشيخ الصعيدى مرعى الجانب عند محمد بك أبى الذهب ، الذى خلف على بك فى الحكم . فكان المظلومون وأصحاب الحاجات يقصدونه ، وهو يدوّن مظالمهم وحاجاتهم ، ثم يقصد بها إلى أبى الذهب فلا يخالفه فى شىء منها . فإذا رأى عنده بعض الضجر قال له :لاتضجر ، ولا تأسف على أمر يفوتك بغير الحق. وقد أمرنا ربنا أن نقوم بنصحك ،ويسألنا يوم القيامة . فها نحن أولاء قدنصحناك وأحيانا كان يزجره ويقول صارخا : اتق الله وعذاب جهنم ، ثم يمسك يده ويقول: إنى أخاف على هذه اليد من النار .

وكان الشيخ مع ذلك كثير التواضع ، لا يركب إلا الحمار ، بارا بأهله ، يرسل إلى فقراء بلده — بنى عدى — الصلات والأكسية ، وإلى النساء منهم الطرح والعصائب والأحذية .

الشيخ سليمان الفيومى

وكان للشيخ الصعيدى هذا غلام اسمه سليمان يمشى خلف حماره، وعليه ثياب خلقة، ثم يقصد فى الليل — وهو حسن الصوت — إلى بيوت الأعيان، ينشد الأناشيد ويقرأ القرآن . ومن ثم اتصل ببيوت الأمراء ، ونسائهم . وكانت له عندهن مكانة . وكذلك أحبه الأمراء حتى أوفده بعضهم برسائل منه إلى دار السلطنة . وتزوج من نساء الأمراء ، واتسع جاهه ، وكثر ماله . ولكنه كان كريم النفس ، سخى اليد ، حسن العشرة ، معينا لكل محتاج . فكان الناس يقصدونه لحوائجهم، فلا يردهم . وأحيانا يقضى يومه كله فى التردد بين بيوت الأمراء للسعى فى حوائج الفقراء والمحتاجين ، فإذا لقى عند بيته ، وهو عائد ليلا من هذا السعى ، فقيرا أو مظلوما يريده أن يذهب فى حاجته ، رجع للسعى مرة أخرى ، ولا يعود إلى بيته إلا وقد قضى له ما يريد . وكان كثير من أصحاب الحاجات هؤلاء يقيمون فى بيته ، وينفق عليهم حتى يقضى حوائجهم ويعطيهم ما يعودون به إلى بلادهم .

ولما قدم حسن باشا الجزائرلى ، وهرب المماليك إلى الصعيد ، أحاط بدورهم وطالب نساءهم بالأموال . وأخذ أولادهم وجواريهم ، وأمهات أولادهم ليبيعهم فى المزاد ، فقصد نساء الأمراء إلى هذا الشيخ مستجيرين ، فآواهن وكافح كفاحا شديداً فى سبيل حمايتهن من ظلم حسن باشا ، ومن ظلم إسماعيل بك من بعده. فلما رجع الأمراء أزواج هؤلاء النسوة عرفوا له مروءته ونخوته . وزاد قدره عندهم • حتى كانوا — على الرغم من الحجاب الصارم فى بيوتهم وعلى حريمهم — يأذنون له فى أن يدخل بيوتهم فى غيبتهم • ويقصد إلى منزل حريمهم من غير إذنهم • وكانوا يفرحون بذلك . وخاصة نساء الأمراء • وكن يستشرنه فى أمورهن . ويدعونه : أبونا الشيخ المبارك • ويعملن بما يشير به .

وكذلك عندما دخل نابليون مصر • وقف الشيخ لحماية نساء الأمراء ، وأدخل كثيرات منهن إلى داره ، حتى امتلأت ، فأقمن بها شهورا ، واستجاربه كثير ممن حاربوا الفرنسيين، فأخذ لهم الأمان من نابليون • ولقى عند الفرنسيين من المحبة والتقدير مثلما كان يلقى عند المماليك من أمراء مصر . فاختاروه عضوا فى الديوان • وقبلوا ضيافته فى بيته • وجعلوه شيخا على مشايخ البلاد . وظل ، بعد خروج الفرنسيين ، متمتعا بحرمة وافرة ، ومكانة كبيرة ، حتى مات ، وصلى عليه فى الجامع الأزهر ، وسارت آلاف من الناس — نصفهم من النساء — خلف نعشه • ووجدوا عليه دينا قدره عشرة آلاف ريال ، وترك بنتين . ولكن أصحاب هذه الديون سامحوه فيها ، ولم يطلبوها من بناته • فقد كانوا يعرفون أنه أفنى ثروته الكبيرة على المحتاجين وفى وجوه البر . وهذا الشيخ هو الشيخ سليمان الفيومى •

وكما أكرم الناس الشيخ سليمان الفيومى بعد موته ، بأن تركوا ديونهم عليه ، كانوا يكرمون أمثاله من العلماء الفقراء فى حياتهم ، بسد حاجتهم ، مع الكرامة والصون . فمن ذلك ما أشرنا إليه من قبل ، ومن ذلك ما ذكره الجبرتى عن الشيخ أحمد الطهطاوى . فإنه لما سكن حى الصليبة ، احتفى به أهله ،

وأسكنوه داراً تليق به ، وبعثوا إليه بالهدايا الكثيرة والصلات ، وبالغوا في إكرامه .

وكان الشيخ محمد البليدى الأندلسى ، يلقى دروس الفقه والحديث فى مسجد الحسين ، فتعلق به الناس ، وخاصة المغاربة ، واشتروا له داراً فى درب الشمسى ، وقسطوا ثمنها على أنفسهم .

وذهب الشيخ عبد الكريم المسيرى ، المعروف بالزيات ، إلى الصعيدواعظا ، فلما وصل إلى بهجورة ، تلقاه أهلها وأكرموه ، واستبقوه عندهم ، وخصصوا له منزلا واسعا أقاموا فيه الخدم يقومون على شأنه . وأقطعوه جانبا من أرضهم فملكوه له . وأقام بينهم دهرا طويلا حتى أصبح ذا ثراء عريض . يملك الزروع ، والعقارات ، والمواشى ، والعبيد .

علماء يفتنون بالدنيا

ولكن ، إلى جانب هذه الصورة المشرفة ، التي رسمها الجبرتي لبعض العلماء ، نجد وجهاً آخر لهذه الصورة . صور الجبرتي فيها فريقاً منهم ، فإذا هم ، ظلمة ، جماعون للمال ، مفتونون بالدنيا أشد فتنة ، يقسون على الفلاحين — وهم منهم — قسوة بالغة . بل كان بعضهم أشد قسوة عليهم من الأتراك ، والمماليك ، والفرنسيين. يتاجرون بالفتوى ، ويسارعون إلى مرضاة كل جبار ، ولو غضب الله عليهم

وقد ألهمت هذه التجارة بالفتوى شاعر العصر ، الشيخ حسن الحجازى قصيدة طويلة طريفة . فقد تنازع فريق من المماليك ، ووقعت بينهم حرب طويلة قاسية ، واستطاع كل فريق منهم أن يحصل على فتوى من العلماء بأنه على حق ...! وأنه ، كما أفتى العلماء ، يجوز له أن يقاتل الفريق الآخر . وفى هذه القصيدة الطويلة الطريفة يقول الشيخ الحجازى .

والعلما ، أهل الضلال والردى ، لهم أباحوا كل ما لا يحمد

أما جمع المال والحرص عليه ، فقد روى الجبرتي أن الشيخ محمد شنن المالكي شيخ الأزهر ، كان أغنى أهل زمانه . وأنه لما مات في سنة ١١٣٣ . ترك لابنه موسى ، من الذهب البندقي وحده ، أربعين ألفا «خلاف الجنزرلى ، والطولى ، وأنواع الفضة والأملاك ، والضياع ، والوظائف ، والجماكى ، والرزق ، والأطيان ، وغير ذلك » ثم يقول الجبرتي : إن ابنه هذا أتلف جميع ما تركه الشيخ . ثم مات مدينا .

وكان الشيخ عبدالله الشبراوى ، شيخ الأزهر أيضاً ، واسع الثراء ، بنى دارا عظيمة على بركة الأزبكية ، مسكن الأمراء وأهل الثراء فى ذلك الوقت ، وأنفق عليها أموالا عظيمة . وكان يجمع فيها التحف النادرة والكتب الحسنة الخط ، ويعنى بتجليدها وزخرفتها .

وكان لمطبخ ولده ، عامر ، رأسان من الغنم السمينة ، يذبحان فى كل يوم .

وروى الجبرتى : أن الشيخ عبد الباسط السندوبى ، وكان عالما شديد الذكاء قوي الحافظة ، نازع امرأة عجوزا على فدان ونصف فدان من الأرض ، وظل هذا النزاع سنين طويلة ، ولقى فيه الشيخ مهانة كبيرة • حتى قال له العروسى مرة : والله لو كان هذا الفدان ونصف لى فى الجنة ، ونازعتنى عليه هذه العجوز ، لتركته لها . ولكن الشيخ عبد الباسط لم يترك المرأة العجوز ، وظل فى نزاعه معها حتى مات. ثم يتبع الجبرتى هذه القصة بقوله : إن الشيخ فعل « غير ذلك أمورا يستحى من ذكرها فى حق مثله » •

الشيخ الشرقاوى

وكان الشيخ عبد الله الشرقاوى من أعظم علماء عصره . تولى مشيخة الأزهر واختاره نابليون رئيساً للديوان الكبير الذى أنشأه ليعاونه فى حكم البلاد • ولكنه كان فى بداية أمره فقيرا جدا ، يواسيه إخوانه ، ويرسلون إليه صحائف الطعام أو يدعونه إلى طعامهم ، ولا يطبخ فى داره إلا نادرا . وكان يذهب إلى بيوت الناس ، وإلى المآتم ، يقرأ القرآن ، ويقيم الأذكار . ثم يأكل مع إخوانه المقرئين قصعة الثريد . وفى آخر الليل يأخذ أجره القليل يقتسمه معهم ، فلما أقبلت عليه الدنيا ، وتولى مشيخة الأزهر ، زاد فى تكبير عمامته وتعظيمها ، حتى صار يضرب بعظمها المثل ، على حد تعبير الجبرتى ، وكان الشيخ مصطفى الصاوى ينازعه المشيخة ، ثم انتهى أمرها إليه ؛ على أن تبقى للصاوى وظيفة التدريس بالمدرسة الصلاحية ، المجاورة لضريح الإمام الشافعى . ولكن الشرقاوى طمع ، بعد قليل فى مرتب هذه المدرسة ، فذهب يسعى عند أنصاره من الشيوخ والأمراء فى أن ينالها ، ثم ذهب يوما إلى هذه المدرسة وألقى فيها درساً • واستعان الصاوى بكتخدا إبراهيم بك الكبير • وسامحه فى دين كان له عنده . وطال النزاع واشتد أمره بين الشيخين • وكانت الغلبة للصاوى . فبقى فى المدرسة حتى مات ، ثم أخذها الشرقاوى . وطلب من خدم الضريح مايستحقه من مال ، وشاحنهم فى ذلك ،

وسبهم . فتعصبوا عليه ، وشكوه للوالى ، وأوشك أن يعزل من مشيخة الأزهر بسبب ذلك . ثم وقف عن عمله أياما وعفا عنه الوالى على أن يترك المدرسة الصلاحية (ومما ذكره الجبرتى عن الشيخ الشرقاوى : أنه حصل له ، فى شبابه ، اختلال فى عقله . وأنه بقى أياما فى مستشفى الأمراض العقلية)

ولما اختاره الفرنسيون رئيساً للديوان كان يشتغل بالوساطات والشفاعات لديهم وينال فى ذلك أجرا من أصحاب الحاجات . واستولى ، بما كان له من جاه فى ذلك الوقت ، على ثروات كثيرة هاجر أصحابها ، أوقتلوا أو اختفوا . واتسعت عليه الدنيا ، وكانت زوج الشيخ ، ابنة الشيخ على الزعفرانى ، عندما تزوجها ، فقيرة مثله . فلما كثر ماله ، ترك لها تدبيره . فاشترت له الأملاك ، والعقارات والحوانيت ، والحمامات . مما يغلّ فى كل شهر قدرا كبيرا من المال .

ولما بنى الشيخ الشرقاوى رواقا خاصاً لأهل الشرقية فى الأزهر ، نقل إليه أحجارا وعمودا من مسجد الظاهر بيبرس ، خارج الحسينية . وكان يدخل فى نظارته وقف فيه خانقاه قديمة أنشأتها الخاتون طغاى الناصرية — زوج السلطان الناصر قلاوون — فلما بنى الفرنسيون قلاعهم خارج القاهرة بعد ثورة أهلها ، هدموا هذه الخانقاه ، وكانت فى الصحراء ، خارج المنطقة المعروفة بالدراسة ، قريباً من الأزهر ، فى الطريق إلى القرافة .

ولما خرج الفرنسيون من القاهرة بعد تخريب هذه الخانقاه ، ضمها الشيخ إلى أملاكه ، وبنى مكانها زاوية ، ومدفنا له . وإلى جوارها أقام قصرا كبيرا ، يحتوى على أروقة ومساكن ومطبخ . وكانت إلى جوار الخانقاه ساقية فجعلها بئرا لقصره .

وقد ذكر الجبرتى أنه زار هذه الخانقاه فوجد بها ، روحانية لطيفة . وعددا من الناس يقيم فيها . عدا القائمين بخدمتها . وكان ذلك قبل أن يستولى الشيخ عليها ويضمها إلى أملاكه .

فهو يقول فى ترجمة الشيخ أحمد العريشى ، مثلا ، إنه كان يتدخل فى القضايا والدعاوى ، واشتهر فى ذلك أمره . فاشترى داراً واسعة ، وتجمل بالملابس ، وركب البغال ، وصار له أتباع وخدم . وكان ، مع ذلك ، قاضيا ومفتيا .

وكان الشيخ محمد الدواخلى عالما كبيرا ، وله نسب شريف ، من جهة أمه ، وتولى ، فى أيام محمد على ، نقابة الأشراف . ومع ذلك يصفه الجبرتى بأنه كان يتدخل فى القضايا ، وخاصة أيام الفرنسيين ، وكان يأخذ الأراضى النزاما ، ويؤجرها للفلاحين ، وأدخل فى ملكه كثيرا منها . وجمع من هذا وذاك ثروة طائلة .

وقد أسهب الجبرتى فى ذكر « فتنة » — على حد تعبيره — وقعت فى الأزهر وكان سببها النزاع بين الشيخ أحمد النفراوى ، والشيخ عبد الباقى القلينى على المشيخة . وقد بلغ النزاع بين الشيخين وأنصارهما إلى حد استعمال البنادق فى داخل الأزهر . وقتل بالرصاص من جماعة النفراوى عشرة . عدا الجرحى ، وأغلقت أبواب الأزهر ، ومنعت الصلاة فيه ، وكسرت الخزائن ، وحطمت القناديل . ولم تنته الفتنة إلا بالحجر على النفراوى وأمره بأن يلزم بيته . ونفى الشيخ محمد شنن ، الذى تولى مشيخة الأزهر فيما بعد ، إلى بلده . والقبض على اثنى عشر عالما وحبسهم فى العرقانة ، أى السجن .

ومن العلماء من كان يبيع العلم . كالشيخ حسين المحلى . كان يكتب مؤلفاته بخطه ، ويبيعها لمن رغب . ويأخذ من طلبته أجرا على تعليمهم . فإذا طلب منه أحدهم أن يقرأ له كتابا معينا ، ساومه فى ذلك وتمنع عليه قائلا له : إنى لا أبذل العلم رخيصا . ولا يقبل منه مايعرضه من مال إلا بعد شدة وعناء وجهد .

ومن الملاحظات الطريفة التى سجلها الجبرتى : أن محمد بك أبو الذهب بعد أن تم بناء مسجده المواجه للأزهر ، اختار ثلاثة من العلماء للتدريس فيه ، والفتوى . وفرض لهم مرتبا يكفيهم ، وشرط عليهم ألا يقبلوا الرشوة . . .

الشيخ محمد المهدى

ومن أعظم العلماء الذين ترجم لهم الجبرتى . الشيخ محمد المهدى . كان أبوه صيرفيا يسمى أبيفانوس من حى الصيادين فى الإسكندرية . وجده لأمه يسمى البطاس وكان قبطيا فأسلم ، وهو دون البلوغ ، على يد الشيخ الحفنى الذى احتضنه ورباه فى بيته مع أولاده وعنى به عناية كبيرة . ثم اشتغل بالعلم حتى برّز فيه . ثم أقبلت عليه الدنيا بعد أن تزوج امرأة ثرية . والتصق بالوالى حسن باشا الجزائرلى فأنعم عليه بالخلع والكساوى، ورتب له الوظائف فى الضربخانة، والسلخانة والجوالى[1] . ووقع بمصر طاعون . فكان يضم إلى ثروته تركات من يشاء من الموتى . وزاد ماله زيادة كبيرة . ولكن شهوته للمال كانت تزيد أيضاً . فتاجر وشارك من يتاجر له ، فى القطن ، والكتان ، والأرز . وغير ذلك . وأخذ بلدة « شابور » فى البحيرة التزاما . كما أخذ بلاداً غيرها فى الجيزة ، والغربية ، والمنوفية ، وبنى داراً عظيمة بالأزبكية بناحية الرويعى . ولما قدم نابليون إلى مصر تقدم إليه ولاطفه ، وسايره . فأحبه الفرنسيون ، وقبلوا شفاعته ، و سارعوا مدة إقامتهم فى مصر كلها إلى تلبية رغباته . واختاروه رئيسا إداريا للديوان . ونال فى أيامهم أموالا عظيمة .

وكان إذا سار مشى حوله وأمامه الحراس ، بأيديهم العصى ، يفسحون له الطريق . وأقامه الفرنسيون جابيا لهم فى بلاد كثيرة يجمع لهم منها الضرائب . فيأتى له الفلاحون بالهدايا ، من الغنم ، والسمن ، والعسل وغيرها . فلا يمتنع، مع ذلك ، من حبسهم وضربهم . وصار له أتباع وأعوان وخدم . ولما خرج الفرنسيون من مصر . نال المكانة نفسها والصدارة ، فى أيام العثمانيين . واستولى على قلوبهم بحيلته . فأبقوا له أراضيه ، والتزاماته ، وزادوه عليها . وأكثر من الزوجات ، وكلما كبر له ولد أسرع بتزويجه ، فتتقاطر عليه الهدايا من المسلمين والنصارى . واشترى داراً كبيرة بناحية الموسكى على الخليج ، وكانت بها قاعات عظيمة ، جدرانها وأرضها مكسوة بالرخام الملون والقيشانى ، وتطل على

(١) الجزية التى كانت تفرض على النصارى واليهود .

بستان عظيم . ولما اشترى هذه الدار ، وكان أصحابها عتقاء بعض الأمراء ، دفع لهم بعض ثمنها وأخـذ منهم وثيقة الشراء وانتقل إليها · وكلما طالبوه بباقى الثمن ماطلهم · ثم تركهم وسافر إلى البلاد التى نالها بالالتزام ، أو ملكها . وظل غائبا عن القاهرة خمس سنين ، مات فيها أصحاب الدار ، وبقيت منهم امرأة ظلت تراسله وترجوه ، وهو لا يصغى إليها · فلما عاد إلى القاهرة عرضت العجوز أمرها على نائب الوالى · وبذلك استطاعت أن تنال بعض حقها ·

ثم اشترى ولد له اسمه أمين ، أرضا مجاورة لبيت أبيه هذا بنى عليها داراً كبيرة · بقى العمال يصنعون رخامها أربع سنين .

ولما وقعت الجفوة بين السيد عمر مكرم ، ومحمد على . وجد الشيخ المهدى فى ذلك فرصة للتخلص من السيد . فسعى ، ومعه علماء آخرون . وشهدوا فى عمر مكرم شهادة الزور ، حتى نفاه محمد على إلى طنطا . ثم طلب من محمد على ثمن خيانته لعمر مكرم ، فدفع له ألف جنيه · وفى اليوم الذى خرج فيه السيد عمر منفيا ، طلب المهدى من محمد على نظارة وقف سنان باشا ، وضريح الإمام الشافعى ، وكانا تحت نظر السيد عمر ، فأعطاها له محمد على .

وكان دائم الحركة ، لا يبيت فى بيته إلا مرة أو مرتين فى الأسبوع ، ويقول فى ذلك : أنا بيتى ظهر بغلتى . فإذا أراد المبيت ، نام فى أى مكان ، ولو على حصير . وكثيرا ما كان يأكل الجبن الحلوم ، والفسيخ ، أو البطارخ · مع هذه الأموال العظيمة التى جمعها ·

والشيخ المهدى هو الذى كان يكتب منشورات نابليون التى كان يذيعها على المصريين باللغة العربية يدعوهم بهـا إلى مسايرته ، وطاعته . واختير سكرتيرا للدواوين الثلاثة التى أسسها الفرنسيون فى مصر .

ولما فرض الفرنسيون الضرائب الفادحة على أهل القاهرة عقابا على ثورتهم الثانية فى عهد قيادة الجنرال كليبر ، أعفوا من الضريبة كلا من الشرقاوى ، وخليل البكرى . لأن الشرقاوى ، كما يقول الجبرتى ، كان « يستعمل المداهنة ، وينافق الطرفين ، بصناعته وعادته » . ولعل ذلك هو الذى جعل نابليون يثنى

عليه ، ويمدحه ، فيقول إنه : « أذكى علماء الأزهر ، وأفصحهم لسانا ، وأكثرهم علما ، وأصغرهم سنا[1] » .

ومن غريب ما ذكره الجبرتى عن الشيخ المهدى ، أنه ، بعد أن أفرج الفرنسيون عنه ، وكانوا حبسوه فى بعض فتن القاهرة ، نقل متاعه من بيته بالخرنفش . ثم حرق البيت ليوهم الفرنسيين أنه احترق فى الثورة ، وأنه لم يبق له شىء .

وقد قبل نابليون دعوة الشيخ المهدى لزيارته فى بيته . وحضر ومعه كبار قواده ورجاله حفلا أقامه الشيخ لزفاف ابنه .

وكانت توجد فى ذلك الوقت امرأة تسمى السحراوية ، كانت زوجا لبعض الكبراء ، وورثت عنه مالا كثيرا . وهى عجوز . فسعت حتى تزوجت الشيخ سليمان الفيومى حماية لمالها ، ثم اشترت له جارية أعتقتها ، وزوجتها له ، ولم يدخل بها . ثم مات الشيخ الفيومى ، وترك هذه العجوز ، وزوجا أخرى ، وهذه الجارية التى تزوجها بعد العتق . وبعد قليل ماتت هذه السحراوية الغنية بلاوارث . فوضع الشيخ المهدى يده على جميع أموالها وجواريها والتزاماتها ، وزوّج الجارية التى كانت أعتقتها لتزوجها للفيومى ، لابنه عبد الهادى .

واشترى المهدى فى آخر عمره داراً فى الكعكيين ، ثم أخذ فى توسيعها وتجديدها ، وكانت إلى جوارها زاوية قديمة بها مدافن ، فهدمها وأدخلها فى داره ، وأخرج عظام الموتى من قبورهم فنقلها إلى قرافة المجاورين . وقد ذكر الجبرتى أنه سمع هـذه الواقعة بنفسه من الشيخ المهدى . وبنى فى مكان الزاوية والقبور مساكن لزوجاته .

(وقد تولى المهدى مشيخة الأزهر . ومات فى سن الخامسة والسبعين) ولم يؤلف كتاباً ولا رسالة . فى فن من الفنون . على الرغم من ذكائه وحسن استعداده . وكان لا يواظب على إلقاء دروسه . لانشغاله بجمع المال ، وحبه للدنيا .

ومما سجله الجبرتى على العلماء ، من مظاهر فتنتهم بالدنيا ، وظلمهم للفلاحين :

(١) ص ٣٢٢ — ٣٢٣ من تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى الجزء الأول .

أن محمداً عليا كان — فى أول أمره — سامح العلماء فى المغارم التى فرضها على الأراضى . ولكنهم كانوا يجمعون هذه المغارم من الفلاحين لأنفسهم .

(وفى سنة ١٢٢٣ (١٨٠٨م) كان النيل منخفضاً جداً ، فطلب محمد على إلى العلماء الخروج إلى الصحراء لصلاة الاستسقاء ، والدعاء إلى الله أن يفيض لهم ماء النيل . فقال الشيخ الشرقاوى لمحمد على : ينبغى أن ترفقوا بالناس ، وأن ترفعوا عنهم الظلم ، حتى يقبل الله دعاءنا ويرحمنا . فقال له محمد على : أنا لست بظالم وحدى فإنكم أنتم أظلم منى . رفعت عنكم المغارم إكراما لكم ، ولكنكم تأخذونها من الفلاحين)

وخرج العلماء ، وأهل الأزهر ، والأطفال ، إلى مسجد عمرو بن العاص لصلاة الاستسقاء ، ولكن النيل فى اليوم التالى زاد انخفاضه . . . ! وعادوا مرة أخرى للصلاة والدعاء . وخرج معهم فى هذه المرة ، النصارى . فزاد الماء ، وفاض النيل كعادته . وقالت النصارى : إن النيل لم يفض إلا بخروجنا .

وقد رسم الجبرتى صورة قوية ، ولو أنها مؤلمة ، للعلماء ، بعد أن أعفاهم محمد على من ضرائب أطيانهم ، وكيف بلغ بهم حب المال ، واستحوذت عليهم الدنيا . (وقد يكون الجبرتى قد قسا عليهم فى ذلك قسوة بالغة ، ولكنهم من غير شك ، يستحقون هذه القسوة)

فتنة المال

قال الجبرتى ما ملخصه: إن مسامحة العلماء ، ومن يحتمى بهم ، جعلتهم يسرفون فى أخذ الجعالات ، والهدايا ؛ من أصحاب الأراضى ، ومن فلاحيهم ، نظير حمايتهم . وأكثروا من شراء الحصص من المحتاجين ، والمأزومين ، بأدْوَن قيمة . وتركوا مذاكرة العلم ومدارسته . وأصبح بيت أحدهم مثل بيت أمير من الأمراء ، يعجّ بالخدم ، والمقدمين ، والأعوان ، وفيه القيمان لحبس الفلاحين وضربهم بالكرابيج وتعذيبهم ، واتخذ العلماء الكتبة الأقباط لتحصيل أموالهم وتنميتها ، وإنذار الفلاحين ، واستعجالهم ، ومقاضاتهم ، وتهديدهم ، واتخذوا قطّاع الطريق جباة لأموالهم

وحماة لهم ، ورسلا إلى إقطاعياتهم . وتطاول بعضهم على بعض ، بالكراهية والحسد . فإذا اتخذوا مجالسهم فلاحديث لهم إلا الحصص ، والالتزام ، والأراضى ، وحساب الميرى ؛ والفائظ ، وغير ذلك من الأمور الدنيوية . وأكثروا من مصادقة الأقباط ، وإقامة الولائم لهم ، لاستشارتهم ، والاستعانة بهم على زيادة الثروة ، وزاد بينهم التحاسد والتنافر ، والتحاقد على الرياسة « والتكالب على سفاسف الأمور وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية ، مع ما جبلوا عليه من الشح ، والشكوى ، والاستجداء ، وفراغ الأعين ، والتطلع للأكل فى ولائم الأغنياء ، والفقراء ، والمعاتبة عليها ، إن لم يدعوا إليها ، والتعريض بالطلب . وإظهار الاحتياج لكثرة العيال والأتباع ، واتساع الدائرة » .

فى مجلس اللهو

ثم وجه الجبرتى للعلماء لوما قاسيا ، لارتكابهم الأمور المخلة بالمروءة ، المسقطة للعدالة . كاجتماعهم لسماع الأغانى ، والملاهى ، والقيان ، وآلات الطرب . وتقدمهم « النقوط » لأرباب الخلاعة . حتى كان « الخلبوص » ينادى بين النساء والرجال . ويخاطب رئيسة المغنيات « ياستى حضرة شيخ الإسلام والمسلمين ، مفيد الطالبين الشيخ العلامة فلان ، منه كذا وكذا من العملة الذهب » وهم يتزاحمون على ذلك ويتفاخرون فيه ، ويتضاحكون فى مجالس اللهو بأصوات عالية وقهقهة تسمع من بعيد . ويتسابقون فى الهزليات ، والمضحكات ، وألفاظ الكناية « والتنكيت » حتى قلدهم أوباش الناس فى المحرمات ، التى كان واجبهم النهى عنها » .

مكر ووقيعة

أما وقيعة العلماء ، بعضهم ببعض ، ومكرهم السيء ، لإيقاع الأذى بالآخرين ، فقد ذكر الجبرتى منه أمراً عجباً . وأبرز ما رواه من ذلك وقيعتهم بالسيد عمر مكرم عند محمد على ، ودسائسهم ضده ، حتى كتبوا فيه « عريضة » تفننوا فيها بذكر دعاوى مكذوبة . وتهم مختلقة ، لأنهم عرفوا أن محمدا عليا تغير على صديقه القديم

الذى كان يناديه بالوالد . والذى أتاح لمحمد حكم مصر ، ومكن له من ملكها . ثم ضاق بنقده ومعارضته لما كان يقدم عليه من ظلم وقسوة . وقد نجح العلماء فى وقيعتهم . فنفى السيد عمر ، بأمر محمد على ، إلى طنطا . وأسرع الشيوخ إلى محمد على ، كل يطلب لنفسه مغنما ، جزاء هذه الوقيعة ، كما أشرنا لذلك من قبل . ولم يشذ عنهم فى ذلك سوى الشيخ أحمد الطهطاوى . فقد أبى أن يوقع معهم على عريضة الاتهام والزور لعمر مكرم . فكان جزاؤه الخلع من إفتاء الحنفية .

وكذلك أوقع العلماء بالشيخ الدواخلى . بعد أن اشترك معهم فى وقيعتهم ضد السيد عمر . وكما نفى مكرم إلى طنطا ، نفى الدواخلى إلى دسوق .

وقد قسا الجبرتى على العلماء ، بسبب هذه الأمور قسوة بالغة . فأصبح يسميهم « شيوخ الوقت » ويقول : إن هيبتهم زالت من النفوس ولم يبق لهم وقار .

ويدل على فقدان هذه الهيبة مارواه الجبرتى : من أن إبراهيم بن محمد على ، كان يحترم العلماء ويجلهم . كما كان أبوه من قبل يستشيرهم فى كثير من الأمر ، ويعمل بمشورتهم . ولكن إبراهيم فقد احترامه للعلماء لما ظهر من أخلاقهم وحقدهم ، وكراهة بعضهم لبعض . وكان محمد على ، وابنه ، فى غنية أيضاً عن تملق العلماء بعد تثبيت الملك ، والانفراد بحكم مصر .

ويدل على فقدان هذه الهيبة أيضاً مارواه الجبرتى : من أن العلماء ذهبوا لتحية إبراهيم بعد عودته من حرب الوهابيين ، فلما أقبلوا عليه ، وهو جالس ، لم يقم لهم ، ولم يرد عليهم السلام . فجلسوا وأخذوا يهنئونه ويحيونه ، وهو لا يجيبهم ، ولا بالإشارة ، بل جعل يتشاغل عنهم بالحديث إلى شخص آخر .

كذلك يقول الجبرتى : إن « مشايخ الوقت » ذهبوا للسلام على محمد على ، بعد عودته من سفره ، فلم يأذن لهم فى أن يقابلوه .

وقد بلغ الأمر أن ذهبوا إلى المعلم غالى ، وكان يجمع الضرائب لمحمد على ، فحدثوه فى أمور من المال تخصهم ، فلم يستجب لهم . وقال : إن الباشا يسعى لتخليص كعبتكم ، وقبر نبيكم . فيجب عليكم أن تساعدوه . يشير بذلك إلى حرب

الوهابيين فى الحجاز. وهؤلاء العلماء الذين امتهنهم محمدعلى، وابنه — بعد أن عرفاهم ولم تعد لهما حاجة فيهم — هم الذين استكتبهم محمد على شهادة يصفها الجبرتى بأنها شهادة زور. وذلك عندما جاء فرمان من الدولة بإخراج محمد على من مصر. فلجأ إلى العلماء يستكتبهم فقالوا له اكتب ماتشاء. ثم وقعوه أو بصموا عليه بأختامهم وأرسله إلى الآستانة. وكان سبباً فى تجديد ولايته على مصر.

والقضاة أيضا

وكما قسا الجبرتى على العلماء من أهل الأزهر هذه القسوة البالغة. كان قاسياً أيضاً على بعض القضاة الذين كانت توفدهم الدولة لقضاء مصر. فهو يقول عن بعضهم: إنه كان شديد الحب للمال، وكان يفرض لنفسه الضرائب على الخصومات والتركات. حتى كان بعض اليتامى من الورثة، لا يبقى لهم من مال مورثهم شيء، لأنه كان يستوفى ضرائبه الفادحة أولا. وكان يقدرها كما يشاء. وقال: إن الفرنسيين كان قضاؤهم خيرا من قضائه. ولكنه يرجع فساد القضاة أيضاً إلى فساد العلماء، حيث يقول إنهم — أى القضاة — كانوا يخشون صولة العلماء، عندما كانوا يصدعون بالحق، ولا يداهنون فيه. فلما فسد العلماء وافتتنوا بالدنيا، لم يخشهم القضاة. بل سلكوا سبيلهم.

وقد كانت للعلماء، ولأهل الرياسة منهم خاصة، أعمال وأخلاق، تجعل الجبرتى على كثير من الحق فى القسوة بهم، والعنف عليهم، والزراية بأمرهم وأخلاقهم.

فنحن نجد، غير مارويناه من أمثلة وصور، الشيخ الدواخلى، وكان كما رأينا عالما كبيرا، يصادق الفرنسيين ويتودد لهم، وينحاز إليهم ضد وطنه وأهل دينه. فلما قتل الفرنسيون الحاج مصطفى البشتيلى — وكان صهرا له — تلك القتلة الفاحشة التى فصلنا أمرها فى موضعه[1] لم يجدوا له وارثاً. فسعى الشيخ سعيه عندهم حتى حاز لنفسه هذه الثروة، وكانت شيئاً عظيما.

---

(١) الجزء الثالث من الكتاب

ثم نجده ، بعد ذلك ، أو مع ذلك ، يجعل نفسه عيناً للعثمانيين على الفرنسيين وعلى المصريين . ينقل لهم الأخبار ، ويمدهم بما يحتاجونه من أنباء الحوادث والرجال ، يرسله لهم سرًّا ضد الفرنسيين ، وفى غفلة منهم .

مثل لعلماء العصر

هذه خلاصة موجزة ، ولكنها دقيقة صادقة ، عن علماء ذلك العصر الذى أرَّخه الجبرتى . ونحن نجد من بين هؤلاء العلماء الذين قسا عليهم قسوته البالغة . أسماء كبار العلماء الذين كانوا يتمتعون بالجاه ، والمكانة الرسمية ، والشعبية أيضاً . فى تلك الأيام . من أمثال الشرقاوى ، والمهدى ، والبكرى ، والسادات .

وهذا الشيخ الأخير سنفرد له ترجمة خاصة صغيرة . لسببين : الأول غرابة هذه الحياة التى كان يعيشها هذا الشيخ . وبُعد أهدافه عن الغايات والأهداف التى يسعى إليها العلماء عادة . والثانى أن الترجمة للشيخ السادات تصور لنا ، إلى حد بعيد ، حياة كبار العلماء الرسميين فى فترة من تاريخ مصر . وأعتقد أن هذه الصورة ستبدو غريبة لدى كثيرين من الناس ، وبعيدة عما كانت تصوره لهم أمانيهم ومعتقداتهم التقليدية فى العلماء . وقد تحدثنا من قبل حديثاً طيباً عن السادات . وكأن الشيخ كان ذا شخصية مزدوجة ، فيها من الخير شىء كثير . ومن غيره أيضاً شىء كثير .

هو شمس الدين ، محمد أبو الأنوار ابن عبد الرحمن . كان كريم الأب والأم ، فأبوه الخواجا عبد الرحمن المعروف بابن عارفين ، وأمه السيدة صفية بنت الأستاذ جمال الدين يوسف بن وفا . تربى مع أخيه الأكبر ، يوسف ، فى سيادة ، وصيانة ، وحشمة . وتلقى العلم على كبار الشيوخ فى عصره ، وسلك طريق أسلافه السادات ، على خاله ، وعلى الشيخ عبد السلام العفيفى ، وغيرهما ، وحج فى سنة ١١٧٩ . وكان قد سعى لمشيخة السادات ، فلم ينلها ، فأراد أن يسرّى عن نفسه بالحج . وكان مما فعله ، لينال مشيخة السادات ، أن تزوج والدة شيخ هذه

السجادة ، الشيخ محمد أبى هادى ، وكان قد توفى ، ونازعه عليها من هو أولى بها منه . ولما توفى هذا المنازع ، ركب فى صباح اليوم الذى مات فى ليلته ، قاصدا على بك الكبير ، فخلع عليه الخلعة . وقد نال الشيخ السادات هذه المشيخة ، وأبعد عنها أخاه ، مع أنه أكبر منه ، بالحيلة والمخادعة ، والتحبب إلى أرباب المظاهر ، واستجلاب الخواطر .

وبعد توليه المشيخة ، كان يشتغل قليلا بالمذاكرة ومجالسة العلماء . ولكن شغله الأكبر كان فى تحصيل المال . وإتقان الأساليب التى ينمى بها أمواله . وكان ، مع كثرة ماله ، يبخل بدفع ما عليه ، مهما كان قليلا ، حتى الضرائب المفروضة .

ولما انقرضت طبقة الشيوخ الذين يهابهم ، التف حوله الباقون وبالغوا فى مدحه ، وتملقه ، وتقبيل يديه ، وإنشاء القصائد فى مناقبه ، ليستفيدوا من جاهه وليتكون لهم بذلك قربى عند أصدقائه من أصحاب النفوذ . وقد زاد ذلك من كبريائه وغروره . حتى بلغ به الأمر إلى حد أنه لا يقوم لقدومهم ، وإذا اقترب أحدهم منه قدر ذراعين ، ضم ثيابه تأدبا ، ثم حبا على ركبتيه ، ومد يمناه ليقبل يد الشيخ ، أو طرف ثوبه . هؤلاء كبار الشيوخ ، أما غيرهم فإنهم لا يطمعون فى تقبيل يده ، بل يقبلون طرف ثوبه . فإذا انصرف الناس عنه ، غسل يديه بالماء والصابون بعد ملامستها أيديهم وشفاههم ، من أثر التقبيل . وكان يقتصر فى رد التحيات المتعالية له على قوله : «خير ، خير» وينقضى مجلسه كله ، مهما طال ، فى الحديث عن أهل مصر وذمهم . وغيبة أهل العصر . وتستريح نفسه لذلك كثيراً .

واستطاع بوساطة الوالى محمد باشا العزتى ، أن ينال قدراً من المال ، أمرت له به الدولة من خزينة مصر ، لينفقه فى إصلاح بعض زاويا أسلافه ، فلما شرع فى عمارتها . أدخل فيها قبوراً ومدافن لم تكن منها ، وبالغ فى زخرفتها ونقشها بالذهب ، وأنواع الرخام الملون ، والأعمدة الفاخرة ، وأنشأ حولها مساكن ومخادع ، وقصرا لجلوسه ، ومكانا لإقامة حريمه . وبعد ذلك أرسل الشيخ السندوبى إلى دار الخلافة ليرفع عنه الضرائب المفروضة على بلدة « زفتا » وغيرها

مما كان يملكه ، فرفعت عنها . وزاد هو فى الضرائب التى كان يتقاضاها من فلاحيه ، وكان يسجنهم ، ويضربهم بالكرباج ، إذا لم يوفوا ما فرضه عليهم .

واتفق مع السيد محمد البكرى، على أن يترك له نظارة المشهد الحسينى على أن يترك للبكرى نظارة الإمام الشافعى . فلما سلمه البكرى سجلات النظارة الأولى واستولى عليها فعلا ، نكث ولم يسلمه الثانية ، واستبقى تحت نظارته النظارتين .! بل طمع فى غيرها بمساعدة أصدقائه من الأمراء ، فنال نظارة ضريحى السيدة زينب ، والسيدة نفيسة وغيرها ، من الأضرحة الكثيرة الإيراد .

وكان يحاسب خدم هذه الأضرحة ، ويناكدهم على النذور مناكدة شديدة شاقة ، ويضربهم بالجريد على أرجلهم . وضرب كبيرا منهم كان محترما ، مهيبا ، واستولى على بيته قهرا ، وهدمه ، وبنى مكانه بيتا له . لذلك خشوا بأسه جميعاً ، وخافوا من بطشه فكانوا يسلمون إليه كل إيراد الأضرحة ، من النذور ، والشموع ، والأغنام ، والعجول ، حتى « كان يأخذ المال من الفقير المعدم ، وكسرة الخبز الناشفة من المحتاج » .

واستطاع أن يصل إلى شهود القضاء ليؤثر عليهم فى الشهادة عن الحجج التى تؤول الأوقاف فيها إلى الأضرحة التى يتنظر عليها . وكان يضرب بعض الشهود ، ويجبر بعض مستحقى الأوقاف على مصالحته بأموال يدفعونها إليه ليمكنهم من حقوقهم . وقد أبطل بعض حجج الأوقاف ، ومحاها من سجل القاضى ، حتى يصالحه أصحابها على ما يطلب .

وبلغ من تعاظمه ، وخشية الناس من سطوته ، أن خطيب المسجد الحسينى كان يبالغ فى إطرائه ، وذكر مناقبه ، والتوسل بجاهه عند الله ، ويذكر ذلك فى خطبة الجمعة ، جاعلا من الشيخ وسيلة إلى الله ، ليفرج به الكروب ، ويغفر الذنوب . حتى قال بعض المصلين : لم يبق إلا أن يقول الخطيب اركعوا واسجدوا ، واعبدوا الشيخ السادات ... !

وقد سعى ، لينال نقابة الأشراف بغير حق ، بالوقيعة ، والكذب ، بين

محمد على ، والسيد عمر مكرم ، وحرضه على إخراجه من مصر . ونال بذلك بغيته . وكان قبل ذلك حصل على فرمان من الدولة بتوليته هذه النقابة ، وأخفى هـذا الفرمان حتى مات النقيب ، السيد محمد البـكرى ، فأبرز الفرمان . ولـكن الأشراف لم يرضوا بنقابته ، ولم يمكنوه .

وأنشأ دارا عظيمة له ، جعل فيها رواشن ، وسواقى ، وبستانا عامرا بأنواع الشجر ، وأدخل فيه بيوتا لبعض الأمراء ، كانت متخربة . وكانت لبعض أبناء البـكرى دار عظيمة ، وبستان متسع ، فقهرهم على بيع البستان له بثمن بخس ، وأضافه إلى بستانه . ثم أقام حائطا كبيرا حجب النور والهواء عن بيت البكرى ، حتى باع له البيت أيضا ، بثمن قليل .

ويقول الجبرتى بعد ذلك : إن « الشيخ السادات أفنى غالب عمره فى تحصيل الدنيا ، وتنظيم المعاش والرفاهية ، واقتناء كل مرغوب للنفس ، وشراء الجوارى والمماليك ، والعبيد ، والحبوس ، والخصيان ، والتأنق فى المآكل والمشارب والملابس . واستخراج الأدهان والعطريات ، والمركبات المفرحة والمنعشة للقوة . وتعاظم فى نفسه ، وتعالى على أبناء جنسه ، حتى إنه ترفع عن لبس التاج ، وحضور ليلة المعراج فى الأزهر ، وكذا الحضور فى مجلس نقابتهم . وصار يلبس قاووقا بعمامة خضراء ، تشبها بأكابر الأمراء ، وبعدا عن التشبه بالمتعممين والفقهاء » ثم يقول : إنه « كلما طال عمره ، زاد كبره ، وقل بره ، وكثر شره . ولما كبرت سـنه ، تعاظم عن القيـام لأعاظم الناس ، ولازم استعمال المنعشات ، والمركبات المفرحة » .

وفى اليوم الثامن عشر من ربيع الأول سنة ١٢٢٨ — مارس ١٨١٣ — مات بعد مرض غير قصير . وأوصى ببعض أمواله لخاصته . وأن يغسل على سريره الهندى الذى كان ينام عليه . وأرسل خبر موته إلى محمد على ، وكان فى الفيوم ، فأمر بأن تقفل خزائنه . وبيوته ، حتى يعود . وأن يقبض على كاتب حساباته ، عبد القدوس القبطى . وأسرع محمد على بالعودة إلى مصر . فذهب إليه العلماء متشفعين بحرمة بيوتهم ، وأن العادة لم تجر بمصادرة أموالهم

فهم أهل للتكريم والرعاية . ولكن محمدا عليا راوغهم أياما ، ثم قال لهم . إن الشيخ كان ، كما تعرفون ، طماعا ، جماعا للمال . وكان لايحب أهله ، ولا يخصهم بشيء وكتب ماتركه ، وهو شيء كثير جداً ، لزوجه . وهى جارية اشتراها بثمن قليل ، ولم يكتب شيئاً لأولاد أخيـــه . وخزانة الدولة أحق بهذا المال .

ثم انتهى الأمر بأن صالحت زوج الشيخ على تركته . بأن دفعت لمحمد على ألف كيس وخمسة وخمسين[1] . وترك لها محمد على ، مابقى من تركته .

ولكننا نجد بعد هذه الصورة البعيدة عن صفات العلماء ، صورة أخرى من حياة الشيخ هى موقفه من ثورات القاهرة ضد نابليون . وهى ، كما تراها فى مكانها ، كفيلة بأن تشرفه . وأن تغفر له شيئاً من هذه السيئات التى أجملنا ذكرها هنا . كما نجد فى مواضع أخرى مواقف له فيها شجاعة فى الحق وبأس .

(مثل كريم للعلماء)

ولعل من الخير ، وقد أوردنا هذه الصورة من حياة العلماء الرسميين فى ذلك العهد ، بترجمة الشيخ السادات ، أن نورد صورة أخرى كريمة ، مشرفة لعالم كبير من علماء ذلك العصر . لم يتاجر ، ولم يقض حوائج الناس بالرشوة ، ولم يزور فى الأقضية وحجج الأوقاف ، ولم يقتن مالا ولا أرضا ولا بيتا ، ولم يأكل حقوق الضعفاء من خـدم المساجد ، ولم يجعل من بيته دارا لتعذيب الفلاحين وجلدهم حتى ينال منهم المال ، حلالا وغير حلال ، ولم يسع إلى الحـكام لينال منهم التزاما ، أو ليعفى من ضريبة . بل كان ، كما ترى من ترجمته ، مثلا كريما للعالم الورع ، المتدين ، الوقور ، الذى يذكر الله ويخشاه .

الشيخ محمد الحفنى ، أو الحفناوى ، أوحد أهل زمانه علما وعملا ، شريف ينتهى نسبه ، من جهة أمه ، إلى الإمام الحسين . ولد فى سنة ١١٠٠ فى بلدة حفنا ،

---

(١) نحو خمسين ألف جنيه

من أعمال بلبيس بالشرقية . وحفظ بعض القرآن فى قريته ، كما يحفظه أمثاله ، ثم قدم القاهرة ، فأشار بعض الشيوخ على أبيه أن يبقيه فيها ، فأتم بها حفظ القرآن، ثم اشتغل بالعلم ، وتلقاه على كبار علماء عصره .

وجلس بعد ذلك للتدريس ، فتزاحم عليه المستفيدون والطلبة . وكان فى ضيق من العيش . فاشترى دواة ، وأقلاما، وأوراقا . واشتغل بنسخ الكتب . فشق عليه ذلك ، لأنه صرفه عن العلم والإفادة . واتصل خبر ذلك برجل كريم ، محب للعلم . فبينما الشيخ قد فرغ من درسه وهمّ بأن يغادر مكانه ، ناداه رجل وطلب أن يختلى به . ثم سار معه حتى دخل المدرسة العينية . ثم جلسا ، فأخرج الرجل محرمة ملأى بالدراهم وقال للشيخ : ياسيدى إن فلانا يسلم عليك ، وقد بعث لك معى بهذه الدراهم ، ويريد أن يحظى بقبولها . فأخذها منه وفتحها ، وملأ كفه من الدراهم يريد أن يعطيها لهذا الرسول فامتنع ، وحلف لا يأخذ منها شيئاً .

وذهب الشيخ إلى بيته، فكسر الأقلام، والدواة، وتفرغ للعلم، وإلقاء الدروس . وقد صرفه ذلك عن التأليف ، فلم يكثر منه . ثم مال إلى التصوف ، فتلقى على السيد الصديقى البكرى أسرار الطريقة الخلوتية . وصار من أقطابها الذين يقصدهم الناس من مصر وأقطار الأرض . وهادته الملوك ، وذهب إليه الأمير والصعلوك . وصار له ، فى كثير من قرى مصر ، نقيب وخليفة ومريدون وأتباع ، وأسلم على يديه كثير من الناس . وسافر إلى بيت المقدس فأقام بها أربعة شهور ، ملازما شيخه البكرى . واختير الشيخ الحفنى ، عضوا فى ديوان الحكومة . فكان فيه مدافعاً عن حقوق الشعب ، قوياً فى معارضته للأمراء ، والولاة . وفى مقاومة ما لا يعتقده خيراً ولا صواباً من التصرفات ، والقرارات ، والآراء .

وكانت للشيخ الحفنى مهابة عظيمة ، لا يستطيع كثير من جلسائه أن يتوجه إليه بسؤال ، لمهابته وجلالته . وكانت على إحدى عينيه نقطة ، ومع ذلك فإن أكثر الناس لم يدركوا ذلك ، لأنهم يغضون الطرف ، عند النظر إلى وجهه .

(وكان كرمه فائق الحد ، ليس للدنيا عنده قدر، ولا قيمة . لو سأله إنسان أعز شيء عنده ، أسرع فأعطاه له ، ويجد فى ذلك سروراً، وانشراحاً . له صدقات)

ظاهرة وخفية . وراتب بيته من الخبز ، فى كل يوم ، نحو إردب ، وطاحون البيت دائم الطحن ليلا ونهارا ، وكذلك مدقّات البن والسكر . يجتمع على مائدته الخمسون ، والستون ، وينفق على بيوت أتباعه والمنتسبين إليه « وكل من طلب شيئاً من أمور الدنيا ، أو الآخرة ، وجده عنده » .

كما كان كريم الخلق ، حليما ، جميل السجايا ، يصغى لكل متكلم ، ولو تكلم بالخزعبلات . مظهراً له سروره ومحبته .

أما شجاعته فى الحق ، وجرأته على أصحاب القوة والجاه والنفوذ . فقد روينا طرفا منها أول هذا الفصل . كافصل الجبرتى كثيراً منها فى مواضع متفرقة كثيرة . حتى قال راغب باشا ، أحد ولاة مصر : إن الشيخ الحفنى سقف على أهل مصر ، يمنع عنهم نزول البلاء . وكان ، كما يقول الجبرتى : لا يتم أمر من أمور الدولة وغيرها إلا باطلاعه ، وإذنه .

وكان فى كل ذلك ، يقف دائما إلى جانب الحق ، ناصراً للشعب على حكامه . منصفاً للمظلوم من ظالمه . معيناً للضعيف . وقد تولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ الشبراوى الذى مات فى ذى الحجة سنة ١١٧١ .

وكان إلى علمه وتصوفه ، وزهده ، وكرمه ، ظريفاً وشاعرا يقول الشعر ، والمواليا .

كان له رفيق شاعر ظريف ، اسمه الشيخ حسن شمه ، جلسا يوما فى متنزه ، وكان رفيقه يكتب ، فسأله الشيخ ماذا يكتب ..؟ فقرأ عليه هذا البيت من المواليا :

قالوا : تحب المدمس . . ؟ قلت بالزيت حار

والعيش الابيض ، تحبه ..؟ قلت: والكشكار

فضحك الشيخ وقال له : أما أنا فلا أحبه بالزيت حار ، بل بالسمن . وأنشد :

قالوا تحب المدمس . . ؟ قلت بالمسلى

والبيض مشوى ، تحبه . . ؟ قلت والمقلى

وله أيضا هذه الواليا : —

بحياة ، ياليل ، قوامك ، وصوم الحر
تحجز لنا الفجر . دا ُفوت الرفاقة مر
لما يجى الفجر ، يصبح ركبهم منجر
أزداد لوعة ، ولا عمرى بقيت أنسر

وله أيضاً :

إن جدت ، أو جرت ، أو صديت ، أو جافيت
أو حلت ، أو ملت ، أو واصلت ، أو وافيت
أنت الحبيب الذى ، فى القلب ، قد حليت
وأنا ، على العهد ، ما خنتك ، ولا اختليت

وقوله :

خطر عليّا غزالى ، مر ما اتكلم . . .
فوّق جفونه ، وقلبى والحشا ، كلم
إيش كان يضره إذا ، بالراس ، لى سلم
حتى أسر مهجتى ، لولا السلام سلم

ومن شعره :

لو فتشوا قلبى لألفوا به سطرين ، قد خطا بلا كاتب
العلم والتوحيد فى جانب ، وحب آل البيت فى جانب

وهذان البيتان من شعره ، يمثلان حياته إلى حد كبير . فقد كان عالما كبيراً ، ومتصوفاً مؤمناً طاهر السريرة .

ومن شعره فى التصوف :

أأظما ، وأنت العذب ، فى كل منهل . . . ؟
وأظلم فى الدنيا ، وأنت نصيرى . . . ؟

خبـــير بضـعفى ، راحم لشـكايتى
قدير على تيسـير كل عسـير ....
وعارٌ على راعى الحمى ، وهو فى الحمى ،
إذا ضاع ، فى البيـــدا ، عقـال بعير

وله هذان البيتـان الرقيقان اللذان يفيضان يسرا ، وإيماناً ، ورضاً ، وصفاء ، وروحانية :

خـــبزٌ ، وماء ، وظل هو النعـــيم الأجـــل
جحدتَ نعمـــة ربى إن قلت : إنى مقـــل

وكان إلى ذلك ، عالما متبحراً فى علوم الفقه الشافعى ، والنحو ، والأصول ، والحديث ، والتوحيد .

وقد عمر الشيخ طويلا ، حيث توفى ظهر يوم السبت السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ١١٨١ ودفن يوم الأحد . بعد أن صلى عليه فى الأزهر ، فى مشهد عظيم جداً . وكان يومُ وفاته يوم هول عظيم .

ويقول الجبرتى : إنه ، بعد وفاة الشيخ الحفنى ، ابتدأ نزول البلاء ، واختلال أحوال مصر ، لأنه لم يوجد ، بعده ، من يصدع بالحق ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويقيم الهدى .

وقد جعلت شدة الشيخ الحفنى على الأمراء ، والولاة ، ووقوفه فى وجههم . جعلت هذه الشدة الناس تشك فى أسباب موته . حيث ذكر الجبرتى ، فى أكثر من موضع ، أن الأمراء « أشغلوا الأستاذ وسموه . وعند ذلك لم يجدوا مانعاً ، ولا رادعا » . ويذكر الجبرتى ذلك بصيغة التشكيك . وقد وضع شيخان من شيوخ عصره كتابين فى سيرته ومناقبه . هما صديقه الشيخ حسن المكى ، المعروف بشمّه ، والشيخ محمد الدمنهورى الهلباوى . وقيلت فيه مدائح كثيرة .

أزهري يصف قومه

ولم يكن الجبرتي وحده الذى قسى هذه القسوة الشديدة ، التى أشرنا إليها من قبل ، على علماء عصره . فهذا شاعر كبير من شعراء العصر هو الشيخ حسن البدرى الحجازى — وهو أزهرى — يقول فى العلماء هذا الشعر : —

عن علماء عصرك لا تسألن	فإن أحوالهم ظاهرة
نفعك من جانبهم ، منتف	فى هذه الدنيا ، وفى الآخرة
قوم إذا لاح لهم مطمع	تسارعوا ، كالأكلب العاقرة
والعمل الصالح ما بينهم ،	همتهم ، عن فعله ، فاترة
فجانباً جد ، عنهم ، تسترح	إذ قربهم صفقتك الخاسرة

ونحن نروى ، عن الجبرتى هذا الشعر ، كما هو ، لما فيه من رأى فى علماء ذلك العصر ، ولا نتعرض لقيمته ، ولا لوزنه أصحيح هو أم مكسور .

ويقول الحسن البدرى أيضاً فى أهل الأزهر : —

الجامع الأزهر ابتلاه	رب ، له العز والوجود
بكل فظ ، وجف ، وطرف	عليك بالبشر ، لا يجود
قطعة صخر ، أليس فيه	الثقل ، واليبس ، والجمود ؟
عمائماً كبّروا ، وكُمَّا . . .	قد وسموه ، لكى يسودوا
وتحت آباطهم روايا . . .	تسمين كراسا ، او تزيد
بها يميلون حيث مالوا . . .	لأجل مالٍ لهم تصيد
لولاهم مالت السوارى	كل عمود له عمود
تزورهم شاع فى البرايا	سيان الأحرار ، والعبيد
حتى غدا حرفة ونخرا	ما عنه بد ، ولا محيد
صلوا ، وصاموا ، والليل قاموا	والقلب ، عن كل ذا ، بعيد

وهناك شيخ للأزهر كان له طابع خاص ، وميل للتجديد ، هو الشيخ حسن العطار . وتجد ترجمته فى الجزء الخاص بالحياة الفكرية والاجتماعية[1] .

---

(١) صفحة ٤٨ — ٥٤ من الجزء الأول .

الثقافة والبيئة

وأما الأزهر ، كمعهد للعلم ، أو الثقافة ، أو المعرفة ، وكجماعة من الناس ، لها بيئتها الخاصة ، وحياتها الخاصة . ولها كذلك مكانها الخاص بين الناس . فقد أولاه الجبرتي عناية كبيرة . فوق هذه العناية التي أولاها لتراجم رجاله .

(أما العلم ، والثقافة والمعرفة ، فنستطيع أن ندرك مكانها ، وقيمتها ، في أزهر ذلك العصر ، من معرفة الكتب التي كانت تدرس وتتداول فيه ، إذ ذاك . ومن معرفة المؤلفات التي صدرت عن رجاله خلال هذه الفترة التي أرخها الجبرتي .

وهذه الكتب كلها ، والمؤلفات أيضاً . كانت من الكتب التقليدية . التي تلتزم التقليد . وتتسم بسمة التزمت ، وضيق الأفق . إلى جانب العناية باللفظ والاهتمام به أكثر من الاهتمام بالمعنى ، أو بالعلم ذاته . وكان أبرز ما تعنى به ، الإختصار . فهناك المتن . وهذا « المتن » الموجز له شرح ، والشرح له حاشية ، والحاشية عليها تقرير ، أو هامش . وكان العلم ، والبحث ، والتدريس، والتقرير ، كل ذلك يدور حول ما في هذه المتون والشروح والحواشي والهوامش ، ولا يمكن أن يتعداه إلى فكرة جديدة أو رأى أو بحث موضوعي . فإذا هبت على حياة مصر العقلية ، أو الدينية، في ذلك العصر ، نسمة من ريح الفهم، أو الإدراك ، أو التخفف من رق التقليد ، كما رأينا في قصة الواعظ الرومي[1] ، فإن هذه النسمة الرقيقة تكون بعيدة عن الأزهر . لأنه لا يحتملها ، ولا يبقى عليها).

فالكتب التي كانت تدرس في الأزهر إذ ذاك . هي الكتب التي مازال الأزهر يعرفها كلها أو جلها إلى الآن . والمؤلفون والشراح هم كذلك معروفون عند أهل الأزهر الآن . فكتب المنهاج ، والتحرير ، والدر المختار ، في الفقه . والأجرومية . وشرح الشيخ خالد عليها ، والألفية ، ومتن القطر ، في النحو . وإيساغوجي ، والسمرقندية ، في المنطق . والجوهرة في التوحيد . وشرح السعد وحاشية الدسوقي عليه ، في البلاغة . كانت أكثر الكتب تداولا . وأسماء ،

(١) نجدها في الجزء الأول من الكتاب ص ٩٧ — ١٠٠ .

البحيرى ، والشرقاوى ، والدردير ، والعدوى ، والملوى ، والجوهرى ، والصبان والبرماوى ، والأمير ، والباجورى ، والشنوانى . كانت أكثر الأسماء شهرة وذيوعا .

وهذه كتب ، وأسماء ، لقينا منها ، فى دراستنا فى الأزهر ، مالقينا . وأفدنا منها أيضاً .

ونستطيع ، ونحن نسرد أسماء بعض مؤلفات الأزهريين ، فى ذلك العصر ، أن نعرف أذواقهم الأدبية ، أو الفنية . وأن نعرف ، إلى حد كبير ، قيمة هذه المؤلفات ، وما تناولته من موضوعات .

فمن مؤلفات هذا العصر نجد أسماء : مراقى الفرج من مدح عالى الدرج والدر النظيم ، فى تحقيق الكلام القديم . واللمعة الألمعية ، وإتحاف الأحبة ، فى الضبّة . (أى ضبة الباب المفضّضة) . والدر المنثور ، فى الساجور[1] ، ومطلع النيرين ، فيما يتعلق بالقدرتين . وإتحاف الإنس فى الفرق بين اسم الجنس ، وعلم الجنس . ورفع التلبيس ، عما يسأل عنه ابن خميس . وكتاب فى التراجم ، سماه صاحبه ، الشيخ مصطفى الحموى : — فوائد الارتحال ونتائج السفر ، فى أخبار أهل القرن الحادى عشر . ومن هذه الأسماء : كوكب الصبح ، فى إزالة القبح . وفتح الملك المجيد لنفع العبيد . وفتح الملك البارى بالكلام على آخر شرح المنهج للشيخ زكريا الأنصارى .

ومن مؤلفات علماء الأزهر فى ذلك العصر ، كتاب للشيخ عبد الله الشرقاوى ، وهو ، كما رأينا ، من كبار العلماء وشيوخ الأزهر ، اسمه : تحفة الناظرين ، فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين . وقد وصف الجبرتى هذا الكتاب بأنه « فى غاية البرود . وقد غلط فيه غلطات » ونجد ذكرا لهذا الكتاب فى موضع آخر من كتابنا[2] (وللشيخ الشرقاوى مؤلفات مطولة فى الفقه الشافعى لايزال أهل الأزهر يعرفونها إلى اليوم .)

(وقد كانت تدرس فى الأزهر ، طبعاً ، إلى جنب هذه الكتب كتب

---

(١) فى القاموس . « الساجور خشبة تعلق فى عنق الكلب » .

(٢) الجزء الأول ص ٥٤ — ٥٨

الحديث والتفسير المعروفة . ولكن الروح العلمي والبيئة الثقافية . كانت كما أسلفنا من التخلف ، والجمود . بحيث وجد بين العلماء من يقول بتحريم القهوة مثل الشيخ علي السيواسي . وكان من كبار علماء عصره . أهداه أصدقاؤه « فرق بن »[1]، في زواج ابنه فألقاه في المرحاض .)

الطب والهندسة

(ولكن من الحق أن نقول : إن بعض العلماء كان في ذلك الوقت ، يشتغل ويكتب ، ويؤلف ، ويلقي دروسه ، في غير هذه العلوم التقليدية .

فيفهم من إشارة عابرة ذكرها الجبرتي ، في ترجمة يوسف باشا حاكم الشام ، أن كتب الطب كانت تدرس في الأزهر إلى قرب منتصف القرن الثالث عشر الهجري . كما نجد الشيخ أحمد الدمنهوري ، وكان عالما عظيما ، جليل القدر ، ولي مشيخة الأزهر ، يدرس رسالة قسطا بن لوقا ، في العمل بالكرة ، وأشكال التأسيس ، ورسالة ابن الشاط في الإسطرلاب . كما نجد من مؤلفاته كتبا مثل : إحياء الفوائد بمعرفة خواص الأعداد ، والقول الصريح ، في علم التشريح . والقول الأقرب في علاج لسع العقرب . إلى غير ذلك من المؤلفات في علوم الحساب ، والتاريخ ، والميقات ، والهندسة .)

(ونجد الفقيه الأصولي الشيخ علي الطحان ، يؤلف منظومة في الطب . وقد وجدنا الشيخ حسنا الجبرتي ، والد عبد الرحمن ، قد اتسعت ثقافته ومعرفته ، وبعدت بعداً كبيراً عن هذا النوع من المعرفة ، الذي التزمه أهل الأزهر . والشيخ حسن الجبرتي ، ولو أنه ليس من رجال الأزهر ، فإنه لم يكن بعيداً عنه . وكذلك الجبرتي ابنه مؤلف هذا الكتاب الذي ندرسه)

(١) زنبيل يسع ثلاثة قناطير ونصف قنطار .

الشيخ الفارس

كما نجد عالما كبيرا وأديباً كبيراً أيضاً، ووجيهاً في عصره، هو ابن النقيب، يتجه إلى ثقافة مترفة . وهواية لم نر بين العلماء من شغل نفسه بالالتفات إليها . وهي معرفة الخيل وأنسابها . فقد كان الشيخ على بن موسى ، المعروف بابن النقيب ، لأن أجداده كانوا نقباء بيت المقدس ، له معرفة جيدة بالخيل وأنسابها ، وعناية بتربيتها واستيلادها . وله حظيرة لا تخلو من نجائبها . وقد انتقل من بيت له بالقرب من المشهد الحسيني إلى آخر فسيح ، في الحسينية ، ليجد لخيوله متسعاً ، وليشبع رغبته في تربيتها ، واستيلادها .

وكان إلى ذلك عالماً بالفروسية . يجيد رمي السهام ، واستعمال السلاح ، واللعب بالرماح .

ومن العلماء من كان شاعرا غـزلا يقول التوشيح في الغزل والنسيب ، فيشتهر بين الناس . ويغنيه المغنون على الأوتار وآلات الطرب . وقائله ، مع ذلك ، شيخ الأزهر . وهو الشيخ أحمد العروسي .

كان ، كما يقول الجبرتي ، رقيق الطباع ، مليح الأوضاع ، لطيفاً ، مهذبا . وهو إلى ذلك ، شيخ الأزهر ورئيس العلماء ، يحبونه ويكبرونه ، وكان من مزاياه حفظه صحبة أصدقائه وبره بالمحتاج منهم . ولد في سنة ١١٣٣ ومات في شعبان ١٢٠٨

ومن شعره هذا التوشيح :

ماس غصـن البـان زاهي الخـــد
وتثنّى معجبـــا
بين أفنان النّقا ، والرّند[١]
وأثيلات الربى
خلت بدراً فوق غصن مائس
قد أمالته نسيمات الصبا

ثم يقول الجبرتي : إن هذا التوشيح كان مشهوراً غاية الاشتهار في الأغاني والأوتار . ولذلك لم يذكره كله .

(١) شجر طيب الرائحة .

وهناك شيخ آخر ، يصفه الجبرتى بأنه كان رئيس المحققين ، وعمدة المدققين ، النحوى ، المنطق ، الجدلى ، الأصولى . ويذكر له جملة من الكتب والحواشى فى الفقه والمنطق ، والجبر ، والتوحيد ، والتراجم . وكان مفتيا بالمدرسة المحمدية « أى مدرسة محمد بك أبى الذهب » ويلقى دروسه فى الأزهر ، وكان جيد التقرير ، غاية فى التحرير . ثم يقول ، بعد ذلك : إن الشيخ كان « يميل بطبعه إلى ذوى الوسامة ، والصور الحسان ، من الجدعان والشبان . فإذا رجع من درسه ، خلع زى العلماء ، ولبس زى العامة وجلس بالأسواق ، وخالط الرفاق . سامحه الله » وهذا الشيخ هو أحمد الخليفى . ولد فى سنة ١١٣١ ومات سنة ١٢٠٩ .

غزل شيخ الأزهر

ومن كبار الشيوخ الذين اشتهروا بالغزل ، شيخ الأزهر ، الشيخ عبد الله الشبراوى .

ولد حوالى سنة ١٠٩٢ من بيت علم ومجد . وتتلمذ على الشيخ محمد الخرشى . وكان شيخاً للأزهر ، وعمره ثمانى سنوات . وتولى مشيخة الأزهر وهو فى الخامسة والأربعين . مع وجود عدد من كبار العلماء فى السن والعلم والمكانة . وكانت للشيخ الشبراوى منزلة عظيمة عند الأمراء ورجال الدولة . نافذ الكلمة عندهم مقبول الشفاعة . كما كانت لأهل الأزهر والعلماء فى عهده حرمة كبيرة ومهابة ورفعة مقام عند الأمراء وعند الناس . وبنى داراً عظيمة على بركة الأزبكية حيث كان يقيم سادة القوم وسراتهم . وأنفق على داره تلك أموالاً جمة . وبنى ولده عامر داراً عظيمة أيضاً أمام دار أبيه الشيخ .

وكان الشيخ الشبراوى مغرماً باقتناء التحف؛ والطرائف من كل شىء . وخاصة الكتب النفيسة الجميلة الخط ، المتقنة التجليد . وكان ابنه عامر كريماً سخياً . يذبح فى مطبخه كل يوم رأسين من الضأن . ويقول الجبرتى : إن طلبة العلم فى مشيخة الشبراوى كانوا « فى غاية الأدب والاحترام » . وقد ألف بعض الكتب فى مدائح الأشراف ، وغزوة بدر ، ألفه بإشارة من الوالى على باشا حكيم . وله ديوان يحتوى

على غزليات ، وأشعار ، وأغان . كان مشهوراً يتداوله الناس، وكانت أغانيه ذائعة معروفة فى عصره وبعد عصره .

ومات الشيخ الشبراوى سادس ذى الحجة من سنة ١١٧١ عن نحو ثمانين سنة . ونجد حديثاً آخر عنه فى موضع آخر[١] .

وللشيخ الشبراوى شعر متوسط لم يذكره الجبرتى[٢] قاله فى نقيب للأشراف اسمه السيد عبد القادر . قدم من تركيا ثم وجد مذبوحاً بعد ليلة واحدة .

وله فى الحنين إلى مصر شعر لابأس به ، نروى بعضاً منه فيما يلى : —

أعدْ ذكر مصر ، إن قلبى مولع
بمصر . ومن لى أن ترى مقلتى مصرا

وكرّر على سمعى أحاديث نيلهـا
فقد ردّت الأمواج سائله نهرا

بلاد بها مدّ السماح جناحه
وأظهر فيها المجد آيته الكبرى

رويداً إذا حدثتنى عن ربوعها
فتطويل أخبار الهوى لذة أخرى

عسى نحوهـا يلوى الزمان مطيّتى
وأشهد ، بعد الكسر ، من نيلها ، جبرا

لقد كان لى فيها معاهد لذة
تقضّت ، وأبقت بعدها أنفساً حسرى

ومنه :

أحن إلى تلك المعاهد كلما يجدد لى مر النسيم بها ذكرا

---

(١) ص ١٦٢ من الجزء الأول .
(٢) ص ٢٢٢ من كتاب المنتخب من أدب العرب ، الجزء الأول

أما والقدود المائسـات بسفحها ... وألحاظ غادات قد امتلأت سحرا
وما فى رباها من قوام مهفهف ... علا ، وغلا عن أن يباع وأن يشرى
لئن عاد لى هـذا السرور بأرضها ... وقرّت عن أهواه مقلتى العبرى :—
لأعتنقنّ اللهو فى عرصـاتها ... وأسجد ، فى محراب لذتها ، شكرا

وهذا شعر لا بأس به فى نسجه ومعناه ، وصدق عاطفته . ولا بأس به فى سماحته من شيخ الأزهر . وهو مما لم يروه له الجبرتى[1] .

العلماء وبطرس السادس

ولا أحب أن أنتهى من هذا الفصل عن « الثقافة والبيئة » قبل أن أسجل حادثا يشرف العلماء ، فى ذلك العصر . وهذا الحادث لم يسجله الجبرتى ولكنه وقع فى العصر الذى يؤرخه . وقد سجله على باشا مبارك فى خططه .

وخلاصة الأمر أن بطريرك الأقباط ، فى ذلك الوقت ، بطرس السادس ، كان شديداً على شعبه فى مراعاة الأمور الدينية . صلبا فى منعهم مما ينهى عنه الدين وخاصـة فى الزواج والطلاق . ووقع بين البطريرك وبين كبير الأمراء ، فى ذلك الوقت ، ابن إبواظ ، نزاع شديد على أمر من أمور المسيحيين فى مصر . بسبب تشدد البطريرك وصلابته . وناصر ابن إبواظ كثير من أهل الرأى والمكانة . وعرض النزاع على العلماء ، فأفتوا بحق بطرس السادس فيما يطلب ، ونصروه على ابن إبواظ .

وكان ابن إبواظ رجلاً عادلاً ، حكيما ، فرضى حكم العلماء ، واستصدر من الوالى أمراً بتمكين البطريرك مما يطلب . وألا يتعرض له أحد بعد ذلك[2] .

وقد وصف الجبرتى أهل الأزهر ، من العلمـاء والطلبة ، بأنهم جماعة من

---

(١) فى مكتبة سوهاج مخطوط برقم ١٠٠ تاريخ ، يتضمن ثلاث رسائل . منها واحدة كتبها الشيخ عبد الله الشبراوى يرجو فيها إبقاء المرتبات التى كانت جارية على العلماء ، والفقراء ، وأرباب الطرق الصوفية . وعلى المساجد والزوايا والتكايا . وكان السلطان محمود خان أمر بحرمانهم منها .

والرسالة ، فى أسلوبها ، لا بأس بها . بالنسبة لما كان يكتبه العلماء فى ذلك الوقت .

ومخطوط مكتبة سوهاج هذا صوره معهد إحياء المخطوطات بجامعة الدول العربية .

(٢) ص ٨٥ جزء ٦ من الخطط التوفيقية ، طبع المطبعة الأميرية

« الأخلاط » . وهى كلمة من العسير تحديدها ، ولكنها ، على أى حال ، ليست مرضية لهم ، كما يبدو من سياقها فى حديثه .

الجبرتى بين الفرنسيين

وأجد من الخير هنا أن أنقل عن الجبرتى وصفه لهذه الزيارة التى زار فيها جماعة العلماء الفرنسيين فى مقرهم فى الناصرية إذ ذاك . ووصفه ما وجد من أحاسيس وعواطف من هذه الزيارة وما شهد فيها .

وسيجد القارىء أن هذه القطعة التى أنقلها طويلة ، وقد تكون ثقيلة أيضا إذا قيست بما يقرأ، ويسمع . ولكنى أرجو أن يقرأها حتى يتمها ، لعدة أسباب . فهى نموذج مما كان يكتب العلماء فى العصر الذى نؤرخه . بل لعله نموذج من أجود ما كانوا يكتبون . والجبرتى مهما قيل فيه . ومع أنه لم يل منصبا من المناصب الأزهرية — سوى مشيخة رواق الجبرت — ولو أنه لم يؤلف كتابا كتلك التى كان يؤلفها العلماء إذ ذاك ، والتى ذكرنا طرفا منها من قبـــل . مع هذا وذاك فإن الجبرتى من العلماء ما فى ذلك شك . بل هو من كبارهم ومن أعلام الحيـاة الأدبية والعلمية لعصره . ومن قراءة هذه القطعة التى أنقلها من الجبرتى ندرك البون البعيد بين ما كان يفكر فيه العلماء ، وما كانوا يشغلون به أنفسهم من العلم ، وبين ما شهده الجبرتى عند علماء الحملة الفرنسية . وما أعجبه من تنسيقهم للكتب والمراجع والخرائط والصور . حتى فى المسائل الإسلامية التى لم يكن لهؤلاء العلماء شغل إلا بها .

ونستطيع أن ندرك — أو نتخيل — ما كانت تنال حيـاة الأزهر العلمية والثقافية والفكرية، وما كانت تنال حياة مصر والشرق من بعد ، لو أن هؤلاء العلماء لم يغلقوا عقولهم وأذهانهم وعواطفهم حتى لا يتسلل إليها شىء من علم هؤلاء العلماء الفرنسيين، أو منهجهم فى البحث، والتنظيم، والدراسة ، وذلك مجال يصل فيه التصور والخيال إلى مدى بعيد .

وما أريد بذلك أن ألوم العلمـاء فى القرن الثامن عشر ولا أن أشق عليهم فيه . وكيف ألومهم وما يزال خلفهم من الشيوخ مغلقة عقولهم وأذهانهم وآفاقهم بعد هذا الدهر الطويل وما جدّ فيه من علم ورأى .

وهذا هو الوصف : —

« وأفردوا للمدرّين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية ، كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات، والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين، حارة الناصرية ، حيث الدرب الجديد وما به من البيوت ، مثل بيت قاسم بك ، وأمير الحج المعروف بأبي يوسف ، وبيت حسن كاشف جركس القديم والجديد ، الذي أنشأه وشيده وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة من مظالم العباد . وعند تمام بياضه وفرشه حدثت هذه الحادثة[1] ففر مع الفارين وتركه . فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة فيراجعون فيها مرادهم . فتجمتع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختاه عريضة مستطيلة، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون ، حتى أسافلهم من العساكر . وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعزّ أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم . وخصوصا إذا رأوا فيه قابلية ، أو معرفة أو تطلعا للنظر في المعارف ، بذلوا له مودتهم ومحبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير ، وكرات البلاد ، والأقاليم ، والحيوانات ، والطيور ، والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم ، وقصص الأنبياء بتصاويرهم ، وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم ، مما يحير الأفكار . ولقد ذهبت إليهم مراراً وأطلعوني على ذلك. فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم ، وهو قائم على قدميه ناظر إلى السماء كالمرهب للخليقة وبيده اليمنى السيف وفي اليسرى الكتاب ، وحوله الصحابة رضي الله عنهم بأيديهم السيوف . وفي صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين . وفي الأخرى صورة المعراج والبراق وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه من صخرة بيت المقدس . وصورة بيت المقدس والحرم المكي والمدني .

---

(١) يقصد دخول الفرنسيين مصر

وكذلك صور الأئمة المجتهدين وبقية الخلفاء والسلاطين ، ومثال إسلامبول ومابها من المساجد العظام كآياصوفية وجامع السلطان محمد ، وهيئة المولد النبوى وجمعية أصناف الناس لذلك . وكذلك السلطان سليمان وهيئة صلاة الجمعة فيه . وأبى أيوب الأنصارى ، وهيئة صلاة الجنازة فيه ، وصور البلدان والسواحل والبحار والأهرام وبرابى[1] الصعيد والصور والأشكال والأقلام المرسومة بها . ومايختص بكل بلد من أجناس الحيوان، والطيور، والنبات، والأعشاب، وعلوم الطب والتشريح والهندسيات وجر الأثقال ، وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم . ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضى عياض ، ويعبرون عنه بقولهم شفاء شريف ، والبردة للبوصيرى ويحفظون جملة من أبياتها ، وترجموها بلغتهم . ورأيت بعضهم يحفظ سورا من القرآن . ولهم تطلع زائد للعلوم ، وأكثرها الرياضة ، ومعرفة اللغات ، واجتهاد كبير فى معرفة اللغة والمنطق ، ويدأبون فى ذلك الليل والنهار . وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات ، وتصاريفها ، واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أى لغة كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت . وعند توت الفلكى وتلامذته فى مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة ، وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب ، الغالية الثمن ، المصنوعة من الصفر المموه . وهى تركب ببراريم مصنوعة محكمة كل آلة منها عدة قطع تركب مع بعضها البعض رباطات وبراريم لطيفة بحيث إذا ركبت صارت آلة كبيرة ، أخذت قدرا من الفراغ ، وبها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها إلى المرئى ، وإذا انحل تركيبها وضعت فى ظرف صغير . وكذلك نظارات للنظر فى الكواكب وأرصادها ، ومعرفة مقاديرها وأجرامها ، وارتفاعاتها واتصالاتها ، ومناظراتها . وأنواع الساعات التى تسير بثوانى الدقائق الغريبة الشكل الغالية الثمن، وغير ذلك . وأفردوا لجماعة منهم بيت إبراهيم كتخدا السنارى . وهم المصورون لكل شىء ، منهم أريجو المصور ، وهو يصور صور الآدميين تصويراً يظن من يراه أنه بارز فى الفراغ مجسم يكاد ينطق . حتى أنه صور صورة المشايخ كل واحد على حدته فى دائرة ، وكذلك

(١) الآثار التى خلفها الفراعنة

غيرهم من الأعيان، وعلقوا ذلك فى بعض مجالس سارى عسكر[1] ، وآخر فى مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات ، وآخر يصور الأسماك والحيتان بأنواعها وأسمائها . ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذى لا يوجد بلادهم فيضعون جسمه بذاته فى ماء مصقوع حافظ للجسم فيبقى على حالته وهيئته لا يتغير ولا يبلى ولو بقى زمناً طويلا ، وكذلك أفردوا أماكن المهندسين، وصناع الدقائق . وسكن الحكيم رويا ببيت ذى الفقار كتخدا بجوار ذلك ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه فى ناحية ، وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان واستخراج الأملاح ، وقدورا عظيمة وبرامات ، وجعل له مكانا أسفل وأعلى ، وبهما رفوف عليها القدور الملوءة بالتراكيب، والماجين، والزجاجات المتنوعة ، وبها كذلك عدة من الأطباء والجرايحيّة ، وأفردوا مكانا فى بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب والكيماوى ، وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع ، وآلات تصاعيد الأرواح ، وتقاطير المياه ، وخلاصات المفردات ، وأملاح الأرمدة المستخرجة من الأعشاب والنباتات واستخراج المياه الجلاّءة والحلالة ، وحول المكان الداخل قوارير وأوان من الزجاج البلورى المختلف الأشكال والهيئات على الرفوف والسدلات ، وبداخلها أنواع مستخرجات . ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئا فى كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى فعلا الماءان وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس ، وصار حجرا أصفر ، فقلبه على البرجات حجرا يابسا أخذناه بأيدينا ونظرناه . ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق . وبأخرى فجمد حجرا أحمر ياقوتيا ، وأخذ مرة شيئاً قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف ، فخرج له صوت هائل كصوت القربانة[2] انزعجنا منه ، فضحكوا منا . وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة فى مقدار الشبر ضيقة الفم فغمسها فى ماء قراح موضوع

(١) نابليون أو من يقوم مقامه .

(٢) البندقية .

المجاورين ، فقبض عليهم الأغا وسألهم فقالوا لسنا بسارقين . ولكننا سمعنا الشيخ محمد الدرقاوى ، شيخ المغاربة المنفصل ، أى المعزول ، ومعه إخوته وآخرون ، نعرفهم بأصواتهم ، وهم يتذاكرون فى ذلك .

وأنكر شيخ المغاربة أول الأمر إنكاراً شديداً . ثم لجأ إلى قريب له من ذوى النفوذ مستجيراً به ، أن يستر عليه وعلى أولاده . ثم فتح خزانة عنده وأخرج منها أشياء مما سرق من قبل . فلما سئل عن صندوق المرآة الرومية ، قال أحضره آخر الليل . ثم جاء به ابنه آخر الليل يحمله له رجل فقير يرقع الأحذية . فقبض الشرطة على حامل الصندوق ، وفر ابن الدرقاوى . ولكن مرقع الأحذية استطاع أن يثبت على هذا الابن السرقة .

وكانت قضية فى « المحكمة الكبيرة » اجتمع الكثيرون لشهودها . كما تقدم إليها كثير ممن سرقت لهم أموال وحاجات . وقطعت فيها أيدى ثلاثة من السراق ، منهم ابن الدرقاوى .

ويقول الجبرتى : إنه فى هذا الوقت نفسه ، أخرجت طائفة من القوادين ، والنساء . سكنوا حى الأزهر ، حتى إن أكابر الدولة وعساكرهم ، بل وأهل البلد والسوقة . جعلوا سمرهم وديدنهم ، ذكر الازهر وأهله .

أزهرى يدعى النبوة . . . !

ومن الحوادث التى سجلها الجبرتى : أنه فى أوائل رمضان من سنة ١١٤٧ ظهر بالأزهر رجل يدعى النبوة . فأحضروه بين يدى الشيخ احمد العماوى . فسأله عن حاله . فقال الأزهرى : إنه كان فى شربين ، فنزل عليه جبريل ، وصعد به إلى السماء ليلة سبع وعشرين من رجب ، وأذن جبريل فصلى الأزهرى ركعتين ، والملائكة من خلفه . فلما فرغ من صلاته أعطاه جبريل ورقة ، وقال له : أنت نبى مرسل . فانزل وبلغ الرسالة ، وأظهر المعجزات . واتهمه الشيخ العماوى بالجنون ، ولكنه أصر على أنه عاقل ، وأنه نبى مرسل . فضربه الأزهريون ، وأخرجوه من الأزهر ، ثم سمع به عثمان كتخدا فأحضره ، وسأله . فقال ماقاله أمام الشيخ من قبل . فأرسل إلى المارستان أياما ثم طلبه الوالى ، عثمان باشا الحلبى ، وسأله أيضاً . فأصر

على أنه نبي مرسل . وبعد حبسه ثلاثة أيام ، دعا عثمان باشا العلماء ، واستجوبه أمامهم. فلم يتحول ، فأمره العلماء بالتوبة ، فامتنع ، وأصر . فأمر الباشا بقتله . وكان وهو يقدم للقتل يتلو قوله تعالى : فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . وقد قيل في حادث هذا الأزهري المتنبيء ، شعر ، ومواليا ، أورد الجبرتي بعضاً منها .

استغاثة أبي مدين ... !

ومما رواه الجبرتي عن العلماء ، أن الشيخ علي الجزائرلي ، المعروف بابن الترجمان وكان عالما ، ذكيا ، يعرف اللغة التركية ، سافر إلى استانبول . وكانت الدولة في حرب مع روسيا . فأرسل خطابا إلى السلطان مصطفى يقول فيه : إن من قرأ استغاثة أبي مدين الغوث ، في صف الجهاد ، كان له النصر . فقال السلطان : إن الشيخ الذي كتب لنا هذا لابد أنه رجل طيب . وأنا أحب أن تحل بركته على جيوشي . بأن يسير بنفسه مع الجند ، ويقرأ في صفوفهم هذه الاستغاثة ... ! وفوجيء الشيخ بطلبه إلى الحرب ، فلم يجد بداً من السفر . وتقدم صفوف الجيش يتلو استغاثة أبي مدين . ولكن الهزيمة كانت على جيش الدولة ، وأسر الشيخ مع من أسر . وسيق إلى موسكو ، وبقي فيها أسيراً . أو كما يقول الجبرتي « لم يفته أحد » حتى مات بها سنة ١١٨٥ .

وكان من المألوف أن يطلب الوالي ، أو السلطان ، إلى أهل الأزهر أن يقرأوا البخاري ، لنصرة ، أو رفع بلاء ، أو جدب . تبركا بهم . ففي شهر رجب من سنة ١٢٠٢ قدم القاهرة أغا من إسلامبول ، ومعه ألف قرش ، أرسلها السلطان عبد الحميد خان لتفرق على طلبة العلم في الأزهر ، ليقرأوا له صحيح البخاري ، ويدعوا له بالنصر . وليدعوا الله أيضاً أن يرفع عن الناس الطاعون . وبعد أيام كتب أهل الأزهر إلى الباشا ، قائلين : إن الألف قرش لم تكف ، فزادها ثلاثة آلاف . وأحضروا أجزاء البخاري وقرأوها ، ولكن الطاعون لم يرفع ، بل زاد وفشا .

وفي رجب ، أيضاً ، من العام التالي ، ورد مرسوم من الدولة ، يأمر بقراءة صحيح البخاري في الأزهر ، لينصر الله السلطان على الروسيا . ويأمر بأن يدعوا أهل

الأزهر بذلك ، بعد الأذان لكل صلاة . فأمر الباشا باختيار عشرة علماء ، من مختلف المذاهب ، لقراءة البخاري في كل يوم . ورتب لكل واحد منهم عشرين نصف فضة . ووعدهم بتقريرها لهم على الدوام ، بفرمان من السلطان .

وفي شهر ذي القعدة ، من سنة ١٢٣٢ تلقى أهل الأزهر أمرا من محمد علي . بقراءة البخاري ، لينصر الله ابنه إبراهيم ، في حرب الحجاز ، وكانت أخباره انقطعت فترة طويلة ، فلما انتهوا من القراءة « نزل لهم » عشرون كيساً فرّقت بينهم .

ملابس العلماء والإشراف على الأزهر

وقد وصف الجبرتي ، في مواضع متفرقة ، زي العلماء . الذي كانوا يتميزون به عن بقية الناس . وأبرز مافيه العمامة الكبيرة . فقد أطنب في وصف عمامة الشيخ السادات خاصة ، وضخامة حجمها . والصور التي سجلها المصوّرون في الحملة الفرنسية لكبار العلماء ، في ذلك العصر ، تشهد بذلك .

وكان للأزهر ناظر ليس من العلماء ، بل من المماليك . يتولى الإشراف على نظافة الأزهر وفرشه . والعناية بمن فيه من الغرباء . إلى غير ذلك من الأمور الإدارية . وقد أبطلت هذه الوظيفة أيام الفرنسيين . ثم أعادها محمد علي ، في أول عهده . واختار لها الشيخ محمدا الأمير .

وكان مما يقدم لطلبة الأزهر ، من ألوان الطعام ، الهريسة . خصص عبد الرحمن كتخدا وقفاً لطبخها ؛ وإطعام الأزهريين منها ، في يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع ، كما ذكرنا في ترجمته .

الفهرس